2 المكتبة الهيجلية

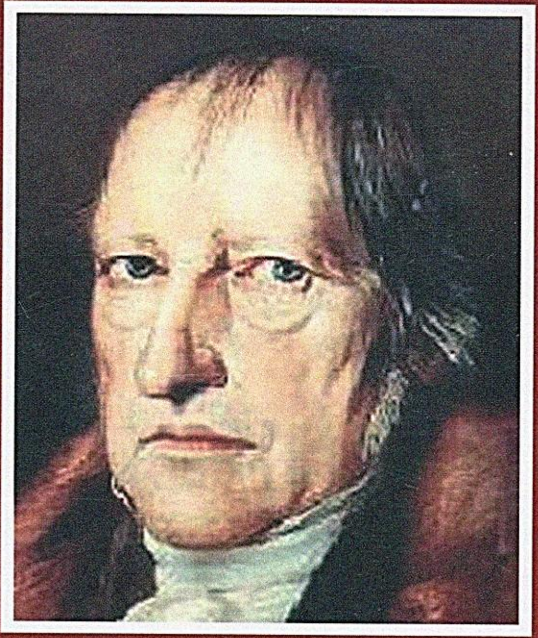

هيجل

ترجمة وتقديم وتعليق
د. إمام عبد الفتاح إمام

العالم الشرقي

المجلد الثاني

من محاضرات في فلسفة التاريخ

التنوير

علي مولا

هيجل

العالم الشرقي

ترجمة وتقديم وتعليق
د. إمام عبد الفتاح إمام

• ج . ڤ . ف . هيجل : محاضرات في فلسفة التارخ
(العالم الشرقي)
• جميع حقوق الطبع محفوظة
• الطبعة الثالثة ٢٠٠٧
• الناشر : دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت
هاتف وفاكس : ٤٧١٣٥٧ / ٠٠٦٩١١ ـ ٧٢٨٤٧١ / ٠٣ ـ ٧٢٨٣٦٥ / ٠٣

مقدمة عامة

بقلم المترجم

« هيجل . . والعالم الشرقي »

سوف نقسم هذه الدراسة ثلاثة أقسام غير متساوية بحيث نجعل من القسم الثاني المحور الرئيسي الذي يعرض لتحليل هيجل لعالمنا الشرقي . أمّا القسم الأول فسوف نسوق فيه ، بإيجاز ، فكرة عن الخصائص العامة لفلسفة التاريخ الهيجلية . على أن يكون القسم الثالث والأخير خاتمة نقدية .

أولاً : الخصائص العامة لفلسفة التاريخ عند هيجل :

في استطاعتنا أن نلخص الخصائص العامة بايجاز شديد في عبارة جامعة فنقول : إن التاريخ عند هيجل هو عرض للروح ، وماهية الروح الحرية ، ومن ثمّ كان مسار التاريخ هو تقدم الوعي بالحرية، لكنها ليست حرية فردية سلبية تعسفية . ومعنى ذلك أن التاريخ عند هيجل غائي ، فكل ما يحدث له معنى ، وله ما يبرره . والغائية هي الجانب الموضوعي الذي يمثل الضرورة في هذا المسار . لكن الضرورة ـ أو الجانب الموضوعي ـ لا تعمل وحدها فهناك الجانب الذاتي الحر للأفراد ، ومن ثمّ كان التاريخ ارتباطاً وثيقاً بين الضرورة والحرية ، والدافع لهذه الحركة هو التناقض الموجود بين الواقع الخارجي وما تريد الروح أن تحققه . ويقسم هيجل هذه الحرية تقسيماً ثلاثياً يبدأ من عالمنا الشرقي وينتهي بعالمه الجرماني !

* * *

لكن هذا الايجاز الشديد يحتاج إلى كلمة شرح تفسِّره وتوضحه دون أن تُدخلنا في تفصيلاته الكثيرة . وربما كان علينا أن نسأل ، في البداية ، ما المقصود بالتاريخ عند هيجل ؟ والجواب : التاريخ هنا هو التاريخ البشري ، بصفة عامة ، منظوراً إليه من خلال الفكر : فلا هو التاريخ الجزئي لشعب معين أو مرحلة خاصة أو حضارة محددة ، ولا هو يهتم بجانب معيّن من الحضارة (كالتاريخ السياسي أو الاقتصادي . . الخ) وإنما هو « التاريخ الفلسفي للعالم »[1] . أو التاريخ الكلي كما يسميه أحياناً : « وهذا التاريخ هو عرض للروح وهي تعمل على اكتساب المعرفة بما تكونه بالقوة . وكما أن البذرة تحمل في جوفها كل طبيعة الشجرة ، وطعم الفاكهة ـ وشكلها ، فكذلك تتضمن البوادر الأولى للروح تاريخها كله . . »[2] ومعنى ذلك أن السمة الأولى لفلسفة التاريخ الهيجلية هي أنها تجعل من التاريخ عرضاً للروح « فعلى المسرح الذي تشاهد الروح عليه ، وأعني به التاريخ الكلي : تكشف الروح عن نفسها في حقيقتها الأكثر عينية »[3] . فالروح منذ البداية تحمل امكانات كثيرة تَفُضّها في مراحل التاريخ المختلفة مكتسبةً معرفة ووعياً بما هي عليه في ذاتها . . . . . . an sich . ومن هنا اقتضى التحقق الكامل للروح : « أن تنمو المجتمعات لكي تعبر تعبيراً كاملاً عن العقل وتجسده[4] ، ما دامت الروح تحقق نفسها في الزمان . ومن هنا نستطيع أن نقول إن هذا التحقق أو الوصول إلى مجتمع يعبر عن العقل هو هدف

---

(١) هيجل : « محاضرات في فلسفة التاريخ » الجزء الأول بعنوان « العقل في التاريخ » ترجمة د . امام عبد الفتاح امام ص ٦٣ دار التنوير بيروت عام ١٩٨١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٨٢ .

(٣) المرجع نفسه ص ٨٢ .

(٤) لاحظ أن العقل عند هيجل يعبر عن المرحلة العليا للروح ، فلا تعارض بين ما يقوله أحياناً من « أن التاريخ عرض لمسار الروح » وما يقوله أحياناً أخرى « أن العقل يحكم التاريخ » أو أن الهدف هو أن يتحقق « العقل في دولة » ـ قارن كيف يكون العقل مرحلة عليا للروح كتابنا « المنهج الجدلي عند هيجل » ص ١١١ ومابعدها، دار التنوير بيروت عام ١٩٨٢ .

التـاريخ . . »[٥] . فهـدف الروح أن تتحقق في التـاريخ وأن تصـل إلى فهم لنفسها ، ومعرفة بذاتهـا ، وذلك يتحقق في الـدولة . ومن هنـا نراه يقـول : «علينا أن نبدأ بالعالم الشرقي، لكن ليس قبل الفترة التي تُكتشف فيها الدول في هذا العالم ، ذلك لأن انتشار اللغة وتكوين الأجنـاس يقعان خـارج حدود التـاريخ ، فـالتـاريـخ هـو الـواقـع أمّـا الأسـاطـير فهي لا تـرقى إلى مـرتبـة التاريخ . . »[٦] .

* * *

وتبـدو السمة الثـانية واضحـة عندمـا نفهم طبيعة الـروح : « فكما أن ماهية المادة هي الثقل فإن ماهية الروح هي الحرية. . وتعلمنا الفلسفة أن كل صفـات الروح لا تـوجد إلّا بـواسطة الحـريـة ، وأنها كلهـا ليست إلّا وسيلة لبلوغ الحرية ، كلها تسعى إلى الحرية وتؤدّي إليها هي وحدها . . »[٧] غـير أن الحرية هنا ليست هي الحرية الفرديـة السلبية : حـرية الارادة أو الاختيـار التعسفية للفرد ، لأن مثل هذه الحرية جزئية ومحـدودة ، وقد لا تكـون سوى نزوة شخصية ، أو مجـرد هوى وانفعـال ، وإنما الحـرية المقصـودة هنا هي أن يتبـع الانسان مـاهيته الخـاصـة وهي العقـل ، وهي تعني المشـاركـة في حيـاة اجتمـاعية أوسـع هي الدولـة « إذ في الدولـة وحدهـا يكون لـلانسان وجـود عاقل » : « فالحريـة ليست مفهومـاً سلبياً وإنمـا ينبغي أن ترتبط ببنـاء قانـوني ما ، وهو ما يمكن أن نتفق فيه مع هيجل لكن لا يترتب على ذلـك أنه حيثـما يـوجد القـانون تـوجد الحـرية . . »[٨] وإنْ كـان برتـراند رسـل B. Russell

---

(٥) - Charles Taylor: Hegel; p. 389- Cambridge University Press, 1975.

(٦) - G. W. Hegel: «Lectures of the Philosophy of History» p. 116 English Trans. by J. Sibree, London George Bell and Sons, 1900.

(٧) هيجل « العقل في التاريخ » ص ٨١ من ترجمتنا العربية السابقة، دار التنوير بيروت عام ١٩٨١ .

(٨) برتراند رسل « حكمة الغرب » ص ١٧٨ الجزء الثاني ترجمة د . فؤاد زكريا العدد ٧٢ من عالم المعرفة ديسمبر ١٩٨٣ .

يخطىء عندما يذهب إلى أن الحرية ليست مرادفة للقانون ، ذلك لأن القانون الذي يقصده هيجل هو القانون الكلي الذي يعبر عن العقل لا القانون الجزئي الذي يعبر عن أهواء الحاكم ونزواته الشخصية .

مسار التاريخ ، إذنْ ، يشكل حلقات متتابعة تمثل درجات مختلفة من الوعي بالحرية ، فمراحلها الأولى تعبيرات ناقصة تماماً لما سوف تجسده المراحل المتأخرة بشكل أكثر كفاية وأكثر اقناعاً . ومعنى ذلك أن تحقق الروح ، ووعيها بذاتها ، الذي يشكل حريتها ، يتم في التاريخ على مراحل متعددة هي الحضارات المختلفة ومن هنا كان : « تاريخ العالم هو عرض لمسار الروح في أعلى صورها ، أعني ذلك التقدم التدريجي الذي تبلغ بواسطته حقيقتها ووعيها بذاتها . والصورة التي تتخذها مراحل التقدم هذه هي « الأرواح القومية » المميزة في التاريخ ، وهي الطابع الخاص لحياتها الأخلاقية وحكومتها وفنها ودينها وعلمها . ويعتبر تحقيق هذا التقدم بدرجاته المتعددة الدافع الذي لا حد له لروح العالم . . »(٩) . والروح في كل مرحلة تتجسد فيما يسميه هيجل « روح الشعب .. Volksgeist : »« وهي فكرة لا تتضمن أية نظرية خاصة عن ذاتٍ للمجتمع أعلى من الفرد ، بل أن روح الشعب هي الثقافة والحضارة التاريخية ، منظوراً إليها على أنها تجسيد للروح Geist في مرحلة معينة من تحققها الفعلي ومن معرفتها بذاتها . . »(١٠) . فروح الشعب تعني العقل الكلي الساري في حضارة معينة ، بحيث نجد أن الفلسفة التي يُعبِّر عنها التنظيم السياسي هي نفسها التي يصورها الفن في انجازاته المختلفة ، وهي ذاتها المتمثلة في الدين السائد ، فالعقلية واحدة في كل ما تنتجه الروح من أنشطة في هذا المجتمع .

واضح مما تقدم أن هناك « غاية » يسعى التاريخ إلى تحقيقها ، وهو ينجز جانباً منها بالفعل في كل مرحلة من المراحل التي يصل إليها بحيث يجيء

---

(٩) هيجل : « العقل في التاريخ » ص ١١٨ ـ دار التنوير بيروت عام ١٩٨١ .
(١٠) - Charles Taylor: Hegel, p. 390

التعبير الكامل عن هذه الغاية في المرحلة الأخيرة . وليست هناك « غاية نهائية » ، أو أخيرة إلاّ مع انتهاء التاريخ البشري نفسه ، فكل مرحلة تنظر إلى نفسها على أنها « نهائية » ومطلقة . ولمّا كان هيجل يقول مراراً أن التاريخ ينتهي في الحاضر لا في المستقبل فإن بعض الباحثين اعتبر حديثه عن الدولة البروسية ضرباً من التمجيد أو التأليه في حين أن هذا هو الحاضر الذي تصادف أن عاش فيه الفيلسوف ، والحاضر باستمرار هو القمة التي يبلغها تطور الروح(١١) .

مسار التاريخ ، إذنْ ، غائي(١٢) ، أعني أنه لا بدّ أن يُفهم فهماً غائياً بوصفه مساراً يتجه نحو تحقيق الوعي الذاتي للروح : « فالغرض النهائي للروح هو وعي الروح بحريتها ، أو أن تجعل من العالم متفقاً مع ذاتها ـ والمعنى واحد ـ فكل ما يحدث في التاريخ له معنى ، وله ما يبرره ، أو هو كما يقول هيجل أحياناً : « الخطة الإلهية للعالم » ، غير أن هذه الغاية لا تكون واضحة في البداية بل هي ضمنية أو في ذاتها ....an sich أو بالقوة كما يقول أرسطو ؛ فهي أشبه بالبذرة التي تحمل في جوفها طبيعة الشجرة ـ يقول هيجل : « يبدأ تاريخ العالم بغاية عامة لكنها ضمنية تتحقق عن طريق الانفعالات والمصالح الجزئية ، فالمجموعة الهائلة من الارادات والمصالح هي الأدوات والوسائل التي تستخدمها الروح لبلوغ هدفها(١٣) . ومعنى ذلك أن هناك جانباً موضوعياً مستقلاً عن الأفراد هو الغاية العامة وهو يمثل الضرورة ، ثم جانباً ذاتياً هو الأفراد يمثل الحرية فكأن مسار التاريخ هو

---

(١١) قارن « العقل في التاريخ » ص ١٥٤ ـ ١٥٥ وتعليقنا حاشية ٥٧ .

(١٢) انظر في موضوع الغائية ..Teleology في فلسفة التاريخ الهيجلية الفصل الثاني من كتاب **Burleich Taylor Wilkins: Hegel's Philosophy of History p. 84 - 142 Cornell University Press, 1974.**

(١٣) هذا هو ما يسميه هيجل « بدهاء العقل » وهي الصفة التي يشعل بها العقل الانفعالات والارادات والمصالح الجزئية لكي تعمل من أجله ـ قارن ص ٩٧ من « العقل في التاريخ » في الترجمة العربية السالفة الذكر .

ارتباط بين الضرورة والحرية . وهذا الجانب الميتافيزيقي يدرسه علم المنطق . . »[١٤] .

وعلى ذلك يكون مسار التاريخ مغزولاً من الضرورة والحرية (أو الجانب الموضوعي والجانب الذاتي) ، فمن الضروري للتحقق الذاتي للروح أن تتحرك في البداية من التخارج الهائل إلى الوعي الذاتي الكامل : وإذا كانت البداية ضرورية ، على هذا النحو ، فإن المراحل التي تسير فيها طول رحلتها هي أيضاً ضرورية ، ولا بدّ لكل مرحلة أن تضع نفسها ؛ والقوة الدافعة المحركة لهذه المسيرة هي التناقض الموجود بين الواقع الخارجي وبين ما تريد تحقيقه ، غير أن هذا التناقض يُحلّ باستمرار في أية صورة جزئية لكن هذه الصورة ذاتها تحمل في جوفها تناقضاً آخر ، ومن انهيار الصورة الأولى تظهر صورة جديدة ، وهكذا دواليك خلال التاريخ كله .

وعلى هذا النحو نرى التاريخ بوصفه حركة جدلية . نقطة البداية ونقطة النهاية تضعها الروح وضعاً ضرورياً . وكذلك المراحل المتوسطة فهي بدورها ضرورية . والبداية ، باستمرار ، وحدة مجردة أشبه بالبداية التي يبدأ منها المنطق ، وكذلك النهاية عينية تضم المراحل السابقة كلها : « فكأن خطة التاريخ هي نفسها خطة الفكرة ، والفهم الفلسفي لها تفترضه مقدماً فلسفة التاريخ . ومن ثمّ فجدل التاريخ ينبغي أن يُفهَم على أنه انعكاس للمراحل الضرورية المتصورة للفكرة وهي تَفضّ نفسها . . »[١٥] في المنطق ، فنفس القوانين العامة للجدل التي تحكم مسار التاريخ هي التي عرضها هيجل في تحليله للعقل الخالص في المنطق[١٦] . تاريخ العالم هو ، إذنْ ، مسار تكافح فيه الروح لكي تصل إلى وعي بذاتها ، أعني لكي تكون حرة ، وكل مرحلة

---

(١٤) « العقل في التاريخ » ص ٨٨ ـ ٨٩ من طبعة دار التنوير بيروت عام ١٩٨١ .

(١٥) - Charles Taylor: Hegel p. 391.

(١٦) قارن في ذلك كتابنا « المنهج الجدلي عند هيجل » ص ٢٧ وما بعدها، دار التنوير بيروت عام ١٩٨٢ .

من مراحل سيره تمثل درجة من الحرية والمرحلة الأولى التي تبدأ منها الروح هي العالم الشرقي : الصين ، والهند ، وفارس ، ومصر . وكل ما عرفه الشرق هو أن شخصاً واحداً حر : هو الحاكم أمّا المواطنون فهم جميعاً عبيد لهذا الحاكم . غير أن هيجل ينبهنا إلى أن حرية الحاكم لم تكن تعني سوى انسياقه وراء أهوائه وانفعالاته ونزواته (أي جانبه الجزئي) وبالتالي لم تكن حريته تعيناً لذاته ، ولا تعبيراً عن ماهيته الحقة (أي العقل) ، ومن ثم كان هذا طاغية لا انساناً حراً . أمّا المرحلة الثانية فتمثلها الحضارة اليونانية والرومانية حيث نجد أن نطاق الحرية قد اتسع عمّا كان عليه عند الأمم الشرقية : فاليونان ، وكذلك الرومان ، عرفوا أن البعض أحرار ، وهذا البعض هو المواطن اليوناني أو الروماني ، أمّا المواطنون في الأمم الأخرى فقد كانوا ينظرون إليهم على أنهم « برابرة » أو « همج » ولهذا اتخذوا من أسرى الحرب عبيداً وأرقاء ، حتى أن عمالقة الفكر اليوناني ، مثل أفلاطون وأرسطو ، أقرّوا نظام الرق لأنهم لم يعرفوا أن الانسان بما هو إنسان حر . أمّا الأمم الجرمانية فقد كانت ، بتأثير المسيحية ، أول الأمم التي تصل إلى الوعي بأن الانسان بما هو انسان حر . وأن حرية الروح هي التي تؤلف ماهيتها وقد ظهر هذا الشعور أول ما ظهر في قلب الدين ، وهو أعمق منطقة للروح : ولكن ادخال هذا المبدأ في مختلف العلاقات السائدة . . يحتاج إلى عملية ثقافية طويلة الأمد (١٧) قامت بها الشعوب الأوروبية لا سيما الأمة الجرمانية .

ثانياً : تحليل هيجل للعالم الشرقي

يهمنا من المراحل السابقة بالدرجة الأولى « العالم الشرقي » لا لأنه الخطوة الأولى التي خطتها الروح ولا لأنه « في آسيا أشرق ضوء الروح ومن ثمّ بدأ التاريخ الكلي » كما يقول هيجل(١٨) . ولكن لأنه عالمنا نحن ، فهو

(١٧) « هيجل العقل في التاريخ » ص ٨٢ من الترجمة السالفة الذكر .
(١٨) المرجع نفسه ص ١٧١ .

أكثر مراحل التاريخ أهمية لنا ، إنه تحليل للشخصية الشرقية ، التي لا يزال الكثير من سماتها النيئة للأسف الشديد قائمة حتى يومنا الراهن ، وفي ظني أن تعرّفنا على تحليل عميق لهذه الشخصية تقوم به عبقرية جبارة ، مثل هيجل ، له فائدة مزدوجة . فنحن ، من ناحية ، نجد أنفسنا في هذا التحليل العميق « للروح الشرقي » أمام مرآة مكبّرة تنعكس عليها شخصيتنا بكل ما فيها من جمال وقبح ، وفي استطاعة القارىء أن يقارن بين ما يقوله هيجل عن صفات وخصائص العالم الشرقي في الأخلاق والسياسة والفن والدين ومظاهر الحياة المختلفة ، وما يراه من حوله في هذه المجالات. ومن ناحية أخرى فإن وصولنا إلى هذا الوعي الذاتي (إنْ وصلنا إليه أصلاً !) مسألة بالغة الأهمية لأنه يمثل الموقف المعرفي بأدق جوانبه ، وهو الموقف الذي يساعدنا على أن نستيقظ فنقيّم ونصحح ثم نبني ونلحق بركب الحضارة !

القسم الأول : الصين

يقسم هيجل العالم الشرقي ، كعادته ، تقسيماً ثلاثياً ، الصين ثم الهند وأخيراً فارس ، وهو يلحق مصر بالامبراطورية الفارسية لتكون الجسر الذي تعبر عليه الروح إلى العالم اليوناني .

يبدأ هيجل تحليله للعالم الشرقي بامبراطورية الصين لأنها ، فيما يقول ، أقدم ما ينبئنا به التاريخ ، فإذا كان تاريخ الامبراطوريات الآسيوية يرجع بصفة عامة إلى حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، فإننا نستطيع أن نصنفه كما يلي : يرجع تاريخ الصين إلى عام ٢٣٥٧ ق. م. أمّا التاريخ المصري فيصل إلى عام ٢٢٠٧ ق. م كما يصل تاريخ الاشوريين إلى عام ٢٢٢١ قبل الميلاد ، والتاريخ الهندي إلى ٢٢٠٤ ق. م ـ وعلى الرغم من أن هذه التواريخ التي يسوقها هيجل كلها مشكوك في صحتها لأنها تعتمد على معلومات المؤرخين في القرن التاسع عشر ، فإن هيجل يخبرنا أنه يعتمد في تاريخ الصين بالذات على مجموعة من الكتب والوثائق الصينية القديمة التي كتبها الصينيون أنفسهم ، وتُسمى هذه الكتب باسم كتاب « الملوك

Kings.... » : وفضلاً عن ذلك فإن « ماركوبولو » جاب هذه البلاد ، لأول مرة في القرن الثالث عشر ، ورأى بنفسه الحياة هناك ، واعتبرت تقاريره في البداية خرافة وأساطير لكن تأكد بعد ذلك كل ما قاله . .[١٩] .

أولاً : الوحدة الجوهرية

يعتقد هيجل أن الصين ظلت منذ فجر التاريخ على الحال التي هي عليها في يومنا الراهن ، فما هي تلك الحال ؟ يقول : « المبدأ العام هو الوحدة المباشرة للروح الجوهري وللروح الفردي . وذلك هو روح العائلة الذي يمتد ليشمل أعظم البلاد كثافة في السكان»[٢٠]. ومعنى ذلك أن الروح الفردي أو «لحظة الذاتية» كان مدمجاً في جوف الروح الجوهري أو الكلي أو الارادة الكلية التي تمارس نشاطها على نحو مباشر من خلال إرادة الأفراد دون أن تعي الارادة الفردية نفسها أو تعارضها مع هذه الارادة الكلية ، فالدولة في الصين تعتمد أولاً على ولاء الفرد للأسرة ، وثانياً على ولائه للدولة ، وفي الحالتين تسيطر « روح الأسرة أو العائلة » ـ فالصينيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ينتمون إلى أسرهم أو عائلاتهم وعلى أنهم ، في الوقت ذاته ، أبناء للدولة ، فالأسرة بمعناها الواسع هي الدعامة الكبرى التي عملت على دوام التراث الأخلاقي عندهم ، إذ ظل الأبناء يتوارثون عن آبائهم القانون الأخلاقي جيلاً بعد جيل حتى أصبح هذا القانون هو الحكومة الخفية للمجتمع الصيني »[٢١] .

معنى ذلك أن الصينيين ليست لهم شخصيات فردية مستقلة لا داخل الأسرة ولا خارجها . والوحدة الجوهرية هنا هي وحدة الدم والوحدة

---

(١٩) - Hegel: Philos. of History p. 123

(٢٠) - Hegel: Ibid, p. 194.

(٢١) ول ديورانت « قصة الحضارة » الجزء الرابع من المجلد الأول ص ٢٦٥ ترجمة للأستاذ محمد بدران ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة عام ١٩٦٦ .

الطبيعية ، ولمّا كانت الدولة بالنسبة لهم أسرة كبيرة أو هي امتداد لأسرهم الصغيرة انعدم وجود الشخصية المستقلة عندهم ، علماً بأن هذه الشخصية تتطلب وجود الوعي الذاتي الذي يعي نفسه أولاً ثم يُفرِّق ويتميز عن الآخر ثانياً ، لذا كانت العلاقة السائدة هي العلاقة الأبوية البطرياركية Patriarchal...... التي تجعل من الأب كل شيء ومن الأبناء لا شيء ثم تجعل العلاقة واجباً أخلاقياً يتمثل في طاعة هؤلاء الأبناء لوالدهم، فنظام الأسرة الأبوية البطرياركية يقوم على أساس سلطة الأب المطلقة على جميع أفراد الأسرة بحيث يندمج أعضاؤها جميعاً في كل واحد هو الأب . وينطبق ذلك نفسه على الأسرة الكبيرة التي هي الدولة ، فالمبدأ الذي يمثل الروح في هذه المرحلة مبدأ واحد وهو الوحدة المباشرة للروح الجوهري وللروح الفردي على نحو ما تعبر عنه روح العائلة وهو يمتد ليشمل البلاد جميعاً فيظهر أب للجميع في شخص الأمبراطور . ومعنى ذلك أنه لا وجود لعنصر الذاتية أو لانعكاس الارادة الفردية على ذاتها في معارضة الجوهر بوصفه القوة التي تمتص بداخلها الارادة الفردية ، فالارادة الكلية في الصين تأمر مباشرة بما ينبغي على الفرد أن يفعله ، وهذا الأخير يذعن ويطيع بلا فكر ولا رويّة لأنه إذا لم يطع انفصل عن الجوهر ، وهو بذلك يعرِّض نفسه للعقاب . ولمّا كانت علاقة الأخلاق هنا خارجية فسوف تكون العقوبة خارجية أيضاً على نحو ما سنعرف بعد قليل . فما يسود هنا هو العام أو هو الارادة الكلية أو الجوهر الذي لا يزال صلباً لايلين ولا يشبه شيئاً سوى ذاته، إنه أقرب إلى الوجود الخالص ، الذي لم يتعين بعد ، والذي يبدأ به المنطق .

معنى ذلك أن هيجل يجعل من النظام الأبوي البطرياركي الصورة العامة للعلاقات الاجتماعية والسياسية السائدة في امبراطورية الصين القديمة : ابتداء من الأسرة الصغيرة إلى العائلة الكبيرة إلى النظام السياسي في الدولة فليس ثمة ، على جميع المستويات ، سوى شخصية واحدة أدمجت فيها جميع الشخصيات الفردية وتلك هي شخصية الأب المسيطر سيطرة مطلقة (الأب الامبراطور في الأسرة ـ أو الامبراطور الأب في الدولة) .

كان هناك ، إذنْ ، « رب العائلة » في النظام الصيني القديم وليس ثمة ما يدهش إذا ما تكرر ظهور الفكرة نفسها في القرن العشرين في المجتمعات الشرقية . لكن علينا أن نلاحظ أنه في مثل هذا النظام لا مجال للحديث عن « حقوق » من أي نوع ، سواء أكانت سياسية أو اجتماعية ـ الخ ـ إنما الحديث باستمرار عن « واجبات » ، لأن فكرة « رب العائلة » هي في الواقع فكرة أخلاقية وليست سياسية وطريق الواجبات ذو اتجاه واحد لا يُعكس : من أسفل إلى أعلى فقط ، ومن الأدنى إلى الأعلى ، ومن الصغير إلى الكبير ، من الابن إلى الأب ، ومن الرعايا إلى الملك أو الامبراطور ، وليس ثمة طريق يهبط من أعلى إلى أسفل (اللّهم إلاّ إذا أُقيم بناء المجتمع على أساس الحقوق السياسية لا الواجبات الأخلاقية) فعلى الأبناء كذا وكذا من الواجبات تجاه الأب أو الأخ الأكبر أو الأسرة بصفة عامة . . الخ . وعلى أفراد الشعب كيت وكيت من الواجبات تجاه الدولة أو الامبراطور . . الخ وفي جميع الحالات هناك واجب « الطاعة والاذعان » ـ لأن المبدأ المُنظِّم لجميع العلاقات هو مبدأ أخلاقي . ومن هنا يذكر كتاب « شوكنج » خمسة واجبات بوصفها العلاقات الأساسية العظيمة التي لا تتغير وهي :

١ ـ الواجبات المتبادلة بين الامبراطور والشعب .

٢ ـ الواجبات المتبادلة بين الآباء والأبناء .

٣ ـ الواجبات المتبادلة بين الأخ الأكبر والأخوة الصغار .

٤ ـ الواجبات المتبادلة بين الزوج والزوجة .

٥ ـ الواجبات المتبادلة بين الصديق وصديقه(٢٢) .

ويبدو الاهتمام البالغ بالأسرة واضحاً فنحن نقرأ في كتاب « الشعر » :

« من بين الناس في العالم كافة ،

---

(٢٢) - Hegel: Philosophy of History p. 127.

« لا يعادل الأخوة أحد . .

« فالأخوة يتشاجرون بين الجدران . .

« ولكنهم يقفون متحدين ضد إهانة من الخارج .

« بينما خير الأصدقاء . .

« برغم كثرتهم ، لن يحاربوا من أجلك . . »(٢٣) . . .

ويقول كنفوشيوس في هذا المعنى : « إذا قام البيت على أساس سليم أمِن العالم وسلم » .

ولهذا فإن هيجل يعرض لواجبات الأسرة بالتفصيل لا سيما علاقة الأب بأبنائه فهي النموذج النمطي الأول الذي يتكرر في التنظيم السياسي . وهنا نجد أن الأسرة تعترف للأب بسلطة وهيمنة تفوق الحد بل تبلغ أحياناً حد التقديس فمثلاً : ـ

* لا يجوز للابن أن يبدأ بالكلام إذا دخل عليه أبوه الغرفة . وإنما ينبغي عليه أن يتنحّى ويتوارى بطريقة ما بجوار الباب . وليس له أن يترك الغرفة دون إذن من الأب .

* يتناول الأب طعامه ، عادة ، بمفرده فلا يدعو الزوجة أو الأبناء إلى المائدة إلاّ في أوقات نادرة والأمر في النهاية متروك لارادته(٢٤) .

* إذا مات الأب فعلى الابن أن يعلن الحداد لمدة ثلاث سنوات وأن يمتنع عن أكل اللحم وأن لا يشرب الخمر وتعطيل ما يقوم به من أعمال حتى ولو كانت أعمالاً للدولة .

---

(٢٣) هـ . ج . كريل ـ «الفكر الصيني من كنفوشيوس إلى ماوتسي تونج » ترجمة عبد الحليم سليم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة عام ١٩٧١ .

(٢٤) لا تزال مجموعة كبيرة من هذه العادات والواجبات موجودة حتى الآن في المجتمعات الشرقية .

* ولا يصدق ذلك على الفرد العادي من أواسط الناس فحسب بل حتى الامبراطور الذي تسلَّم الحكم حديثاً ملزم باتباع هذه التقاليد فليس في استطاعته أن يتفرّغ لمهام منصبه الجديد طوال هذه الفترة .

* لا يجوز أن يُعقد قِران في الأسرة طوال فترة الحداد .

وكانت ألقاب الشرف التي يمنحها الامبراطور لأحد الوزراء تصدر باسم الأب : « كان والدك يقدّم الأرز لِمَنْ يتضور جوعاً » ، ويجازف بحياته دفاعاً عن البلاد ويصون السلام ، ويعمل على نشر الرخاء . . . الخ[٢٥] . وكل ما هو منسوب هنا للأب هي أعمال حقيقية قام بها الابن ! وهكذا يبلغ الجدود والأسلاف مراتب الشرف بفضل أبنائهم ، وامتداداً لتمجيد الآباء والجدود والأسلاف عموماً أقامت كل عائلة في الصين « قاعة للأسلاف » يجتمع فيها كل أفراد الأسرة مرة كل عام على الأقل ، وتعلّق فيها صور الذين شغلوا مناصب رفيعة من الجدود .

ونفس هذا الاحترام ، والواجبات الدقيقة بين الأب وأبنائه ، تتميز بها كذلك علاقة الأخ الأكبر بالأخوة الأصغر فمن المفروض عليهم نفس هذا الاحترام للأخ الأكبر وإنْ كان بدرجة أقل من احترام الوالد .

ثانياً : جنة الذكور

وفي مثل هذا النظام الأبوي البطرياركي لا مكان للمرأة فالأب وأبنائه الذكور لهم وضع خاص في المجتمع الصيني ، حتى لقد أطلق عليه بعض المؤرخين اسم « جنة الذكور »[٢٦] ، فالآباء يدعون في صلواتهم أن يرزقوا أبناء ، وكان من أشد أسباب المذلّة والمهانة للأمهات ألاّ يكون لهن أبناء ذكور

---

(٢٥) - Hegel: Philos. of History p. 128.

(٢٦) قارن ما يقوله ول ديورانت في « قصة الحضارة » ص ٢٧٠ الجزء الرابع من المجلد الأول ترجمة الأستاذ محمد بدران لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة عام ١٩٦٦ .

لأن هؤلاء أقدر من البنات على العمل وأثبت منهن جَنانا في ميدان القتال . كما كان من الشرائع المتبعة في البلاد ألّا يسمح لغير الذكور بتقديم القرابين إلى الآباء والأسلاف .

أمّا البنات فهنّ عبء على الأب الذي يقوم بالتربية والصبر ثم يبعث بهن بعد ذلك متى كبرن إلى بيوت أزواجهن ليعملن فيها ، ويلدن أبناء لأسر غيرهم ، فإذا ولد للأسرة بنات أكثر من حاجتها تركتهن الأسرة في الحقول ليقضي عليهن صقيع الليل أو الحيوانات الضارية .

وترتّب على ذلك انتشار تعدد الزوجات ، بل كثيراً ما تحثُّ الزوجة الأولى زوجها على الزواج بثانية لا سيما إذا كانت عاقراً ، وتروي القصص أن زوجة الامبراطور كانت تفاخر بقولها : « لم أكفَّ قط عن إرسال الرسل إلى المدن المجاورة للبحث عن النساء الجميلات لأجعلهن خليلات لمولاي » !

وفي مثل هذا المجتمع لا يكون غـريباً أن نسمع مَنْ يندب حظ المرأة بكلمات لا تزال المرأة الشرقية في كثير جداً من مجتمعاتنا ـ إنْ لم تكن فيها جميعاً ـ ترددها حتى اليوم .

« ألا ما أتعس حظ المرأة !

« إن الأولاد يقفون متكئين على الأبواب ،

« كأنهم آلهة سقطوا من السماء !

أمّا البنت فإن أحداً لا يُسَرّ بمولدها ،

ولا تدخر الأسرة من ورائها شيئاً .

ولا يبكيها أحدٌ إذا ما اختفت من منزلها ! »[٢٧] .

(٢٧) قارن ول ديورانت « قصة الحضارة » الجزء الرابع من المجلد الأول ص ٢٧٣ وقارن أيضاً قول مانشيوس « ثلاثة أشياء لا يليق صدورها من الآباء ، وشرها كلها ألّا يكون لهم أبناء » . ص ٢٦٦ .

فالمجتمع هو مجتمع الذكور لا الإنـاث ولا يزال المجتمـع الشرقي حتى الآن يحمل هذه السمـة السيئة رغم حضـارة القرن العشـرين ! «لقد كان من الأهـداف الـرئيسيـة للصينيـين أن يكـون لهم أبنـاء « ذكـور » يشـرِّفـونهم في الجنازات ، ويحترمون ذكراهم بعد الموت ، ويزينون لهم قبورهم . . »[٢٨] ,

ثالثاً : إدارة الامبراطور

كان ما تقـدم هو « دستـور الأسرة » في الصـين ، لكنه كـذلك دستـور الدولة ، فالامبراطور يتربّع على قمة البناء السيـاسي ويمارس حقـوقه بـطريقة الأب مع أبنائـه ؛ فهو « كبـير العائلة » الـذي لا يجوز أن يعتـرض على رأيـه معتـرض : فهو أب للجميـع ، أمره مـطاع واحترامـه واجب مفـروض عـلى الكل ، وهم جميعاً متساوون في ذلك على نحو مطلق ! وينبهنا هيجـل إلى أن المسـاواة المنتشـرة هنـا ليست هي المسـاواة الحقـة : « إن النـاس في بـلادنـا متساوون أمام القانون وحده ، وفي احترام كل منهم لملكية الآخرين ، لكنهم يختلفون بعد ذلك من حيث أن لديهم الكثير من المصالح والامتيازات الجـزئية الخاصة ، التي لا بدّ أن تكون مكفولة إنْ كنا نريد أن يكون لـدينا مـا نسميه بالحرية . لكن هذه المصالح الخاصة في الامبراطورية الصينية ليس لها في ذاتها أي اعتبار ، وتعتمد الحكومة في إدارتها لشؤ ون الدولة على الامبراطور وحـده الـذي يحرك الحكـومة بـوصفها سلسلة متصـاعدة من المـوظفين أو «الماندرين Mandarin.....»[٢٩] والماندرين[٣٠] نوعان : مـدني مثقف وآخر عسكـري ، والفئـة الأولى أعلى من الثـانية : « لأن المـدنيين في الصـين لهم أفضليـة عـلى العسكـريين »[٣١] . وهم متعلمـون في مـدارس الـدولـة « ولا يـوجـد هنـاك

(٢٨) - Hegel: Philosophy of History p. 128.

(٢٩) - Hegel: Ibid; p. 130.

(٣٠) كلمـة برتغـالية كـانت تعني في الأصل الحـاكم ، ثم أطلقهـا الأوروبيـون عـلى كبـار الموظفين في الصين .

(٣١) - Hegel: Ibid; p. 131.

مؤسسات للتعليم العالي تشبه الجامعات عندنا »[٣٢] . ومن ثمّ فإن مَنْ يرغب في الحصول على مناصب عليا في الدولة عليه أن يجتاز ثلاثة امتحانات يحضر الامبراطور بنفسه آخرها . . وواضح من ذلك كله أن الامبراطور هو المركز الذي يدور حوله كل شيء ، ويعود إليه كل شيء ، وبالتالي فإن رخاء البلاد وسعادة الناس يعتمدان عليه ، ويعمل النظام التصاعدي للادارة وفق نظام روتيني مستقر ومريح يسير كما تسير ظواهر الطبيعة على نحو مطّرد لا جديد فيه . ولهذا لا بدّ أن تكون شخصية الامبراطور شخصية قوية لأنه المحرِّك والروح المنشِّط للنظام كله أمّا إذا كانت شخصيته ضعيفة فإن كل شيء يتراخى وتُصاب الحكومة كلها بالشلل ثم تنهار . ويروي هيجل قصة آخر امبراطور في الأسرة الحاكمة ابّان الثورة التي نشبت في القرن السابع عشر قبل دخول المانشو ....Mantchoo فقد كان رجلاً دمث الخلق ، وديعاً ودوداً للغاية . لكن هذه الخلال الحميدة جعلته ضعيف الشخصية ، مما أدّى إلى تراخي عنان الحكومة في يده ، وكانت النتيجة أن حلّ الاضطراب والفوضى في البلاد وانتهى الأمر باستدعاء المانشو .....Mantchoo إلى البلاد ، واضطر الامبراطور أن يقتل نفسه حتى يتجنب السقوط في أيدي أعدائه : « فجمع حوله أفراد أسرته ، وشرب نخبهم ، ثم أمر زوجته أن تنتحر ، وفي النهاية شنق نفسه بمنطقته بعد أن كتب آخر وصاياه على طيّة ثوبه : نحن الفقراء في الفضيلة ، ذوي الشخصية الحقيرة ، قد استحققنا غضب الله العلي القدير . لقد غرر بي وزرائي ، وإني لأستحي أن ألقى في الآخرة آبائي وأجدادي ، ولهذا فإني أخلع بيدي تاجي عن رأسي وأنتظر وشعري يغطي وجهي أن يقطع الثوار أشلائي . لا تؤذوا أحداً من أبناء شعبي »[٣٣] .

وفي هذه « الوصية » أمور كثيرة تلفت النظر : فالامبراطور منذ البداية يعترف أنه كان فقيراً في الفضيلة ، ولم تكن شخصيته جديرة بالاحترام

---

(٣٢) - Ibid.

(٣٣) ول ديورانت « قصة الحضارة » الجزء الرابع ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

لضعفها ولهذا خدعه الوزراء وأقرب الناس إليه وهو لهذا يخجل من لقاء الأسلاف ! وينبهنا هيجل إلى أن ذلك يعني أن السلوك الأخلاقي الذي وجد عند الرجل الصيني لم يكن ينبع من الداخل، أعني من داخل ذاته، بل كان يأتي لسبب خارجي هو الخوف : « فليس ضمير موظفي الحكومة أو شرفهم هو الذي يدفعهم إلى تأدية واجباتهم ، لكنهم يؤدون واجباتهم بسبب قرارات خارجية تدعمها عقوبات صارمة »(٣٤) . ترى كم من موظفي الحكومة في بلادنا يؤدّي واجبه بدافع داخلي ينبع عن ذاته وليس خوفاً من عقاب خارجي ؟ !

رابعاً : التشريع

فإذا ما انتقلنا من نظام الادارة إلى نظام التشريع وجدنا الفكرة ذاتها لا تزال قائمة « الأب هو المشرِّع » : -

١ - ينظر إلى المواطنين على أنهم قُصّر على نحو ما يكشف مبدأ الحكومة الأبوية البطرياركية ، فلا توجد فئات أو طبقات مستقلة كما هي الحال في التنظيمات السياسية المألوفة وإنما كل شيء يُدار ويُوجّه من أعلى .

٢ - علينا أن نلاحظ سطحية العلاقات الأسرية التي تكاد تتحول إلى عبودية ، فلكل فرد الحق في أن يبيع نفسه ، وأبناءه ، وكل صيني يشتري زوجته . والزوجة الأولى فقط هي الحرة أمّا الزوجات الأخريات والمحظيات فهنّ إماء .

٣ - العقوبات ، في الأعم الأغلب ، بدنية : « فإذا كنا في بلادنا ننظر إلى هذه العقوبات على أنها إهانة مخلّة بالكرامة ، فإنها لم تكن كذلك في الصين التي لم يتطور فيها بعد الاحساس بالكرامة ، فما أسهل أن تنسى علقة

---

(٣٤) - Hegel: Philos. of History. p. 133.

بالهراوة رغم أنها من أقسى العقوبات عند ذي الكرامة . لكن الصينيين لم يعترفوا بذاتية الكرامة ، فهم رعايا يخضعون للتأديب والتربية أكثر من خضوعهم للعقوبة . . »[٣٥] .

ولّما كانت الأخلاق الصينية لا تنبع من داخلهم أعني من شعورهم بالواجب وإحساسهم بضرورة الالتزام بالسلوك الأخلاقي ، فإن العقاب لا يكون داخلياً أيضاً ، أعني أنك لا تجد عندهم تأنيباً للضمير أو إحساساً بالذنب أو شعوراً بارتكاب الاثم ، فلا الفعل الأخلاقي داخلي ، ولا عقوبته داخلية ، وإنما الفعل الأخلاقي مفروض على الذات من الخارج من عادات المجتمع وتقاليده وخوف الفرد من العقاب ، وبالتالي فإن هذا العقاب لا بدّ أن يكون خارجياً أيضاً أعني بدنياً . يبدأ من قص الشعر ، والضرب بالعصا إلى الكي بالنار ، أو تمزيق الجسد ، أو الشنق في حالات الجرائم الكبرى. فلو أن ابناً اشتكى أباه لُظلم وقع عليه ، أو اشتكى أخ أصغر من أخ أكبر ـ كان جزاؤه مائة ضربة بالعصا ، والنفي ثلاث سنوات إنْ كان معه الحق في شكواه . أمّا إذا لم يكن معه الحق في الشكوى فإنه يشنق ، ولو أن ابناً رفع يده على والده يُحكم عليه بأنْ يمزّق جسده بكماشة محمّاة في النار[٣٦] .

غير أن هذه العقوبات البدنية لا توقع على أواسط الناس أو أفراد الشعب العاديين فحسب ، بل تطبق أيضاً على عِلية القوم وأصحاب المناصب الكبيرة والرفيعة حتى من بين الوزراء ونواب الامبراطور فهم جميعاً يُعاقبون بالطريقة نفسها ، والغريب أن علاقة الامبراطور بهم لا تتأثر بهذا العقاب البدني فلا تقلّ منزلتهم عنده ولا تُسحب منهم ثقته أو صداقته بسبب هذا التأديب الجسدي ![٣٧] .

---

(٣٥) - Hegel: The Philos. of History, p. 134.

(٣٦) - Ibid; p. 134.

(٣٧) - Ibid.

ويرد هيجل هذه الصفات كلهـا إلى انعدام الشخصية ، أو ما يسميـه بالذاتية الفردية ، فليس لدى الفـرد شعور بـذاته أو احسـاس بفرديتـه (لأن الكل مدمج في الأب الامبراطور في الأسرة أو الامبراطور الأب في الدولة)، ومن هنـا كان الاحسـاس بالحـرية مـطموسـاً تمامـاً ، وقد طُمِس معـه أيضـاً معنى المسؤولية ، ولهذا كان الفعل المتعمـد وغير المتعمـد عندهم سـواء ! وفي مثل هذه الحالـة لا يمكن أن تكون هنـاك أخلاق حقيقية ، لأن الفعل الأخـلاقي ليس هو ما يتفق مع مبادىء الأخلاق فحسب ، بل مـا ينبع من داخـل الفرد وإحساسه بالواجب كما يقول كانط ...Kant الذي جعل من « الارادة الطيبة » أو الخيِّـرة أساس الأخـلاق كلها حتى إذا لم يتمكّن المرء من تحقيقها في العـالم الخارجي . فالأخلاق في النهاية هي هذا الجانب الداخلي الذي يبقى حتى ولو زالت العـادات والتقاليـد وامتنع العقـاب الخـارجي ! إن الأخـلاق الحقيقيـة تتطلب الشعور بـالواجب ، والاحسـاس بالـذات الحرة وهـو أمر انعـدم عند الصينيين القدماء (وأخشى أن أقول عند الشرقيين عموماً والسبب بالطبع هو انعدام الحرية !) يقول هيجـل : « التفرقـة بين الحـرية والعبـودية في الصـين ليست كبيرة ، ما دام الجميـع متساويـن أمام الامبـراطور ، أعني أن الجميـع متشابهون في المهانة . وبمـا أن الكرامـة لا وجود لهـا بينهم ، وليس للشخص حقـوق فرديـة يتميز بهـا عن الأخر ، فـإن شعور الـذل والهوان هـو الشعـور السـائد »[٣٨] . ومـا أسهل أن يتحـول هـذا الشعـور إلى احسـاس بـالضعـة والانحـطاط وهكذا تـظهر الـلاأخلاقيـة الصينيـة من وراء القنـاع الأخـلاقي الزائف (وهو زائف لأن مصدره الخارج لا الداخل) فهم مشهورون بالخداع كلما استطاعوا : الصـديق يخدع صـديقه ويغشـه دون أن يستاء أحـد ، وتتم ألـوان النصب بمهارة ودهـاء حتى أنه يتحتم عـلى الأوروبيين أن يحترسـوا جـداً في تعاملهم معهم »[٣٩] . .

---

(٣٨) - Hegel: Ibid; p. 137.

(٣٩) - Ibid.

خامساً : الدين

وهنا أيضاً نجد في الجانب الديني امتداداً لانعدام الفردية المتميزة وللضعة الأخلاقية متمثلاً في ديانة فو ..Foo المنتشرة انتشاراً واسعاً في البلاد ، وهي ديانة تنظر إلى العدم على أنه الوجود الأعلى وتعتبر احتقار الفرد أعلى أنواع الكمال . والسمات العامة للمجتمع الصيني ، وللدولة في الصين ، تظل قائمة أيضاً في الجانب الديني فالامبراطور هو الرئيس الأعلى للدين(٤٠) .

والحق أن الديانة الصينية ، فيما يقول هيجل : « ليست هي بالضبط ما نطلق عليه نحن اسم الدين : فالدين عندنا هو العمق الداخلي للروح في ذاتها بأن تتصور الروح نفسها في ذاتها ، أي في أعمق أعماق جوهرها ، وينسحب الانسان في هذه المجالات ، إذنْ ، من علاقته بالدولة ويلجأ إلى عمقه الداخلي . ويكون في هذه الحالة قادراً على انتزاع نفسه من سيطرة الحكومة الدنيوية . لكن الدين في الصين لا يرتفع إلى هذه الدرجة لأن الايمان الحقيقي لا يكون ممكناً إلّا حينما يكون وجود الأفراد في ذاتهم ولذاتهم »(٤١) . أعني عندما يكون للفرد وجود مستقل قائم بذاته بعيداً عن كل سلطة قهرية خارجية . لكن الفرد في الصين ليس له مثل هذا الاستقلال حتى في الدين : فالامبراطور بوصفه تتويجاً للكل وتجسيداً للسلطة هو وحده الذي يقترب من السماء لكن الأفراد بما هم كذلك ، لا يستمتعون بهذه الميزة . فهو الذي يقدّم القرابين والشكر على وفرة المحاصيل ويتضرّع التماساً للبركة . . الخ(٤٢) . ويعتقد الصينيون أن هناك روحاً حارسة لكل مقاطعة وهذه الأرواح الحارسة تخضع هي الأخرى لأوامر الامبراطور وتطيع قوانينه . ويمكن له أن يعزلها كما يعزل البشر في حالة وقوع كوارث في المنطقة التي يشرفون عليها . وهكذا

---

(٤٠) - Ibid.

(٤١) - Hegel: Ibid; p. 138.

(٤٢) - Ibid.

يصبح الامبراطور أيضاً هو المشرِّع الخاص للسماء ، فضلاً عن أنه المشرِّع الخاص للأرض »(٤٣) .

والصينيون يؤمنون بخرافات لا حصر لها ، ويرد هيجل ذلك إلى افتقارهم إلى الاستقلال الذاتي الذي يفترض مقدماً العكس المضاد تماماً لحرية الروح ، ففي كل عمل يشرعون في القيام به مثل : بناء منزل أو مقبرة . . الخ نراهم يلتمسون مشورة العرّافين(٤٤) .

سادساً : العلم

ويظهر نقص الاستقلال الذاتي كذلك في العلم ، فالامبراطور ، كما هي الحال في جميع الأنشطة الأخرى ، يتربّع على قمة الآداب(٤٥) . وهناك مجلس لتحرير أوامره وكتابتها بأفضل أسلوب . وهناك أكاديمية للعلوم يمتحن الامبراطور بنفسه أعضاءها ، وهم يعيشون في القصر الامبراطوري . وعلى الرغم من أن ذلك يعني أن العلوم تلقى التشجيع والتقدير فإنه كان ينقصها الأساس الحر للذاتية ، والاهتمام العلمي الحقيقي الذي يجعل منها عملاً نظرياً فلا مجال هنا لمملكة الفكر الحر : بل العلم هنا ذو طبيعة تجريبية فهو يخدم منفعة الدولة : حاجاتها ومتطلباتها . وهكذا لم يكن لدى الصينيين اهتمام حقيقي بالعلم ! وينتهي هيجل من ذلك إلى أن يقول : « كان الصينيون متخلفون جداً في الرياضيات والفيزياء ، وعلم الفلك . . صحيح أنهم عرفوا أشياء كثيرة ، في وقت لم يكن فيه الأوروبيون قد اكتشفوا فيه هذه الأشياء ، لكنهم لم يفهموا كيف يطبقون هذه المعرفة ، فاكتشفوا مثلاً ، حجر

---

(٤٣) - Ibid; p. 193.

(٤٤) - Ibid; p. 140.

(٤٥) خاصية ما زالت قائمة للحاكم الشرقي : فهو لا بدّ أن يكون عالماً بكل شيء : فهو الحكيم والعالم والمنظّر والفيلسوف . . الخ وكل ما يتم احرازه من رقي وتقدم فبارشاده وبتوجيه منه . .

المغناطيس ، وفن الطباعة ، لكنهم لم يتقدموا خطوة واحدة في سبيل استغلال هذه المكتشفات . . »[٤٦] .

تلك هي شخصية الشعب الصيني كما يصوِّرها هيجل من جوانبها المختلفة والسمة الأساسية التي تميزها هي بُعدها عن كل ما يتعلق بالروح - أي عن الأخلاق الحرة النابعة من الداخل ، من أعماق الذات ، كما أنها كانت بعيدة عن الوجدان ، وعن الجانب الباطني في الدين والعلم والفن . وإذا كان الامبراطور يتحدث إلى الشعب « برقة وعطف أبوي» : « فإن الشعب ليس لديه عن نفسه إلاَّ أسوأ المشاعر فهو لم يُخلق إلاّ ليجرّ عربة الامبراطور وهذا هو قدره المحتوم ! وعاداتهم وتقاليدهم وسلوكهم اليومي يدل على مبلغ ضآلة الاحترام الذي يكنونه لأنفسهم كأفراد وبشر . . »[٤٧] صورة بشعة للرجل الشرقي كما يمثلها الصينيون القدماء .

القسم الثاني : الهند

الصين هي الشكل الأول الذي توجد فيه الروح في رحلتها الطويلة عبر التاريخ لكي تتحرر من الطبيعة ، وكان وجودها خارجياً فالمبدأ الذي يحكمها هو المبدأ الأبوي البطرياركي . إذْ ينظر إلى الشعب على أنهم مجموعة من الأبناء القُصّر : « الذين لم يبلغوا بعد سن الرشد ، ومن هنا يقوم القانون المنظم والاشراف الأخلاقي للامبراطور عندهم مقام قرارهم الأخلاقي . وهذا القرار خارجي كما سبق أن ذكرنا ، ولهذا فإن الخطوة التالية طبقاً للقوانين العامة لسير الجدل هي إنتقال الروح من الخارج إلى الداخل ، من الموضوع إلى الذات وهذا ما يحدث في الهند لكنا لن نجد هنا الذات الفردية الحقيقية ، وإنما فكرة عامة عن « الذاتية » ، فكرة هلامية عن الوجود كله بوصفه ذاتاً ، فهنا اتحاد للذاتية والوجود ، أو مثالية ..Ideality الوجود

---

(٤٦) - Hegel: Ibid; p. 142.

(٤٧) - Ibid; 143 - 144.

الفعلي ، وهي ليست مثالية حقيقية بل هي مثالية الخيال يغير تصورات أو مفاهيم محددة متميزة ، صحيح أنها تبدأ من الواقع لكنها تحوّل كل شيء إلى خيال محض فنحن هنا أمام أحلام ، لكنها ليست أحلام ذات فردية بل أحلام الروح المطلق .

ويشبه هيجل الروح الحالم في الهند بالبشرة الصافية للمرأة لا سيما عقب الولادة أو أثناء استغراقها في النوم : « مثل هذا الجمال نجده في أروع أشكاله في العالم الهندي : وهو جمال الضعف أو الوهن الذي يذوب فيه كل اعوجاج وجمود ومقاومة بحيث لا يكون أمامنا سوى نفس حساسة ، ولكنها نفس يمكن أن ندرك فيها موت الروح الحر الذي يعتمد على ذاته . . »(٤٨) .

أولاً : الروح الحالمة وخصائصها

المبدأ العام ، إذنْ ، للطبيعة الهندية هو الروح الحالمة فما هي خصائص تلك الروح ؟

١ - يعجز الفرد في حالة الحلم هذه أن يعي نفسه ، أو أن يفرِّق بينها وبين الموجودات الأخرى ، لكنه عندما يستيقظ يصبح وجوده لذاته وتصبح الموضوعات الأخرى تموضعاً خارجياً مقابلاً له(٤٩) . .

٢ - وعلى ذلك فإن الانفصال بين الذات والطبيعة أي الموجودات الأخرى لا وجود له في حالة الحلم ، إذْ تكفُّ الروح عن أن تكون وجوداً لذات تعارض الوجود الخارجي .

٣ - ومن هنا كانت النظرة الهندية هي نظرة وحدة الوجود العام لكنها

---

(٤٨) - Hegel; Ibid; p. 146.

(٤٩) - Ibid; p. 146.

وحدة وجود لقوة الخيال لا للفكر ، فهناك جوهر واحد يتغلغل في جميع الأشياء[٥٠] .

٤ ـ هذه الأحلام ليست مجرد حكايات خرافية بل إن الروح تضيع فيها ، ويترتّب على هذا الضياع أن تصبح الأشياء المتناهية إلهية : الشمس والقمر ، والنجوم والأنهار ، والحيوانات ، والزهور ـ كلها آلهة . وحين يتحول المتناهي إلى إلهٍ يفقد دوامه وثباته وجوهريته فيستحيل تكوين فكرة عقلية عنه ؛ وعلى العكس يصبح الالهي ملوثاً ومدنساً ومشوهاً ولغواً باطلاً[٥١] .

٥ ـ هذا التأليه العام لكل ما هو موجود لا يجعل لتصور الإله في تجسيده أية قيمة ، فالببغاء ، والقردة ، والبقرة تجسيدات لله لكنها لن ترتفع فوق طبيعتها ، وهكذا تخلو وجهة النظر الهندية من المعقولية ، فلا علّة ولا معلول كما يفقد الانسان الوجود الحر والشخصية[٥٢] .

وعلى الرغم من أن هناك تشابهاً بين المعبودات هنا وموضوعات العبادة في مصر القديمة فإن هيجل ينبهنا إلى أن هناك اختلافاً كبيراً بينهما، فالموجودات الطبيعية في الهند (بما في ذلك الحيوانات) كانت تُعبد لذاتها فهي تجسيدات لله ، أمّا في مصر فقد كانت رموزاً : فالشمس رمز للعطاء والرخاء ، والكبش للوداعة ، والأسد للشجاعة والصقر للرؤ ية المستقبلية . . الخ . ومن هنا كانت العبادة الفرعونية تمثل خطوة تقدمية كبيرة لأنها تمثل محاولة خروج الروح من الطبيعة في إطار بيولوجي وسوف نعود إلى هذا الموضوع فيما بعد .

حالة الحلم التي تعيش فيها الهند جعلتها تنغلق على ذاتها فلم تخرج عن حدودها وكان انتشارها ، بصفة عامة ، أبكماً بغير تأثير ، أعني أنه لا يمثل

---

(٥٠) - Ibid; p. 147.

(٥١) - Ibid.

(٥٢) - Ibid; p. 148.

أي فعل سياسي ، فالشعب الهندي لم يقم بأية فتوحات خارجية ، لكنه هو نفسه كان ميداناً للغزو الخارجي باستمرار ، إذْ كانت الهند أرضاً مرغوبة مليئة بالكنوز : دخلها الاسكندر الأكبر في العالم القديم ، كما استطاع الأوروبيون لا سيما الانجليز في العصر الحديث أن يغزوها : « لأن القدر المحتوم للامبراطوريات الآسيوية أن تخضع للأوروبية وسوف تضطر الصين ، في يوم من الأيام ، أن تستسلم لهذا المصير . . »[٥٣] .

ثانياً : الحياة السياسية

كانت الحياة في الصين تُعبِّر عن مساواة مطلقة بين الأفراد من حيث أنهم جميعاً مندمجون في شخصية الامبراطور ، فهاهنا وحدة جوهرية . أمّا في الهند فقد سرنا خطوة إلى الأمام : من الوحدة إلى الاختلاف ، أو من الدمج إلى الانفصال ، وهذا هو التقدم الجوهري الذي أحرزته الهند : أن يتفرع الأعضاء المستقلون عن وحدة الاستبداد ، غير أن هذا الانفصال (أو الاختلاف أو التميز) الذي تتضمنه الحياة السياسية في الهند يرتدّ إلى الطبيعة وليس إلى الروح ، فبدلاً من اثارة نشاط النفس بوصفها مركزاً لوحدة الأعضاء ، وبدلاً من أن يتم التمخض عن النفس بحرية ، كما هي الحال في الحياة العضوية ، فإن التميزات تتحجر وتصبح صلبة . والتميزات التي نتحدث عنها هنا هي «الطبقات المغلقة .....Castes » الشهيرة في الهند : فالأعضاء المستقلون هنا ليسوا أفراداً أو شخصيات ذاتية ، كما قد يظن القارىء للوهلة الأولى ، وإنما هي تميزات طبقية مغلقة مصدرها الطبيعة أساساً[٥٤] ـ ويقول هيجل إنه في كل دولة عقلانية توجد تمييزات ويقوم الأفراد من ذاتهم بوضعها . لكن الحرية ، والذات الأخلاقية الباطنية لا وجود لها في الهند . وهكذا ظلت التمييزات الطبقية في الهند مثل : الوحدة الصارمة

---

(٥٣) - Hegel: Ibid; p. 149.

(٥٤) - Ibid; p. 150.

في الصين على نفس المرتبة الأصلية من الجوهرية أعني أنها ليست نتيجة للذاتية الحرة للأفراد .

وتنقسم الطبقات المغلقة في الهند وفقاً للأسطورة التي تروي نشأتها من براهما على النحو التالي : ـ

١ ـ تمثل الطبقة الأولى العنصر الالهي الذي يظهر بواسطتها إلى الجماعة وهي طبقة البراهمة ، وقد خرجت من فم براهما .

٢ ـ الطبقة الثانية تمثل عنصر القوة والبسالة وهي طبقة المحاربين والحكام وهي طبقة الكشاترية Cshatriya ، وقد خرجت من ذراعيه .

٣ ـ الطبقة التي تُعنى بمسائل الحياة واشباع الضرورات : الزراعة والحرف والتجارة وهي طبقة الفيزيا ....Vaisya وقد انحدرت من حقويه .

٤ ـ الطبقة الرابعة هي عنصر الخدمة أو طبقة الخدم وهم مجرد أداة لراحة الآخرين فمهمتها العمل من أجل الآخرين وهي طبقة الشودرا ......Sudra وقد انحدرت من قدميه(٥٥) .

وقد افترض بعض المؤرخين أن طبقة البراهمة تشكل في الأصل شعباً من الكهنة ، ويرى هيجل أن هذه القصة مختلقة وأن مصدرها هم « البراهمة » أنفسهم إذ أن القول بوجود شعب من الكهنة خرافة كبرى لأننا نعلم أولياً أن التفرقة بين الطبقات لا توجد إلاّ داخل شعب ما ، فلا بدّ أن توجد في كل أمة أعمال الحياة المختلفة ثم يبدأ التقسيم ، وكل طبقة تفترض الطبقات الأخرى بالضرورة ، فلا وجود للكهنة بلا زراع أو جنود لأن الطبقات تتفرع من داخل الأمة نفسها .

وإذا قلنا أنه من المفروض في الطبقة أن يختار الفرد عمله ومهنته وبالتالي الطائفة التي ينتمي إليها ، فإن ذلك لا تجده في الشرق لأنه لا يعترف

---

(٥٥) - Hegel: Ibid; p. 151.

بالذاتية الداخلية كأمر مستقل ، فالاعتراف بالتميزات هنا لا يعني ظهور الذاتية ذلك لأن الفرد لا يختارها لنفسه وإنما يتلقاها من الطبيعة .

ويفرِّق هيجل بين الطبقات الموجودة في الهند وبين الطبقات التي شهدها النظام الاقطاعي في العصور الوسطى فالأفراد في هذا النظام الأخير يرتبطون بطبقة معينة ، لكن كانت هناك فوق الجميع الطبقة الروحية فهي أعلى من كل شيء ولكل فرد الحرية في الانتقال إليها . وهي طبقة رجال الدين من قُسس ورهبان حيث الفرصة قائمة أمام كل فرد للانتقال إلى هذه الطبقة . فالفارق هو أن الدين في العصور الوسطى يتخذ موقفاً واحداً من كل الناس وعلى الرغم من أن ابن الصانع اليدوي ينشأ مثل أبيه ، وكذلك الفلاح والاختيار الحر تقيده بعض الظروف القاهرة فإن العنصر الديني يقف على علاقة واحدة مع الجميع ويُضفي الدين على كل الناس قيمة مطلقة(٥٦)

وهناك فارق آخر بين طبقات المجتمع عندنا وعندهم ، فيما يقول هيجل ، وهو الكرامة الأخلاقية الموجودة في كل طبقة عندما نتمثل فيما ينبغي أن يمتلكه الانسان في داخله وبنفسه هو ، ومن هذه الزاوية كانت الطبقات العليا تتساوى مع الطبقات الدنيا ، فالمساواة أمام القانون والحقوق الشخصية والملكية مكفولة لكل طبقة . أمّا في الهند فلا وجود للأخلاق أو العدالة أو التدين وفضلاً عن ذلك فلا وجود لجوانب انسانية لا محبة ولا عواطف ولا عدالة بين هذه الطوائف بعضها وبعض فالمحبة الانسانية ، مثلاً ، من الطائفة الأعلى تجاه الطائفة الأدنى ممنوعة تماماً . ومن ناحية أخرى نجد أن العقوبات تتناسب زيادتها مع ازدياد دونية الطائفة . . الخ . ولكل طائفة في الهند حقوقها وواجباتها الخاصة لكن ليس ثمة حقوق وواجبات للانسان بصفة عامة ، فإذا كانت الشجاعة عندنا فضيلة فإنها عند الهنود فضيلة طبقة الكشاترية فقط ، فلا خصائص للانسان بصفة عامة والواجب البشري

---

(٥٦) - Ibid; p. 152.

والشعور البشري لا وجود له عندهم . الأخلاق والكرامة البشرية مجهولة عندهم ـ وتلعب الأهواء الشريرة دورها كاملاً وتهيم الروح في عالم الأحلام وأعلى حالة هي حالة الفناء أو العدم .

ويضرب هيجل الكثير من الأمثلة على انعدام الوجود الأخلاقي الذي يتضمن احترام الحياة البشرية عند الهنود، منها أن الزوجة تحرق نفسها عقب وفاة زوجها . ولو أن امرأة خرجت عن هذه العادة المتوارثة لنبذها المجتمع وطردها لتعيش في عزلة . ويروي أحد الانجليز أنه شاهد امرأة تحرق نفسها لأنها فقدت طفلها . . وذلك يدل في رأي هيجل على أنه لا توجد الأخلاق التي تتضمن احترام الحياة البشرية في الهند(٥٧) . .

وإذا كانت القيود والفواصل الصلبة بين الطوائف قد وضعتها الطبيعة ، فقد جاء الدين ليتوجها ويُضفي عليها شيئاً من القداسة ، فالبراهمة هم الإله في حاضر جسدي والسمو الذي لا يبلغه الآخرون يكتسبه البرهمي بحق المولد ، فعلى الطوائف الأخرى أن تحترمه وتبجله لكن ذلك لا يُعبِّر عن أخلاق حقيقية وإنما يدل على العكس، على انعدام الأخلاق الباطنية .

إن حكمنا على أخلاقيات الهنود قد يتأثر بسهولة عن طريق أوصاف اللطف ، والرقة والخيال الجميل المفعم بالاحساس لكن حتى الأمم المنهارة يوجد في شخصيتها ما نقول عنه أنه رقيق ونبيل : « غير أن الاستقامة والأخلاق ، وحرية الروح ، والوعي بالحق الفردي ، هي أمور مختلفة عن ذلك أتم الاختلاف . إن الخداع والمكر هما الخاصيتان الأساسيتان للرجل الهندي ، فالغش والسرقة والسلب والاغتيال هي بالنسبة له أمور عادية مألوفة ، وهو يحني رأسه في مذلة ومهانة أمام المنتصر وأمام السيد ، وهو متوحش قاس تماماً إزاء المغلوب ومَنْ هو أدنى منه . . » والهنود إذا احتكّو بأي

---

(٥٧) - Hegel: Ibid; p. 163.

جانب من جوانب الحياة العملية « طمّاعون مخادعون ، شهوانيون »(٥٨) . ويقول أحد الانجليز « إنني لم أجد بينهم رجلاً شريفاً فالأطفال عندهم لا يحترمون آباءهم ، والأبناء يسيؤون معاملة أمهاتهم »(٥٩) . أمّا بالنسبة للدولة فيرى هيجل أنه « لا وجود للدولة في الهند » فهنا شعب فحسب ، ومن ناحية أخرى فإذا كان الاستبداد في الصين أخلاقياً فهنا استبداد بلا مبدأ ولا قاعدة من أخلاق أو دين « يوجد في الهند أكثر ألوان الاستبداد تعسفاً وفساداً وانحطاطاً . . وآسيا بصفة عامة هي مسرح الاستبداد بمعناه السيء ففي الهند نجد أن الاستبداد شيء عادي لأنه لا يوجد أي إحساس ذاتي بالاستقلال الشخصي يمكن أن نقارن بينه وبين الاستبداد »(٦٠) . وفي النهاية يعقد هيجل مقارنة بين الهند والصين فيرى أن الصين كانت تتميز بفهم واقعي غير خيالي وحياتها محددة ، ثابتة في حين أن الهند لا يوجد فيها شيء حقيقي أو محدد أو ثابت بل إن قوة الخيال تحوِّل كل شيء إلى الضد . ومن ناحية أخرى كانت الأخلاق هي التي تشكل مضمون القوانين في الصين ، وتجسدها الرعاية الأبوية للامبراطور في حين أن الأمر على العكس من ذلك بين الهنود فبدلاً من هذه الوحدة نجد عندهم الاختلاف أو التنوع فكل شيء مقسم : الدين والحرية والحرف والمهن . . حتى أتفه الأعمال مقسَّمة إلى أجزاء منفصلة انفصالاً حاداً . ومن ناحية ثالثة كان الصينيون لا يقدسون سوى السيد الأعلى ثم لديهم خرافات فردية بالنسبة لما هو مُتعيِّن ، أمّا بين الهنود فحياتهم كلها خرافة لأن كل شيء عندهم أحلام وعبودية لهذه الأحلام ، ولا أدلّ على ذلك من حالة الفناء التي ينشدون الوصول إليها ، إن وجودهم أشبه بوجود شخص ينساق عن طريق الأفيون إلى خلق عالم من الأحلام والنعيم الهذياني(٦١) .

---

(٥٨) - Hegel: Ibid; p. 170.

(٥٩) - Ibid.

(٦٠) - Ibid; p. 171.

(٦١) - Hegel: Ibid; p. 173 - 4.

القسم الثالث : الامبراطورية الفارسية

يعتقد هيجل أنه يمكن تقسيم آسيا قسمين كبيرين : الأول هو آسيا البعيدة والثاني هو آسيا القريبة . والقرب والبعد هنا ، بالطبع ، من أوروبا ، فآسيا البعيدة عن أوروبا تضم الصين والهند اللتان درسناهما الآن تواً . وهما ينتميان إلى الجنس الآسيوي الأصيل وهو الجنس المغولي ، أمّا شعوب آسيا القريبة فهي تنتمي إلى الجنس القوقازي أعني إلى العرق الأوروبي ، وهي لهذا السبب أرقى ، وهي خطوة إلى الأمام في مسار التاريخ : « فالرجل الأوروبي الذي ينتقل من فارس إلى الهند يلاحظ تبايناً مذهلاً ، في حين يجد أنه في فارس لا يزال في بيته إلى حد ما ، وأنه يلتقي بأمزجة أوروبية وفضائل وعواطف انسانية »(٦٢) .

وتمتد الامبراطورية الفارسية لتشمل حشداً هائلاً من الأمم لكنها تترك لكل أمة طابعها الخاص ، بل إن بعض هذه الأمم يحكمها ملوك من أبناء جلدتها ، ولكل منها لغتها وجيشها ، وطريقتها في الحياة . وهذا كله يتم في هدوء تحت النور العام(٦٣) . وينظر هيجل إلى فارس القديمة نظرة واسعة بحيث تضم على حد تعبيره العناصر الجغرافية الثلاثة :

أولاً : الأرض المرتفعة ، وهي فارس وميديا .

ثانياً : سكان الساحل : السوريون والفينيقيون .

ثالثاً : سهول نهري دجلة والفرات وسهول وادي النيل .

ومع الامبراطورية الفارسية ندخل التاريخ ، لأول مرة ، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ولهذا السبب نجد أن فارس قامت بدورها في التاريخ ثم زالت أمّا الهند والصين فقد بقيتا ساكنتين ثابتتين على حالها حتى الآن : «وعلينا أن نستبعد عن ذهننا الرأي المبتسر الذي يقول إن صمود الدوام أمام الزوال يُعدُّ

---

(٦٢) - Hegel: Ibid; p. 180.

(٦٣) - Ibid; p. 181.

شيئاً رائعاً[٦٤] : فالجبال الراسخة التي لا تفنى ليست أسمى من الزهرة التي تذوي بسرعة عندما تتبخر حياتها في أريج الزهور »[٦٥] .

ومع فارس ، أو على وجه الدقة ، مع شعب الزند ...Zend أو الشعب الزرادشتي القديم يظهر لأول مرة ذلك النور الذي يُشرق لذاته ويضيء ما حوله ، لأن نور زرادشت ينتمي إلى عالم الوعي ، إلى الروح كعلاقة بشيء متميز عن ذاتها ، فالضوء يبرز فقط ما هي عليه الأجسام لذاتها ـ وهي وحدة لا تسود الأفراد إلّا لكي تستثيرهم حتى يصيروا أقوياء لأنفسهم ، وليطوّروا جزئيتهم أو فرديتهم ويؤكدوها . وليس في النور تميزات : فالشمس تشرق على الصالحين والظالمين ، على المرتفع والمنخفض ، وتغمر الجميع بنفس النعم وبنفس الازدهار ، ولا ينشط النور ويحيا إلّا إذا سقط على شيء متميز عن ذاته فيؤثر فيه ويطوره . وهو يقف من الظلمة موقف النقيض . وليس النور الفزيقي فقط وإنما هو في الوقت نفسه نقاء الروح أي هو الخير ، وبالتالي تُلغى الصفة المميزة وهي الوجود المرتبط بطبيعة محدودة . ومن ثمّ فإن النور بالمعنى الفزيقي والروحي يوحي بالارتفاع وبالتحرر مما هو طبيعي . وللانسان علاقة بالنور أي بالخير المجرد بوصفه شيئاً موضوعياً يقبله بإرادته ويحترمه ويعمل به . وإذا نظرنا إلى المراحل التي اجتزناها حتى وصلنا إلى هذه النقطة لوجدنا في الصين شمول الكل الأخلاقي لكن مع استبعاد للذاتية ـ وهذا الكل الشامل ينقسم إلى أقسام لكن بدون استقلال لأجزائه المختلفة : فلا نجد إلّا تنظيماً خارجياً لهذه الوحدة . أمّا في الهند فعلى العكس يتجلّى الانفصال ، وإنْ كان هذا الفصل ذاته ليس روحياً ، والتمييز ذاته لا يمكن التغلب عليه فالروح تبقى مرتبطة في تحديدات الطبيعي وهي من ثم قلب لذاتها . أمّا طهارة النور ونقاؤه التي نجدها عند الفرس فهي تعلو انفصال

---

(٦٤) كان ذلك هو رأي فولتير ..Voltaire « لقد دامت هذه الامبراطوريات أربعة آلاف عام دون أن يطرأ عليها تغيير يذكر في القوانين أو العادات أو اللغة » . ول ديورانت قصة الحضارة جـ ٤ ص ٩ .

(٦٥) - Hegel: Philos. of History p. 231.

الطوائف فالنور هو ذلك الخير المجرد الذي يستطيع الكل على قدم المساواة الاقتراب منه والذي يمكن أن يصل فيه الكل إلى مرتبة القداسة . ومن ثمَّ فإن الوحدة التي نصل إليها الآن لأول مرة تصبح مبدأ وليست رابطة خارجية لنظام بغير روح ، وبما أن كل انسان يشارك بنصيب في هذا المبدأ فإنه يحقق للمرء قيمة لذاته .

النقطة الرئيسية التي يبدأ منها هيجل في الامبراطورية الفارسية هي الديانة الزرادشتية . ففي مقابل التبلد البائس للروح في الهند نجد هنا « نفحة من نفحات الروح » على حد تعبيره فهنا تنبثق الروح من تلك الوحدة الجوهرية للطبيعة ، غير أن هذه الماهية الكلية الأبدية لا تضمن في البداية أية تحديدات . صحيح أنها لم تصبح بعد الوحدة الحرة للفكرة ولم تُعبد بعد كروح ، لكنها تتخذ شكل « النور » غير أن النور ليس هو اللاما أو براهما كما أنه ليس جبلاً ولا حيواناً ولا هو هذا الموجود الجزئي أو ذاك وإنما هو الكلية الحسية ذاتها هو هذا التبدي البسيط ومن ثم فإن الديانة الفارسية ليست عبادة أوثان فهي لا تعبد موضوعات طبيعية فردية وإنما تعبد الكلي ذاته ، وفي الوقت نفسه فإن النور له مغزى روحي ، إنه صورة الخير والحق وهي جوهر المعرفة والارادة كما أنه أيضاً جوهر الأشياء الطبيعية كلها . إن النور يضع الانسان في مركز يكون فيه قادراً على ممارسة الاختيار ، وهو لا يستطيع أن يمارس الاختيار إلّا إذا خرج من حالة الاستغراق . ولكن النور يتضمن مباشرة ضده وهو الظلام مثلما أن الشر هو نقيض الخير ، ويمثل « أهورامزدا » عند الفرس مملكة النور أو الخير ، فالنور هو جسده ومن هنا جاءت عبادة النار عندهم لأنه حاضر في كل ضوء ، أمّا أهرمان فهو إله مملكة الظلام أو الشر والظلمة هي جسده وإنْ كانت النار تطرده دائماً من المعابد . وإذا كانت هذه الثنائية تُعد عيباً أو نقصاً فإن هيجل يعتقد على العكس ، أنها تنتمي إلى صميم الروح : « فطبيعة الروح نفسها تتطلّب التناقض ومن ثمّ فإن مبدأ الثنائية ينتمي إلى فكرة الروح » . والغاية الرئيسية لوجود كل إنسان أن يحافظ على نفسه نقياً وأن ينشر هذا النقاء من حوله وعلى الانسان أن يطهِّر نفسه عن

طريق تقدير الفكر ، والكلمة ، والعمل فما هي هذه الفكرة الطاهرة ؟ هي التي تصعد إلى بداية الأشياء ، وما هي الكلمة الطاهرة ؟ هي كلمة أهورامزدا كما أن العمل الطاهر هو العبادة الخاشعة لملائكة السماء . وهذا يعني أن على الانسان أن يكون فاضلاً كما أنه يفترض مقدماً حريته الذاتية وإرادته الخاصة . وتشير الطقوس في ديانة أهورامزدا إلى أن الناس ينبغي عليهم أن يسلكوا في حياتهم طبقاً لمملكة النور . ومن هنا كانت الوصية العامة الكبرى هي الطهر الجسدي والروحي الذي يعتمد على كثير من الصلوات التي توجه إلى أهورامزدا . ولم يكن لدى الفرس ، طبقاً لما يقوله هيرودت ، أوثان أو أصنام بل إنهم كانوا ، في الواقع ، يسخرون من التشبيهات البشرية التي تنسب للآلهة . لكنهم تسامحوا مع أي دين .

ولقد كان للساحل الفينيقي أهمية خاصة للامبراطورية الفارسية فالأسطول الفينيقي كان يصاحب الحملات الفارسية الكبرى كما كان مركزاً تجارياً وصناعياً هاماً وهكذا ظهر النشاط في الصناعة وشجاعة التروي التي تقتحم أخطار البحر ، ومن المعروف أن التجار يعتمدون على أنفسهم كما أن الانسان نفسه ، في حالة الصناعة ، يكون غاية ، ويعامل الطبيعة على أنها شيء يخضع له ويطبع عليها خاتم نشاطه . وهنا ترى الشعور يتحرر من الخوف من الطبيعة ومن ربقة عبوديتها .

أمّا تصوراتهم الدينية فيكتشف فيها هيجل عاملين الأول : أنها كانت في بدايتها وثنية حسية وقد وصفها لنا أنبياء اليهود بفظاعة (وإنْ كانت هذه الفظاعة ترجع إلى كراهية اليهود للشعوب المجاورة) ـ وكذلك عبادة القوة الكلية للطبيعة مثل عشتاروت ....Astarte الهة الغضب والجنس والحب عند الفينيقيين وسبيل ......Cybele عند شعوب آسيا الصغرى . وهنا نجد تعدد الآلهة الذي يتضمن تدمير الروح لوعيها وللجانب الروحي بصفة عامة من حيث أنها تسعى لتوحيد نفسها مع الطبيعة .

والعامل الثاني : هو عبادة أدونيس .....Adonis[٦٦] ، التي كانت قائمة في مدن الساحل ، ويتوقف هيجل طويلاً عند هذه الأسطورة التي كان لها دور بارز في الديانة القديمة سواء في الشرق أو عند اليونان ، ولهذا فقد اتخذت صوراً متعددةً وهي في مضمونها الاجمالي تصور وفاة شاب في مقتبل عمره وعودته مرة أخرى للحياة ، ويرمز إلى وفاته وعودته بدورة الحياة . والأسطورة لا توجد في مدن الساحل فقط كما يقول هيجل ولكنها منتشرة في العالم القديم فهي في الديانة البابلية القديمة باسم تموز ......Tammuz وهو إله شاب أحبته عشتاروت وهو يرعى غنمه تحت « اريد » الشجرة العظيمة التي تغطي الأرض كلها بظلها ـ واختارته زوجاً لها في شبابها ولكن خنزيراً برياً يطعن تموز طعنة قوية فيهوي ، كما يهوي جميع الموتى ، إلى الجحيم المظلم تحت الأرض وكانت تحكمه ارشكجال أخت عشتاروت التي كانت تغار منها وتحسدها وهبطت عشتاروت (أو اشتار) إلى الأرض لتغسل جروح حبيبها في مياه إحدى العيون الشافية ، لكن اختها تسجنها هناك . واضطربت الأرض فلم يعد ينبت القمح وذبلت الخضرة ولم تشعر الحيوانات بحرارتها ، وارتاعت الآلهة لذلك كله فأمرت ارشكجال أن تطلق « أشتار » فتعود مع حبيبها إلى ظهر الأرض فينمو النبات ويعود كل حيوان إلى الاكثار من نسله ، والقصة ترمز في صورة جميلة ممتعة إلى موت التربة وعودتها إلى الحياة كل عام وإلى ما للحب من قدرة قاهرة .

وانتقلت الأسطورة إلى الميثولوجيا اليونانية فأصبح تموز « أدونيس » ...Adonis شاب جميل تحبه أفروديت التي تخاف عليه فتضعه في صندوق وتسلمه لرعاية برسفونا ....Persephon ملكة وإلهة العالم السفلي التي تحبه بدورها وترفض إعادته إليها ، وتتقدم أفروديت بشكوى إلى زيوس ...Zeus كبير الآلهة الذي يحكم بأن يقضي أدونيس ثلث السنة مع برسفونا ، والثلث الآخر مع أفروديت ، والثلث الأخير يُترك لتصرفه هو .

---

(٦٦) - Hegel: Philos. of History p. 202.

والأسطورة أيضاً قريبة الشبه بعبادة أوزريس وايزيس وقدرة الحب على إعادة أوزريس إلى الحياة . . الخ ويلفت هيجل الانتباه هنا إلى عنصر هام في عبادة « أدونيس » وهو عنصر الألم فقد كان يُحتفل بموته في احتفال جنائزي كبير تنخرط فيه النساء في العويل والبكاء ، ويفرض الرجال على أنفسهم أقسى أنواع الآلام : فقد كانت نغمات الناي ودق الطبول تمتزج بعويل النساء ، وكان الكهنة الخصيان يرقصون رقصاً عاصفاً ، ويضربون أجسامهم بالسكاكين . وفي آخر الأمر كان الحماس يغلب على الكثيرين من الرجال الذين لم يأتوا إلى الحفل ليشاهدوه فيخلعون ثيابهم ويخصون أنفسهم ليهبوا أنفسهم طوال حياتهم لخدمة الإله . فإذا جنّ الليل جاء الكهنة إلى المكان بنور خفي وفتحوا قبر الإله الشاب ، ونادوا نداء الظافرين أن الإله قد قام بين الأموات(٦٧) .

وهكذا يصبح الألم البشري عنصراً للعبادة والتقديس، ففي الألم يشعر الانسان بذاتيته ، وتكتسب الحياة من جديد قيمتها ، وعندما يُحتفل بالألم العام فإن الألم يصبح مباطناً للألوهية ، فحتى الإله يموت . لقد كانت الديانة الزرادشتية في فارس صراعاً سجالاً بين إله النور والخير ، وإله الظلام والشر ، أمّا هنا فهو إله واحد يحتوي في ذاته على عامل السلب : « والعنصر السلبي نفسه هو جانب من جوانب الإله ، وهو الشيء الطبيعي ، وهو الموت الذي تشتمل طقوسه على الألم ففي الاحتفالات بموت أدونيس وقيامته ما يجعل العيني يصل إلى الوعي . . أمّا عبادة الأسلاف في الصين فلم يكن الموت يعني إلاّ أن الآباء يدفعون فحسب دين الطبيعة . أمّا تصور « أدونيس » فهو يعطينا تصوراً أعمق ، إنه في الله يتجلّى السلب والتناقض ، والعبادة التي تؤدّى تتضمن كلا العنصرين : الألم الذي يحس ، بسبب الإله المفقود ، والفرح الذي يحدثه العثور عليه من جديد .

* * *

(٦٧) عرض ديورانت لهذه الأسطورة البابلية بالتفصيل انظرْ : قصة الحضارة الجزء الثاني عن « الشرق الأدنى » ص ٢١٥ ـ ٢٢٢ ترجمة الأستاذ محمد بدران لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦١ .

ومع اليهودية يتقدم الـدين خطوة أخـرى ففكرة النـور تصبح « يهـوه » Jehovah.. أو الـواحد الخـالص فالـروح تهبط إلى أعمـاق وجـودهـا الخـاص وتتعرّف على المبدأ الأساسي المجرد بوصفه المبدأ الـروحي وهذا مـا يشكل في رأي هيجـل الانفصال بـين الشرق والغـرب ، فالـطبيعة التي كـانت تمثـل في الشرق الأساس هبـطت إلى مرتبـة الكائن المخلوق : فـالله هو سيـد الطبيعـة وخالقها . وهكذا تصبح الروح الوجود الأول وهي الأساس : فالله هو خالق جميع البشر وكـل ظواهـر الطبيعـة التي هي مُسخَّرة في خـدمته وإنْ كـان هذا الـدين يتضمن عنصر المنـع فهذا الشعب وحـده هـو الـذي تعـرّف عـلى الله الواحد واعترف به الله ومن هنا كان الإله للشعب اليهودي فحسب[٦٨] . .

وهكـذا تتحرر الـروح مما هـو مادي ومحسـوس ويصبح الفكـر حراً من أجـل ذاته ويمكن أن تـظهـر الآن الأخـلاق الحقـة لأن الله يمجَّـد عن طـريق الاستقـامة والعمـل الصالـح ، وينظر إلى النـاس على أنهم أفـراد لا بوصفهم تجسيدات لله . وإلى الشمس على أنها شمس ، والجبال على أنها جبال لا على أنها تملك روحاً أو إرادة .

لكن هيجل يرى أنـه على الـرغم من أن تصور الإلـه كان روحيـاً عند اليهودية من الناحية الموضوعيـة ، فإن الجـانب الذاتي لعبـادة هذا الإلـه يظل مقيداً وغير روحي في طابعه .

« مصر »

مع مصر نصل إلى المركَّب النهائي في العالم الشـرقي فهي الجسر الـذي عَبَرت عليه الروح من الشرق إلى الغرب وهي تسترعي الانتباه بصفة خـاصة لا لأنها أرض الآثـار فحسب بل لأنها : « تمثـل النتيجة النهـائية لعمـل عظيم يفوق في ضخامته وجبروته كل ما خلّفه لنـا القدمـاء ، فالعنـاصر التي كـانت

(٦٨) - Hegel: Ibid; p. 203 - 5.

موجودة فرادى في المملكة الفارسية قد توحّدت في مصر . . »[٦٩] لقد كان النور في فارس هو ماهية الطبيعة الكلية غير أن هذا المبدأ طوّر نفسه أطواراً متباينة فانغمس في الحس بين البابليين والسوريين أحياناً ثم ظهر كوعي أولي للروح العيني في عبادة أدونيس أحياناً أخرى ، ثم ظهر فكراً خالصاً عند اليهود ـ لكن كان ينقصه في الحالة الأولى أعني عند البابليين والسوريين وحدة العيني . أمّا في الحالة الثانية ـ عند اليهود ـ فكان ينقصه العيني نفسه ، ومن هنا فقد كانت المهمة التالية التي قامت بها مصر هي توحيد هذه العناصر المتناقضة . ويركّز هيجل في تحليله على صورة « أبي الهول » ويرى فيه رمزاً للروح المصري : أبو الهول لغز غامض نصفه حيوان ونصفه إنسان : الرأس البشري يبرز من خلال جسم الحيوان ، ويعرض الروح على نحو ما تبدأ في الانبثاق من جانب الطبيعة منتزعة نفسها من جانب الطبيعة ومتأملة ذاتها في حرية دون أن تحرر نفسها تماماً مع ذلك من القيود التي فرضتها عليها الطبيعة . بل إن الحضارة المصرية كلها وما فيها من آثار وصروح خلّفها لنا المصريون نصفها تحت الأرض ونصفها فوق الأرض في الهواء ، والأرض نفسها مقسّمة إلى مملكة الحياة ومملكة الموت والتمثالان الهائلان « لممنون » (وهما تمثالان كبيران للملك أمنحوتب الثالث) يمجّدان نور الشمس لكنه لم يصبح بعد نور الروح الحر الذي يسري فيها . واللغة مكتوبة لكنها هيروغليفية وأساسها الصورة الحسية لا الحرف . . وفي جميع الصور والتماثيل نتعرّف على نفس الخاصية للروح التي تشعر بأنها مكبوتة وتعبّر عن نفسها في إطار حسي فقط . . [٧٠] .

ويركّز هيجل على إبراز وحدة الارتباط بين ما هو روحي ومادي أو طبيعي عند المصريين، فالنيل والشمس: الألف والياء في تصور المصريين لماهية الطبيعة : فالنيل هو العامل الذي يحدد جغرافية البلاد : حواليه

---

(٦٩) - Hegel: Ibid; p. 207.

(٧٠) - Hegel: Ibid; p. 208.

صحـراء قاحلة ، وفي الشمـال البحر الأبيض وفي الجنـوب حرارة لافحـة ثم النيل رمز للحياة ، وكذلك أيضاً بالنسبة للشمس التي هي العامل الحاسم في تقسيم السنة إلى فصول وانضاج المحاصيل فهي رمز للعـطاء أيضاً . وكـما أن النيـل يبدأ ويـواصل العـطاء في أيام الفيضـان ثم يـولـد من جـديـد وهكـذا دواليـك ، فكذا تصـل الشمس إلى حـدهـا الأدنى في الانقـلاب الشمسي في فصل الشتاء ثم لا بدّ أن تولد من جديد ، ولقد عبَّرت أسطورة أوزريس عن ذلك كله أدق تعبير فقد قتله شقيقه الذي يمثل رياح الصحراء المحـرقة ، أمّـا ايـزيس الطيبـة التي حُرمت من الشمس والنيـل فقـد جمعت عـظام أوزريس المتناثرة وراحت تنوح عليه ، ومعها مصر كلهـا ، وهنا نجـد الألم وقد أصبح شيئاً إلهياً ـ نفس النظرة عند الفينيقيـين ، ثم يعود أوزريس ليحكم ـ لكنـه لم يكن إلهاً أو رمزاً فحسب بل هو الذي أدخل الزراعة واخترع المحراث وشرَّع القوانين ووضع في يد الناس وسائل العمل وضمان انتاجه .

فإذا انتقلنا إلى العبادة المصرية لا سيما عبادة الحيوان Zoolatry لوجدنـا مثـلاً آخر في رأي هيجـل على وحـدة الارتبـاط بـين مـا هـو روحي ومـا هـو طبيعي[٧١] ، فـإذا كان المصـريون قـد عبـدوا النيـل والشمس والبـذور فقـد أضفـوا عليها تصـورات روحية . وإذا كـان البعض منا ينفـر الآن من عبـادة الحيوان ويظنها أحطّ من عبادة ظواهر الطبيعة كالنجوم أو الجبال أو الأنهار . . الـخ ، فـإن هيجـل يعتقـد أن العكس هــو الصحيـح فـالأمم التي عبـدت الحيـوانات أرقى من تلك التي عبـدت ظواهـر الطبيعـة المادية . فقد تصـور المصريون في عالم الحيوان الشيء الباطن وما هو غير قابل للادراك ونحن حتى الآن يدهشنا سلوك الحيـوان الغريـزي وتكيفه مـع البيئة وغَـرَضية أفعـاله ولا نعرف ما تضمره هذه الحيوانات . حتى اعتقـد بعض الناس أن القط الأسـود بعيونه البراقة يمثل كائناً شريـراً في حين أن الكلب صـديق ودود ، وإذا كانت طبيعة الحيوان منغلقة على قمتها ولا يستطيـع فهمها أو الاحـاطة بهـا ، فإننـا

---

(٧١) - Hegel: Ibid; p. 220.

تستطيع أن نقول إن هناك منطقتين لا تستطيع الاحاطة بهما هما الطبيعة الحية ومنطقة الروح . وإذا كانت الروح هي وحدها التي تستطيع أن تفهم الروح فـإن « الوعي الـذاتي الكليل عنـد المصريـين الذي لم تتكشف لـه بعـد فكـرة الحـرية البشـرية عَبَـدَ النفس الغامضـة التي تزال منغلقـة على نفسهـا في إطار الحياة البيولوجية وتعاطف مع حياة الحيوان . . »(٧٢) .

ثم تحول شكل الحيـوان إلى رمز ـ ربمـا كان بـالغ الغمـوض ـ فقيل إن الخنفسـاء تـرمـز إلى التـوالـد والنشوء، ويـرمـز أبيس ......Apis إلى فيضـان النيل ، والصقر إلى التنبؤ . . . الخ ولو سرنا قليلاً لوجـدنا أن الفكـرة تعمل عـلى تحريـر نفسها من الصـورة الحيوانيـة المبـاشـرة بحيث ينبثق المعنى الخفي والـروحي بوصفـه الوجـه البشـري من الصـورة الحيـوانيـة . ولهـذا تعـددت الأشكال التي يتخذها أبو الهـول مما يؤكـد أن معنى الروحي هـو المشكلة التي طرحها المصريون عـلى أنفسهم في صورة « لغـز » هو « أبـو الهول » ، بصفـة عـامة ، لا يبـوح بشيء مما هـو مجهول، لكنـه يمثل التحـدي للكشف عنه ، وهكذا نجد مصر وقد حصرت نفسها في ارتبـاط وثيق بالـطبيعة وإنْ حـاولت أن تكسر هذا الارتباط ليبرز الروح الكامن تحت السطح . . »(٧٣) .

والـروح المصري واضـح في الفن فهي روح قويـة ملحّة لم تكن قـادرة عـلى البقاء في إطـار التصور الـذاتي بل كـانت مضطرة للخـروج والتعبير عن مضمـونها بواسـطة الفن فقامت بتحـويـل النـظرة الـطبيعيـة المبـاشـرة للنيـل وللشمس ـ إلى أشكـال تشارك فيهـا الروح ، فهي روح رمـزية وهي بمـا هي كـذلك تجـاهد للسيـطرة على الـرمزيـة ولتمثلها بـوضوح أمـام نفسها . وكلما ازدادت غموضاً وإلغازاً أمام نفسهـا ازداد شعورهـا بالـدافع إلى العمـل لكي تحـرر نفسها من سجنهـا ولتصل إلى تصـور موضـوعي . وهذا الجـانب الغني الهائل الذي كان سمة يتميز بها الروح المصـري يسعى هذا الـروح من ورائه

---

(٧٢) - Hegel: Philos. of History p. 222.

(٧٣) - Ibid.

إلى البهاء أو المتعة أو اللهو بل إلى فهم نفسه ، ليس أمامه سوى أن يُشكّل أفكاره في حجارة وتنقش عليها ألغازها وهذه الهيروغليفيات . .(٧٤) .

كيف تصور المصريون الانسان ؟ : من تصور شعب من الشعوب للانسان في خصائصه الجوهرية يستطيع المرء أن يستخلص خصائص هذا الشعب نفسه ، ومن هنا تبرز أهمية مملكة الموتى عند المصري فهو يتصور الانسان في حالة الموت وقد تخلّص من جميع خصائصه الطارئة العارضة وارتدّ إلى طبيعته الجوهرية .

كان المصريون أول مَنْ عبّر عن الفكرة القائلة بأن النفس البشرية خالدة ، وهي فكرة تتضمن أن الفرد البشري يمتلك في ذاته قيمة لا متناهية(٧٥) ، وإنْ كانت فكرتهم عن النفس أنها ذرة فحسب أعني أنها شيء جزئي وعيني . من هنا ذهبوا إلى التناسخ وأصبحت نفس الانسان يمكن أن تحلّ في جسد الحيوان ؛ وإذا أدركنا أن النفس ذات وجود دائم فلا بدّ من إضفاء الشرف على الجسد باعتباره مقر سكناها السابق ، وذلك بتحنيطه ، كما كانت تدفن مع الموتى مشاغل الحياة فيدفن مع الحرفي أدواته . . الخ . .(٧٦) .

ولو أردنا أن نلخِّص خصائص الروح المصري لقلنا أنها تتألف من عنصرين أساسيين هما : الروح الغارقة في الطبيعة والرغبة الملحّة إلى التحرر منها . فنحن نجد أمامنا كفاح الروح من أجل التحرر من الطبيعة كما يمثّله أروع تمثيل صورة أبي الهول إذ يلعب الخيال دوراً في الأشكال التي خلقها الفن جنباً إلى جنب مع الفهم المجرد(٧٧) .

---

(٧٤) - Hegel: Ibid; p. 224.
(٧٥) - Ibid; p. 225.
(٧٦) - Ibid; p. 226.
(٧٧) - Ibid; p. 228.

يروى أن كاهناً مصرياً قال إن اليونانيين سيظلون إلى الأبد أطفالاً لكن هيجل يعتقد أن المصريين كانوا صبياناً أقوياء ممتلئين بطاقة خلّاقة ، ولا يحتاجون إلى شيء سوى الفهم الواضح لأنفسهم لكي يصبحوا شباناً فقد ظهرت الروح أمام المصريين في صورة مشكلة وهذا واضح في النقوش الشهيرة في معبد الإلهة نيت Neith.. في ساس Sais..(٧٨) . « أنا ما هو كائن ، وما قد كان ، وما سوف يكون ولم يرفع قناعي أحدٌ قط » . ويشير هذا النقش إلى مبدأ الروح المصري فالمشكلة مطروحة والحقيقة في حالة انغلاق . أمّا الحل فقد كان عند اليونان في عبارة الإله أبولو : « أيها الانسان إعرفْ نفسك » والمقصود طبعاً الانسان بصفة عامة وخصائص الانسان بما هو إنسان ومن هنا قالت الأسطورة اليونانية أن أبا الهول ـ الرمز المصري العظيم ـ قد ظهر في طيبة وطرح اللغز على أوديب : « ما هو الشيء الذي يسير على أربعة أرجل ثم على اثنين وأخيراً على ثلاثة » ؟ وعندما قدّم له أوديب الحل ـ وهو الانسان ـ ينتحر أبو الهول بأن يُلقي بنفسه من حالق(٧٩) . فالحل هو تحرر الروح الشرقي وقد سارت مصر في سبيل ذلك خطوات فرفعتها إلى مرتبة المشكلة ، الحل هو أن ماهية الطبيعة هي الفكر الذي لا يوجد إلّا في الوعي البشري . وعلى هذا النحو تمّ الانتقال الداخلي من مصر إلى اليونان . أمّا الانتقال الخارجي فقد تمّ في سير أحداث التاريخ : مصر تصبح اقليماً من أقاليم المملكة الفارسية وعندما يحتك العالم الفارسي بالعالم اليوناني وتسقط الامبراطورية الفارسية يتم الانتقال التاريخي لأول مرة ويتمثل في انتقال السيادة من الفرس إلى اليونان وهو حَدثٌ سوف يتكرر من حين لآخر فاليونان يسلمون صولجان السلطة والحضارة للرومان ، والرومان

---

(٧٨) - Ibid; p. 229 - 230.

(٧٩) - Hegel: Ibid; p. 230.

يخضعون للجرمان . والسؤال الآن : لماذا غابت شمس فارس وبقيت الصين والهند ؟ علينا أن نتأكد من أن الدوام ليس أسمى من الزوال فالجبال الراسخة التي لا تفنى ليست أسمى من الزهرة التي تذوي في أريج العطور . لقد بدأ الكشف عن مبدأ الروح والانفصال عن الطبيعة والتقدم في مسار التاريخ ولهذا أدّت الامبراطورية الفارسية دورها وغابت ، أمّا في الصين والهند فقد كنا أمام حالة فقدان الوعي التام ولهذا لا نجد تغييراً ولا تقدماً لأن التقدم لا يكون ممكناً إلّا في حالة استقلال الروح ، ومع « نور » الفرس بدأ ظهور التصور الروحي وهنا ودّعت الروح الطبيعة(٨٠) .

ثالثاً : خاتمة نقدية

لا شك أن هيجل في هذا العرض العميق للعالم الشرقي قد كشف عن كثير من الجوانب التي تعبر عن الشخصية الشرقية ، ولا يزال بعضها على الأقل قائماً حتى يومنا الراهن : فالحكم الأبوي البطرياركي الذي كان قائماً في الصين يظهر بين الحين والحين في مجتمعاتنا ، بل كثيراً ما يصف الحاكم نفسه صراحة بأنه « كبير العائلة » أو « رب الأسرة » وهو يشعر بكثير من الفخر والاعتزاز بهذا اللقب العجيب !! ومصدر العجب هنا أنه خلط واضح بين الأخلاق والسياسة ، ولعلّ هذا ما عناه أحد الباحثين عندما كتب يقول « إننا نعترض على إطلاق لقب كبير العائلة على رئيس الجمهورية لأن التعبير فضلاً عن تعارضه مع أحكام الدستور يُستخلص منه أنْ ليس لأحد من المواطنين أن يعارض رأياً يقول به ، إذ أن كلمة رب العائلة واجبة الاحترام حتى إذا جانبه الصواب ولا يجوز لأحد من أفراد العائلة أن يعصي له أمراً أو يوجه له نصحاً . . »(٨١) . ومع ذلك فلا يزال هناك حكام كثيرون يفاخرون بأنهم آباء لمجتمعاتهم وينخدع الناس عندما يأملون خيراً من هذا الوصف !

---

(٨٠) - Hegel: Ibid; p. 231.

(٨١) الدكتور حلمي مراد ـ جريدة الشعب القاهرية بتاريخ ٧ /١٠/ ١٩٨٠ .

أخشى أن أقول إن القشرة الأخلاقية الخارجية التي سادت المجتمع الصيني القديم ما زالت قائمة إذ يصعب علينا أن نجد الأخلاق النابعة من صميم الوجدان والصادرة من الواجب وحده بغضٍّ النظر عن العادات أو التقاليد ـ وما يُقال على القشرة الأخلاقية يُقال أيضاً على « التدين الزائف » الذي يخلو من عمق الدين الحقيقي والغوص في أعمق أعماق الروح كما يقول هيجل ! وسوف أترك للقارىء أن يعود مرة أخرى إلى قراءة تحليل هيجل « للشخصية الشرقية » التي خنقها الاستبداد (استبداد الحاكم أساساً) فأصبحت زائفة من كل الجوانب ثم عليه أن يلتفت حوله ليطابق خصائص هذه الشخصية مع ما يراه كل يوم !!

وعلى الرغم من اعترافنا بعمق التحليل الهيجلي فإننا نعتقد أن هذا المفكر العملاق قد وقع في بعض الأخطاء نسوق منها ما يلي :

١ ـ لا شك أن هيجل وقع في خطأ ظاهر عندما جعل مراحل التاريخ المختلفة تسير وفق فكرة عقلية قَبْلية .....Apriori يطبقها ببراعة على معطيات التاريخ . بمعنى آخر إن ما يقوله ليس مستخلصاً من أحداث التاريخ ، ولكنه على العكس يُعبِّر عن « فلسفة هيجل العقلية » كما عرضها في المنطق ، مطبقةً على مجال التاريخ .

٢ ـ مما يدل على ذلك أنه لا يهتم كثيراً بالمسار التاريخي للأحداث أو الدولة فالصين لأنها تمثل الوحدة الجوهرية أو أول مقولة في المنطق (الوجود الخالص) كانت هي البداية التي يبدأ منها التاريخ ، ولمّا كانت الهند تمثل المقولة الثانية (العدم) فإنها تعبر عن الخطوة التالية ـ في حين أنه جعل من مصر آخر ما ظهر ليكون الجسر الذي تعبر عليه الروح من الشرق إلى الغرب . وهذه التواريخ كلها مشكوك في صحتها ، فقد كشف المؤرخون عن حضارات في الشرق الأدنى ربما كانت أقدم كثيراً من حضارة الصين أو الشرق الأقصى عموماً . .

٣ ـ معنى ذلك أن هيجل يُسقط عنصر الزمان من تحليله للتاريخ مع

أنه يقول لنا باستمرار : « التاريخ هو بصفة عامة تطور الروح في الزمان ، كما أن الطبيعة هي تطور الفكرة في المكان » ومَنْ يقرأ فلسفة التاريخ الهيجلية يظن أنه ينتقل بين مقولات مجردة أو من فكرة نظرية إلى فكرة نظرية أخرى دون اهتمام كبير بأيهما أسبق زمنياً من الأخرى !

٤ ـ لا جدال أن القارىء الشرقي ، بصفة خاصة ، عندما يقرأ تحليل هيجل لعالمنا الشرقي تصدمه النظرة الضيقة أحياناً ، والعنصرية الفظيعة أحياناً أخرى :

(أ) فالأوروبيون يتحتم عليهم أن يحترسوا جداً في تعاملهم مع الصينيين .

(ب) وتنازل الجزويت ووافقوا على الأفكار الصينية !

(جـ) وتصل العنصرية الأوروبية البغيضة إلى قمتها في قوله : « إن القدر المحتوم للامبراطوريات الآسيوية أن تخضع للأوروبية ، وسوف تضطر الصين في يوم من الأيام أنْ تستسلم لهذا المصير » ـ وقد كذّب التاريخ المعاصر تنبؤات هذا المفكر العملاق فاستقلت الصين ، وأصبحت تهدد الدول الأوروبية وذهبت الولايات المتحدة الأمريكية بكل جبروتها تطرق بابها بعد أن أعياها الصراع المضني في كوريا وفيتنام وغيرها كما أن المنافسة الخطرة للصناعات اليابانية والتي اعترفت بها الولايات المتحدة نفسها ، دليل قوي وحاسم على قدرة الامبراطوريات الآسيوية على الاستقلال عن الأوروبيين ، بل والتقدم إلى حد المنافسة !

٥ ـ واضح أن هيجل رغم ثقافته الموسوعية لم يكن يعلم عن الاسلام إلّا ما يقوله المبشرون ، وربما كان هذا هو السبب في أحكامه الضحلة عنه : « فالشاهنامة التي كتبها الفردوسي في القرن الحادي عشر ليس لها قيمة كمصدر تاريخي ما دامت محتوياتها شعرية ومؤلفها مسلم » !! أي تعصب أعمى أو جهل غريب يمكن أن تكشف عنه عبارة كهذه ؟ !

٦ - يذهب هيجل إلى أن العالم الشرقي لم يعرف أن الانسان بما هو إنسان حر ، وإنما عرف فحسب أن شخصاً واحداً هو الحاكم حر ، أمّا الحضارة الغربية لا سيما الأمم الجرمانية فهي التي عرفت بفضل المسيحية أن الانسان بما هو كذلك حر . أيمكن أن يُقبل هذا الكلام على عِلّاته ؟ ! ألا يمكن أن نعترض عليه أبسط اعتراض بأن المسيحية ذاتها هي عقيدة نشأت ونمت واكتسبت سماتها المميزة في تربة شرقية وارتبطت تاريخياً بعقائد الشرق القديمة أوثق الارتباط ؟ !(٨٢) .

٧ - تحديد هيجل للعالم الشرقي لا يخلو من غرض ! فهو مثلاً يجعل فارس ومصر أقرب إلى العالم الغربي : « حتى أن الرجل الأوروبي الذي يصل إليهما يجد نفسه في بيته » !! لا لشيء إلّا لأن الحضارة البشرية انتقلت منهما إلى اليونان سواء كنا نقصد الانتقال الخارجي أو الداخلي : الخارجي عن طريق فارس والداخلي عن طريق مصر .

٨ - يعيب على الأخلاق الهندية أنها تخلو من الاحترام للشخصية البشرية فالزوجة تحرق نفسها عقب وفاة زوجها ، والأم تلقي بنفسها في النهر إذا فقدت طفلها . . الخ . لكن هناك وجهة نظر أخرى ترى أن المبدأ الأخلاقي الذي وجد في الهند ظل قائماً حتى الآن رغم اختلاف صور تطبيقه فما زال المبدأ الذي يقول إن على الزوجة أن تكون وفيّة لزوجها قائماً حتى الآن ، وإنْ اختلفت الصورة التطبيقية العملية لهذا المبدأ كما أن على الأم المحافظة على أبنائها ورعايتهم ومن الطبيعي أن تحزن إذا ما فقدتهم وإنْ كانت صورة الحزن التي تحدث عنها هيجل فيها الكثير من المبالغة !

٩ - من المفكرين مَنْ مجّد الشرق لا سيما في عصر التنوير الذي بدأ الاهتمام فيه بالشرق والدراسات الشرقية ، ولقد تجلّى هذا الاهتمام في تأثر شوبنهور بحكمة الهند، كما كتب «جوته» «الديوان الشرقي». وقال ديدرو

---

(٨٢) قارن ما يقوله الدكتور فؤاد زكريا في مقدمته لكتاب « حكمة الغرب » الجزء الثاني وهو يناقش فكرة مشابهة عند رسل ص ٦ .

عن الصين : « أولئك قوم يفوقون كل مَنْ عداهم من الآسيويين في قدم عهدهم ، وفي فنونهم ، وعقليتهم ، وحكمتهم وحسن سياستهم ، وفي تذوقهم للفلسفة ، بل إنهم في رأي بعض المؤلفين ليضارعون في هذه الأمور كلها أرقى الشعوب الأوروبية وأعظمها استنارة » ـ وإذا كان هيجل يقول عنهم أن الصينيين يؤمنون بخرافات لا حصر لها ويتنبأ باستسلامهم للأوروبيين ، فماذا نقول ، وقد تخلّت الصين الآن عن الخرافات بل عن الغيبيات جميعاً ؟ !

نقول إن هذه المآخذ كلها ليست سوى هنات هينات وقع فيها هذا المفكر العملاق ، أو هي نقاط سوداء ـ وإنْ كانت قليلة ـ في ثوب أبيض ناصع البياض .

الكويت في ديسمبر ١٩٨٣ م .

د . امام عبد الفتاح امام

ج. ڤ. ف هيجل

« محاضرات في فلسفة التاريخ لهيجل »

« الجزء الثاني »

« العالم الشرقي »

« العالم الشرقي »

علينا أن نبدأ بالعالم الشرقي ، لكن ليس قبل الفترة التي نكتشف فيها الدول في هذا العالم ، ذلك لأن انتشار اللغة وتكوين الأجناس يقعان خارج حدود التاريخ ، فالتاريخ هو الواقع أمّا الأساطير فهي لا ترقى إلى مرتبة التاريخ . ولا ينشأ الوعي بالوجود الخارجي إلّا مرتبطاً بتعينات مجردة . وعندما توجد القدرة على التعبير عن القوانين ، تظهر حينئذ أيضاً إمكانية إدراك الموضوعات إدراكاً واقعياً . وعلى حين أن ما هو قبل التاريخ يُعدّ سابقاً على الحياة السياسية ، فإنه يقع أيضاً خارج الحياة التي تعرف ذاتها . وعلى الرغم من أن الفكر هنا (أي قبل التاريخ) قد يلجأ إلى التخمينات والحدوس أو الظنون فإنها لا ترقى إلى مرتبة الوقائع . إن المبدأ الأقرب المميز للعالم الشرقي هو جوهرية الأخلاق . ولدينا أول مثال للتحكم في الارادة التعسفية المستغرقة في هذه الجوهرية . إذْ يُعبِّر عن التمييزات والمتطلبات الأخلاقية بوصفها قوانين . لكن إلى هذا الحد تكون هي التي تحكم هذه الارادة الذاتية على نحو ما تحكمها قوة خارجية ، فلا وجود هناك لكل ما هو باطني ، ونيات وضمائر ، وحرية صورية ، ومن ثم لا تُمارس القوانين إلّا على نحو خارجي ، ولا تقوم إلّا بوصفها قوانين قهرية . والواقع أن قانوننا المدني يتضمن بعض الأوامر الالزامية ، فقد أُجبر على التخلي عن ملكية شيء أجنبي أو أُجبر على الوفاء باتفاق معقود . لكن العنصر الأخلاقي لم نضعه

نحن في الالزام وحده ، بل في الوجدان والاحساس المشترك . ولقد كانت هذه الأخلاقيات يُؤمر بها في الشرق كذلك ، ولكن على نحو خارجي ، وإذا كان مضمون الأخلاق يؤمر به على نحو سليم تماماً ، فإن ما ينبغي أن يكون شعوراً داخلياً ذاتياً قد أصبح شيئاً خارجياً ، وليس ما يُفتقد هنا هو الارادة التي تأمر بأفعال أخلاقية ، بل إلى الارادة التي تنجز هذه الأفعال بسبب أوامر من الداخل . وما دامت الروح لم تبلغ بعد مرتبة الذاتية ، فإنها ترتدي مظهر الروحية التي لا زالت متضمَّنة في أوضاع الطبيعة . وحيث أن التمييز بين الداخلي والخارجي ، وبين القانون والحس الأخلاقي لم يتم بعد (إذْ لا يزالان يعبران عن اتحاد لم ينقسم) فكذلك أيضاً الدين والدولة . فالدستور ، بصفة عامة ، ثيوقراطي (ديني) ومملكة الرب هي نفسها المملكة الدنيوية ، كما أن المملكة الدنيوية هي نفسها المملكة السماوية فما نسميه بالرب لم يتحقق ، بَعْدُ ، في الشرق داخل الوعي ، لأن فكرتنا عن الله تتضمن الارتفاع إلى ما فوق الحس . وعلى حين أننا نطيع بسبب أن هذا الذي نفعله يؤكده الجزء الداخلي ، فإن القانون يُنظر إليه هناك على أنه في ذاته صادق صدقاً مطلقاً ، دونما إحساس بالحاجة إلى هذا التأكيد الذاتي ، والانسان لا يدرك في ذلك تصور إرادته الخاصة ، بل إرادة أجنبية خارجية تماماً .

سبق أن حذفنا بالفعل من أجزاء آسيا المتعددة آسيا العليا بوصفها تقع خارج التاريخ طالما أن شعبها البدوي لم يظهر على مسرح التاريخ ، وكذلك حذفنا سيبريا .....Siberia[1] . أمّا بقية العالم الآسيوي فهو ينقسم إلى أربعة مناطق .

أولاً : سهول الأنهار التي تكوّنت بواسطة النهرين الأصفر والأزرق ومرتفعات آسيا البعيدة : الصين والمغول .

---

(١) قارن قوله في « العقل في التاريخ » : « لا بدّ أن نحذف ، في البداية المنحنى الشمالي ، وأعني به سيبريا . . ذلك لأن المنطقة الشمالية تقع خارج التاريخ » ص ١٧١ من ترجمتنا التي نشرتها دار التنوير عام ١٩٨١ (المترجم) .

ثانياً : وادي نهري الكنج والسند .

ثالثاً : أمّا المسرح الثالث للتاريخ فيشمل سهول نهري سيحون وجيحون ، ومرتفعات فارس ووادي وسهول نهري دجلة والفرات التي ترتبط بها آسيا القريبة(٢) .

رابعاً : سهل وادي النيل .

يبدأ التاريخ بالصين والمغول : بدولة الحكم الديني ، ففيها النظام الأبوي البطرياركي هو المبدأ ، وإنْ كان قد تطور في الصين إلى نسق منظم لحياة سياسية دنيوية ، في حين يتحدد بين المغول كصورة بسيطة للسيادة الروحية الدينية . ويُنظر إلى الملك في الصين على أنه رئيس كالأب الديني ، وقوانين الدولة هي من ناحية ، قوانين مدنية ، وهي من ناحية أخرى متطلبات أخلاقية - حتى أن القانون الداخلي - المعرفة من جانب الفرد لطبيعة إرادته ، بوصفها ذاته العميقة - حتى ذلك يخضع لقانون خارجي . وعلى ذلك فإن الدائرة الذاتية لا تبلغ نضجها هنا ما دامت القوانين الأخلاقية تُعامل معاملة القوانين التي تُشرِّعها الدولة . وهذه القوانين من جانبها تحصل على مظهر أخلاقي . وكل ذلك الذي نسميه بالذاتية يتركّز في الرأس الأعلى للدولة وهو يضع نصب عينيه في كل التشريعات التي يصدرها - الخير ، والخلاص ، والصالح العام . وتقابل هذه الامبراطورية الدنيوية السيادة الروحية عند المغول الذي يتربع « اللاما » على قمتها ويُمجَّد كإله ، ولا يمكن أن تتطور حياة سياسية دنيوية في هذه الامبراطورية الروحية .

وفي الشكل الثاني نجد أمامنا في منطقة الهند ، أن وحدة التنظيم السياسي ، أي الآلة الكاملة على نحو ما هو موجود في الصين ، تتحطم للوهلة الأولى . وتظهر القوى المتعددة في المجتمع مُقسّمة ومتحررة في علاقتها

---

(٢) المقصود بالقريبة والبعيدة باستمرار أجزاء آسيا القريبة - أو البعيدة - عن أوروبا (المترجم) .

بعضها ببعض . والواقع آن الطبقات المغلقة المختلفة محددة وثابتة . لكنها ارتدّت إلى تمييزات طبيعية بواسطة العقيدة الدينية التي أقامتها ، وبالتالي ظل الأفراد مجردين من الشخصية الحقيقية ، رغم أنه قد يبدو أنهم نالوا مغنماً من وراء حرية التمييزات التي نتحدث عنها . إذْ على الرغم من أننا لم نعد نجد تنظيم الدولة محدداً ومرتباً بواسطة ذات جوهرية (هي رأس الدولة) على نحو ما كان موجوداً في الصين ، فإن التمييزات الموجودة لا تزال تُعزَى إلى الطبيعة ، ومن ثم أصبحت اختلافات بين الطبقات المغلقة . أمّا الوحدة التي يتحتم أن تلتقي فيها هذه التقسيمات في النهاية فهي وحدة دينية . وهكذا تنشأ الأرستقراطية الدينية واستبدادها . ولكن هنا يبدأ كذلك تمييز الوعي الروحي إزاء الأوضاع الدنيوية ، لكن كما أن التخلص من التمييزات (التي سبق أن ذكرناها) هو الاعتبار الحاسم الرئيسي ، فكذلك نجد في الدين مبدأ انعزال العناصر المكوّنة للفكرة ، وهو مبدأ يتضمن أقصى التطرف ، أي يتضمن تصور الله الواحد البسيط بطريقة خالصة وتصور قوى الطبيعة الحسية بطريقة عامة ، والاتصال بينهما ليس سوى تغير دائم - انتقال سريع لا يهدأ من طرف أقصى إلى طرف أقصى آخر - ودوار عارم عقيم ، لا بدّ أن يظهر بوصفه جنوناً لأي وعي عاقل مُنظم تنظيماً وافياً .

أمّا الشكل الكبير الثالث : فإنه يظهر مقابلاً لواحد الصين الثابت والاضطراب الدائم بلا قيود في الهند ، وأعني بذلك الامبراطورية الفارسية . لقد كانت الصين شرقية تماماً بصفة خاصة . أمّا الهند فيمكن مقارنتها باليونان ، كما يمكن مقارنة فارس بروما . وتظهر في فارس القوة الثيوقراطية بوصفها ملكية . والملكية هي ذلك الضرب من الدستور (أو من التكوين السياسي) الذي يوحّد ، حقاً ، بين أعضاء الجسد السياسي في رأس الدولة . لكن هذا الرأس لا هي الموجه المطلق ولا هي الحاكم المتعسف الذي يجلس فوق العرش ، بل هي قوة ينظم إرادتها مبدأ القانونية نفسه الذي ينظم طاعة المواطنين . ومن ثم يكون لدينا هنا مبدأ عام ، قانون يوضع كأساس للكل ، وإنْ كان لا يزال يُنظَر إليه على أنه أمر في الطبيعة (لا

كحقيقة حرة ومطلقة) يعوقه التناقض . ومن ثمّ فإن التصور الذي لدى الروح عن نفسها ، في هذه المرتبة ، من نوع طبيعي تماماً ـ وهو : النور . وهذا المبدأ الكلي هو مبدأ مُنظِّم للملك ولكل فرد من رعاياه في وقت واحد : وبالتالي فمن الواضح أن الروح الفارسي روح صاف مضيء ، إنه فكرة الشعب الذي يعيش بأخلاق خالصة تماماً مثلما تعيش الجماعة المقدسة . لكن هذه الجماعة من ناحية بوصفها جماعة طبيعية لم تتغلب على التناقض في داخلها وقداستها لا تزال مطلباً ينبغي أن يتحقق . ومن ناحية أخرى فإن هذا التناقض يتبيّن في فارس في كونها امبراطورية الشعوب المتعادية ، وكذلك بوصفها رباطاً لأمم مختلفة ، فالوحدة الفارسية ليست وحدة مجردة مثل وحدة الامبراطورية الصينية وإنما هي تتلاءم لتحكم أمماً عديدة ومختلفة تتحد تحت قوة كلية رحيمة ، إنها مثل الشمس المباركة التي تشرق على الجميع ، توقظهم للحياة وتدفئهم ـ هذا المبدأ الكلي ـ الذي لا يمثل إلّا الجذر فحسب ـ يسمح للأعضاء المتعددين بنمو حر واتساع وتشعب بغير عائق . ومن أجل ذلك تلعب المبادىء المتعددة للحياة وأشكالها ، في تنظيم هذه الشعوب ، دوراً كاملاً وتستمر في التواجد . وسوف نجد في هذا الحشد من الأمم : البدو الرُّحل ، ثم سنرى في بابل وسوريا تجارة وصناعة في قوتها الكاملة ، وسنرى حسية بشعة ، وضروباً من الاضطراب والفوضى بغير ضابط . وتقوم السواحل بدور الحلقة الوسطى مع البلاد الأجنبية ، ويلفت انتباهنا وسط هذا الخليط الإله الروحي لليهود ، وهو مثل براهما لا يوجد إلّا من خلال الفكر فحسب ، ومع ذلك فهو إله غيور يطرد من ملكه جميع التجليات المتميزة الخاصة (أو التجسيدات) كتلك التي يُسمح بها في الديانات الأخرى ، وما دامت هذه الامبراطورية الفارسية قادرة على ضمان حرية هذه المبادىء المتعددة فإنها تبرز التناقض في ذاتها في صورة حية ، وهي ليست منغلقة على نفسها هادئة ومجردة على نحو ما كانت الصين والهند . وهذا يجعلها تمثل انتقالاً حقيقياً في تاريخ العالم .

وفي حين أن فارس تمثل الانتقال الخارجي إلى الحياة اليونانية فقد قامت

مصر بالانتقال الداخلي - وها هنا نجد أن التناقضات في شكلها المجرد قد امتزجت ببعضها امتزاجاً أدّى إلى الغائها . ويمثل هذا التصالح - الذي ليس سوى تصالح مجرد - في حقيقة الأمر صراعاً لأكثر المبادىء تناقضاً ، وهي مبادىء ليست قادرة بعد على تحقيق وحدتها ، وإنْ كانت تجعل من هذا التحقق واجباً أو مشكلة يُراد حلها بأن تجعل من نفسها لغزاً أمام ذاتها وأمام الآخرين ، وهو لغز لن نجد له حلاً إلاّ في العالم اليوناني .

لو قارنا بين هذه الممالك من حيث مصائرها المختلفة لوجدنا أن امبراطورية النهرين الصينيين هي وحدها المملكة التي كان يمكن أن تدوم ، فالفتوحات لا يمكن أن تؤثر في امبراطورية كهذه . ولقد بقي عالم نهر الكنج والسند أيضاً محفوظاً . فمثل هذا الوضع المجرد من الفكر (المميز) لا يقبل الفناء أيضاً . ولكنه مخصص بطبيعته ذاتها ليختلط بالأجناس الأخرى ، ولكي يقهر ويخضع . وفي حين أن هاتين المملكتين بقيتا حتى يومنا الراهن فإنه لم يبق شيء على العكس من ذلك ، من امبراطوريات دجلة والفرات سوى كومة وحجارة في الأعم الأغلب لأن المملكة الفارسية بوصفها انتقالاً هي بطبيعتها قابلة للفناء . ولقد استسلمت ممالك بحر قزوين في الصراع القديم بين إيران وطوران . أمّا امبراطورية النيل الواحد فهي وحدها التي مثلت تحت الأرض في أمواتها العذين لا يتكلمون ، وفي مساكنهم الملوكية ، هؤلاء الأموات الذين ذهبوا إلى جميع أركان الأرض ، لأن ما تبقى فوق الأرض ليس سوى قبور فخمة رائعة .

« القسم الأول »

(الصين)

ينبغي أن يبدأ التاريخ بامبراطورية الصين لأنها أقدم ما ينبئنا به التاريخ . ولا شك أن المبدأ الذي قامت عليه تلك الجوهرية تجعل منه في الوقت نفسه المبدأ الأقدم والأحدث لهذه الامبراطورية . ونحن نرى الصين منذ فجر التاريخ على تلك الحال التي هي عليها في يومنا الراهن(1) . فلمّا كان التعارض بين الوجود الموضوعي والحرية الذاتية غير قائم فيها ، فقد استبعد كل تغير ، وبقيت (شخصية) ثابتة ساكنة تعاود الظهور باستمرار لتحلّ محل ما كان ينبغي علينا أن نسميه تاريخاً حقيقياً . فالصين والهند تقعان كذلك إلى حد ما خارج تاريخ العالم بوصفهما الإفتراض المسبق (المحض) للعوامل التي لا بدّ من انتظار تجمعها والتي تُشكّل تقدمهما الحيوي . ولّما كانت الوحدة بين الخاصية الجوهرية والحرية الذاتية تكون على هذا النحو ، بدون تمييز وتعارض بين هذين العنصرين ، الجوهر والذاتية ، فإنه لهذا لا يمكن للجوهر أن يصل إلى التأمل في ذاته ، أي أن يصل إلى الذاتية ؛ ولهذا فإن عنصر الجوهر (أو العنصر الايجابي) الذي يظهر كعنصر أخلاقي يكون

---

(1) لاحظ أن هيجل كان يلقي هذه المحاضرات طوال خمس سنوات من عام ٢٢ / ١٨٢٣ حتى عام ٢٩ / ١٨٣٠ ـ وبالتالي : « فالصين في يومنا الراهن » تعني الامبراطورية الصينية خلال تلك الفترة أعني أوائل القرن التاسع عشر وما قبلها (المترجم) .

هـو المسيطر ، لا بـوصفه استعـداداً أخـلاقيـاً للذات بـل بـوصفـه استبـداداً للحاكم .

ولن نجد لدى شعب من الشعوب مثل هذه السلسلة المتصلة من كُتّاب التاريخ عـلى نحو مـا نجده في الصـين . فقد كـان لدى الشعـوب الآسيويـة الأخـرى كذلـك تراثهـا القديم لكن لم يكن لهـا تاريـخ ، فعقـائـد الفيـدات Vedas...(٢) الهندية ليست تاريخاً ، وتقاليد الأعراب(٣) وعاداتهم قـديمة جـداً لكنها لم ترتبط بتنظيم دولة وتطورها . ولكن هـذا التنظيم مـوجود في الصـين وبصورة جلية واضحـة ومتميزة . وينحـدر التراث الصيني إلى ٣,٠٠٠ سنـة قبل ميلاد المسيـح . وكتاب « تشـو ـ كنج » ....Shu - King وهـو الكتاب الأساسي لهذا التراث يبدأ مـع حكومـة ياو Yao(٤) ويجعـل ذلك حـوالي عام ٢٣٥٧ قبل الميلاد . ويمكن أن نـلاحظ هنا ، مـلاحظة عـابرة ، أن الممـالك الآسيوية الأخـرى بلغت كذلـك درجة كبيـرة من القدم ، فـالتاريـخ المصري يصـل مثلاً ، وفقـاً لحسـاب أحـد الكتّـاب الانجليـز إلى ٢٢٠٧ قبـل ميـلاد المسيح ـ كما يصل تاريخ الأشوريـين إلى ٢٢٢١ سنة قبـل الميلاد ، والتـاريخ

---

(٢) مجموعة من الأسفـار والكتب الدينيـة الهنديـة القديمـة كتبها مؤلفـون مجهولـون في فترة طويلة تكاد تبلغ خمسمائة سنة من ١٠٠٠ إلى ٥٠٠ قبل الميلاد ، والفيدا كلمة هنديـة تعني حرفياً « المعرفة » وسفر الفيدا معنـاه الحرفي كتـاب المعرفـة . ويطلق الهنـود كلمة الفيـدات عـلى تـراثهم المقـدس كله وهي كلمـة تشبـه الانجيـل في التـراث المسيحي (المترجم) .

(٣) سبق أن ذكـرنا أن الحـديث عن « الأعراب » ـ لا العـرب ـ يبرز الصـورة التي يريـدها هيجـل فهو لا يقصـد الحديث عن الأمـة العربيـة في سيـاق يصف فيـه قبـائـل البـدو الرّحل . قارن حاشية (١) من ص ١٩٥ في ترجمتنـا العربيـة للجزء الأول من هـذا الكتاب ، الطبعة الأولى ، (المترجم) .

(٤) امبراطور صيني شبه أسطوري يُقال إنه حكم الصين من عام ٢٣٥٧ حتى عـام ٢٢٥٨ قبل الميلاد . وكانت حكومتـه منظمـة تنظيمـاً رائعاً حتى أن كـونفوشيـوس قد امتـدحه لحسن تنظيمه ولفضائله المتعددة . ولقد حدث في عهده الفيضان الصيني العـظيم عام ٢٢٥٦ ق . م . (المترجم) .

الهندي إلى ٢٢٠٤ ق . م . وهكذا تنحدر الأساطير والتراث المتعلق بالامبراطوريات الرئيسية في الشرق إلى حوالي ٢٣٠٠ سنة ق . م . وإذا ما قارنا بين هذه التواريخ وبين تاريخ العهد القديم فإنه يكون هناك حوالي ٢٤٠٠ سنة ، وفقاً للافتراض الشائع ، قد انقضت من طوفان نوح حتى المسيح . لكن يوهانس فون مولر ...Johannes Von Mueler(٥) ، قد أثار اعتراضات لها وزنها ضد هذا الرقم ، فهو يضع الطوفان في عام ٣٤٧٣ قبل الميلاد ، أي أقدم من التاريخ السابق بحوالي ١٠٠٠ سنة ، مدعماً رأيه بالترجمة السبعينية للتوراة ..Septuagint(٦) ، وأنا لم أذكر هذه الملحوظة إلّا وفي ذهني تجنب مشكلة يمكن أن تظهر حين نلتقي بتواريخ عصور أقدم من ٢٤٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح ثم لا نجد مع ذلك شيئاً عن الطوفان .

لدى الصين مجموعة من الكتب والوثائق القديمة التي نستطيع أن نتعرّف منها على تاريخ الصينيين ودستورهم (أو تنظيمهم السياسي) ودياناتهم وتتشابه أسفار الفيدا ، والكتب الموسوية ، وقصائد هوميروس أيضاً . وتُسمى هذه الكتب عند الصينيين باسم « الملوك » وتمثل أساس دراساتهم كلها . ويحتوي كتاب « تشو ـ كنج » على تاريخهم ، كما يتناول حكومة الملوك القدماء ، ويشير إلى الأوامر التي أصدرها هذا الملك أو ذاك . أمّا كتاب « يي ـ كنج .....Y - King » فهو يتضمن شخصيات يُنظر إليها على أنها تمثل أسس الكتابة الصينية ، ويعتبر هذا الكتاب أيضاً أساس التفكير

---

(٥) مؤرخ سويسري ولد في عام ١٧٥٢ وتوفي ١٨٠٩ ـ راجع حاشية رقم ٢ من ص ٦٥ في ترجمتنا العربية للجزء الأول من هذا الكتاب (المترجم) .

(٦) الترجمة السبعونية أو السبعينية أو ترجمة الاسكندرية هي ترجمة يونانية قديمة لأسفار العهد القديم قام بنقلها من الأصل العبري مباشرة مجموعة من الأحبار اليهود في الفترة من القرن الثالث حتى القرن الأول قبل ميلاد المسيح . وقد استخدمها اليهود الهيلينيون ولا تزال تُستخدم في الكنيسة اليونانية حتى الآن . أمّا تسميتها بالسبعينية أو السبعونية فيرجع إلى أن مجموعة أحبار اليهود التي ترجمتها كانت تتألف من ٧٢ عالماً وأنجزوا ترجمتها في ٧٢ يوماً (المترجم) .

التأملي الصيني لأنه يبدأ بتجريدات « الوحدة » ، والثنائية ثم يدرس ألوان الوجود العيني المتعلقة بصور الفكر المجردة هذه . وأخيراً فإن كتاب « تشي - كنج ..Shi - King » هو أقدم القصائد بأساليب متنوعة تنوعاً عظيماً . ولقد كان كبار رجال الدولة مكلفين بأن يحضروا معهم في العيد السنوي جميع القصائد التي ألقيت في مقاطعتهم خلال هذا العام . ولقد كان الامبراطور بكامل حاشيته هو الذي يحكم على هذه القصائد . وما كان يعترف بجودته من هذه القصائد كان يحظى باستحسان عام . ولقد كان هناك كتابان آخران يقلان أهمية ، بالاضافة إلى هذه الكتب الثلاثة الأساسية التي كانت موضع إجلال ودراسة - وهما «لي - كي Li - Ki (أوْ لي - كنج) ..Li - King) التي تسجل العادات وطقوس الاحتفالات الخاصة بجلالة الامبراطور . والاحتفالات الخاصة بموظفي الدولة مع ملحق « يو - كنج ..Yo - King » الذي يدرس الموسيقى ، وكتاب « تشي - تسن ..Tshu - Tsin » الذي يدوّن يوميات مملكة لو ..Lu التي ظهر فيها كونفوشيوس ..Confucius ، هذه الكتب هي أساس تاريخ الصين وقوانينها وعاداتها .

ولقد لفتت هذه الامبراطورية أنظار الأوروبيين في فترة مبكرة ، على الرغم من أنه لم يصلهم عنها سوى مجموعة من القصص الغامضة . ولقد كان يُنظر إليها دائماً نظرة إعجاب بوصفها البلد الذي خلق نفسه والذي يبدو أنه لم يرتبط أبداً بأية صلة بالعالم الخارجي .

ولقد جاب رجل من البندقية (هو ماركو بولو)(٧) هذه البلاد لأول مرة في القرن الثالث عشر واعتبرت تقاريره عنها حكايات خرافية ، ثم تأكد ،

---

(٧) ماركو بولو ..Marco Polo (١٢٥٤ - ١٣٢٤) رحّالة من البندقية سافر مع والده وعمه (١٢٧١) إلى الصين ، ووصل إلى بيبنج عام ١٢٧٥ . ثم التحق ببلاط قلاي خان . وأصبح صفياً ووكيلاً له ، وعاد إلى البندقية عام ١٢٩٥ وأملى وصف رحلاته على أحد زملائه ١٢٩٦ وكانت كتاباته المصدر الوحيد عن الشرق في عصر النهضة وحتى القرن ١٩ (المترجم) .

تماماً ، كل ما قاله فيها بعد ، عن اتساعها وعظمتها . ويبلغ تعداد الصين حسب أكثر ألوان التعداد تواضعاً ١٥٠ مليون نسمة . وهناك احصاء آخر يجعل تعدادها ٢٠٠ مليون ، واحصاء ثالث يصل به إلى ٣٠٠ مليون نسمة[٨] . . ! وهي تمتد من أقصى الشمال نحو الجنوب حتى الهند . ويحدها من الشرق المحيط الهادي الواسع ، وتمتد من الغرب نحو فارس حتى بحر قزوين . والصين الأصلية تعاني من كثافة سكانية زائدة : إذ يعيش ملايين عديدة من السكان على ضفاف نهري هونج ـ هو .. Hoang - ho ويانج تسي كيانج .. Yang - Tse Kiang . ويستخدمون مجموعة من العوارض الخشبية التي تتلاءم تماماً مع متطلبات طريقتهم في الحياة . ولقد أثار السكان والتنظيمات الدقيقة للدولة التي تمتد إلى أدق التفصيلات ـ أثارت دهشة الأوروبيين . ولقد كانت المسألة التي أثارت دهشة خاصة هي الدقة التي نفذت بها الأعمال التاريخية ، ذلك لأن المؤرخين في الصين يُعدّون من عظماء الموظفين . ولقد كان هناك وزيران من حاشية الامبراطور يلازمانه ، مهمتهما أن يدوِّنا يوميات يسجلان فيها ما يفعله الامبراطور أو يقوله أو يأمر به . وهذه اليوميات هي التي يستخدمها المؤرخون فيما بعد ويستفيدون منها . وليس في استطاعتنا أن ندخل أكثر من ذلك في دقائق حولياتهم التي عرضوها هم أنفسهم بغير تطوير والتي لا بدّ أن تعوق تطورنا نحن ، إذ ينحدر تاريخهم إلى أزمنة سحيقة جداً كان يُسمى فيها « فوهي .. Fohi » باسم واهب الثقافة ، فقد كان أول باعث لحضارة الصين . ولقد قيل إنه عاش في القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد ، أي قبل العصر الذي بدأ فيه تأليف كتاب « تشو ـ كنج » .. Shu - King غير أن المؤرخين الصينيين يدرسون الفترات الأسطورية وعصور ما قبل التاريخ على أنها عصور تاريخية تماماً .

والمنطقة الأولى التي يبدأ منها تاريخ الصين هي زاوية الشمال الغربي ،

---

(٨) لاحظ أن هذه الاحصاءات التي يُدهَش لها هيجل احصاءات قديمة جداً وبالتالي فهي كلها متواضعة للغاية ! فتعداد الصين الآن يناهز الألف مليون نسمة ! (المترجم) .

الصين الأصلية ، في الاتجاه حول النقطة التي ينبع منها نهر « هونج - هو » ..Hoang - ho(*) من سلسلة الجبال ، لأن الإمبراطورية الصينية لم تتسع وتمتد أطرافها نحو الجنوب في اتجاه نهر « يانج تسي كيانج » Yang Tse - Kiang.. إلاّ في فترة متأخرة . وتبدأ الرواية التاريخية بالفترة التي عاش فيها الناس في حالة توحش ، أعني في الغابات حين كانوا يتغذون من ثمار الأرض ، ويغطون أجسامهم بمآزر من جلود الحيوانات المتوحشة فلم تكن لديهم أية معرفة بقوانين محددة . ويُعزى إلى « فوهي » ..Fohi (وينبغي أن نميز بعناية بينه وبين فو Fo الذي أسس ديانة جديدة) أنه هو الذي علّم الناس كيف يبنون أكواخاً ويقيمون لأنفسهم مساكن . ويُقال إنه لفت أنظارهم إلى التغير وعودة الفصول وأنه أدخل (نظام) المقايضة والتجارة ، وأسس قانون الزواج ، كما علّمهم أيضاً أن العقل يهبط من السماء ، وقدّم لهم معلومات عن كيفية انتاج الحرير بواسطة تربية دودة القز ، وبناء الجسور ، واستخدام الدواب في حمل الأثقال . ولقد أطنب المؤرخون الصينيون للغاية في موضوع كل هذه البدايات . فذهبوا إلى أن تقدم التاريخ ما هو إلاّ اتساع هذه الثقافة التي بدأت على هذا النحو وامتدادها نحو الجنوب ، وبداية الدولة والحكومة . وسرعان ما تفككت الامبراطورية العظيمة التي تكوَّنت على هذا النحو ، بالتدريج وتحولت إلى مقاطعات كثيرة تصارعت واشتبكت في حروب طويلة بعضها مع بعض ، ثم عادت فاتحدت بعدئذٍ في كل واحد . وكثيراً ما تغيرت الأسر الحاكمة في الصين حتى أن الأسرة التي تحكم الآن يُشار إليها ، عادة ، على أنها الأسرة الثانية والعشرون . ولقد صاحب ظهور وأفول هذه الأسر الحاكمة تغير المدن التي اتخذت عواصم في هذه الامبراطورية . فقد ظلت نانكين ..Nankin عاصمة لفترة طويلة . أمّا الآن فإن العاصمة هي مدينة بكين ..Pekin . وفي فترة أسبق كانت مدناً أخرى . ولقد اضطرت الصين إلى الاشتباك في حروب

(*) أحد أعظم نهرين في الصين ومعناه حرفياً النهر الأصفر وطوله ٤٨٤٥ كم (المراجع) .

عديدة مع « التتار » الذين تغلغلوا في البلاد : ولقد بنى « شي هوانج تي » Shi - Hoang - ti..[9] السور العظيم[10] ، الذي كان يُنظر إليه باستمرار على أنه أكثر الانجازات إعجازاً ـ ولقد ارتفع عالياً بوصفه سداً يحجز غزوات البدو في الشمال . ولقد قسم هذا « الأمير » الامبراطورية كلها إلى ست وثلاثين مقاطعة . ومن الغريب أيضاً أنه اشتهر خصوصاً بحملاته على الأدب القديم لا سيما الكتب التاريخية والدراسات التاريخية بصفة عامة . ولقد فعل ذلك بغية تقوية أسرته الحاكمة عن طريق هدم وتدمير ذكرى الأسر الحاكمة السابقة . وبعد أن جُمعت كتب التاريخ وأحرقت ، فرّ مئات كثيرة من الطبقة المثقفة إلى الجبال لكي يحفظوا ما بقي لديهم من أعمال . وكل مَنْ كان يُقبض عليه منهم كان يلقى نفس مصير هذه الكتب . ولقد كانت حادثة

(٩) شي هوانج تي ٢٥٩ ـ ٢١٠ ق . م (والاسم يعني حرفياً : الامبراطور العام الأول) امبراطور صيني حكم الصين عام ٢٤٧ أو ٢٤٦ حتى عام ٢١٠ ، وظل تحت الوصاية حتى عام ٢٢١ وهو الملك الرابع في أسرة تشن ..Chin ولقد عمل على توسيع حدود الامبراطورية فوحّد جميع المقاطعات تحت حكم فرد واحد ومن هنا جاء اسمه : أول امبراطور عام . كما شيّد سور أو حائط الصين العظيم (الذي اكتمل بناؤه عام ٢٠٤ ق . م) ليمنع غزوات البرابرة . وأقام عاصمة في هسيان ـ يانج (الآن سِيان ـ Sian) وعمد إلى تدعيم سلطانه وسلطان خلفائه فأصدر قراراً بتدمير جميع الكتابات التاريخية فبذلت جهود جبارة لجمع وتدمير كل ما في البلاد من الآداب القديمة وقد تمّ احراق جميع الكتب التاريخية الكلاسيكية في حريق شهير عام ٢١٢ . وقد مكّنه ذلك من أن يحكم البلاد بلا تقاليد فضم شتات الصين في وحدة استمرت عدة قرون (المترجم) .

(١٠) سور الصين العظيم هو مجموعة من الاستحكامات تمتد حوالي ٢٤٠٠ كم عبر شمال الصين بين اقليم كانسو حتى اقليم شنوا بختاو وتمتد في معظمها على طول الحافة الجنوبية لسهل منغوليا . ولقد أُقيم هذا السور لحماية الصين من غارات المتبربرين الشماليين . بدأ تشييده في عهد تشن هوانج تسي ، وإنْ كان بصورته الحاضرة ينتمي إلى أسرة المينج (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤) . متوسط ارتفاعه ٧,٥ أمتار ويتراوح سمكه بين ٤,٥ و ٩ أمتار عند القاعدة . لكن الغزوات الشمالية المتتابعة التي تعرّضت لها الصين تظهر أنه لم يكن للسور فائدة عسكرية كبيرة (المترجم) .

احراق الكتب هذه حدثاً بالغ الأهمية . وعلى الرغم من وقوع الحادث فقد تمّ انقاذ كتب القوانين الأصلية ، كما هي العادة في كل مكان . ولقد تمّ أول اتصال للصين بالغرب حوالي عام ٦٤ بعد الميلاد . فيقال إن امبراطور الصين قد أرسل في ذلك الحين سفراء لكي يزوروا حكماء الغرب . ويروى أنه بعد ذلك بعشرين عاماً قد توغل جنرال صيني حتى وصل إلى فلسطين[١١] . ويقال إن المسيحيين الأول قد وصلوا إلى الصين في بداية القرن الثامن الميلادي . وقد أكّد زوار آخرون ، فيما بعد ، أنهم وجدوا آثاراً ونصباً تذكارية لزيارة هؤلاء الروّاد . ولقد قيل إن إحدى ممالك التتار وهي مملكة ليو - تونج . . Lyau - Tong التي كانت قائمة في شمال الصين قد اندحرت واستولى عليها الصينيون بمساعدة تتار الغرب حوالي عام ١٠٠ بعد الميلاد ، الأمر الذي أعطى هؤلاء التتار فرصة مكّنتهم من تثبيت أقدامهم في الصين . وكذلك سمح للمانتشو . Mantchoos[١٢] بالاستقرار في الصين ، وهم الذين اشتبكوا معهم في قتال ابّان القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وهو القتال الذي انتهى باستيلاء الأسرة الحاكمة الحالية على العرش . ومع ذلك فهذه الأسرة الحاكمة الجديدة لم تحدث أية تغيرات أبعد في البلاد ، أكثر مما فعله الغزو السابق للمغول في عام ١٢٨١ . فالمانتشو الذين عاشوا في الصين كان عليهم أن يتكيفوا مع القوانين الصينية وأن يدرسوا العلوم الصينية .

ونتنقل الآن من هذه التواريخ القلائل في تاريخ الصين إلى فحص أو تأمل روح الدستور ..Verfassung الذي بقي دائماً هو هو. وهذا الروح ينتج

---

(١١) في الأصل مملكة يهوذا والمقصود ذلك الجزء من فلسطين الذي يمتد من البحر الميت حتى البحر الأبيض المتوسط (المترجم) .

(١٢) المانتشو ..Mantchoos شعب يرتبط بقبائل التونجوس ، عُرف في أوائل القرن السادس عشر عندما استقر بوادي سونجاري . وهو أصلاً من القبائل الرحّل ولكنه تعلم الزراعة وتمكن (١٥٥٩ - ١٦٢٦) - من بسط سيطرته على قبائل كثيرة وتوسيع رقعة أراضيه . وفي القرن السابع عشر فرضت أسرة شنج سلطانها على الصين وأقامت أسرة مالكة (المترجم) .

من المبدأ العام الذي هو الوحدة المباشرة للروح الجوهري وللروح الفـردي ، لكن ذلك هو روح العـائلة الذي يمتـد هاهنـا ليشمل أعـظم البلاد كثـافة في السكان . إن عنصر (أو لحـظة) الذاتيـة أعني انعكاس الارادة الفـردية عـلى ذاتها في معـارضـة الجـوهـر (بـوصفـه القـوة التي تمتص بـداخلها الارادة الفردية) ، أو وضع هذه القـوة بوصفها ماهيتها الخاصـة التي تعرف الارادة الفردية نفسها فيها على أنها حرة - (هذا العنصر) لا يـوجد في هـذه الدرجـة من درجات التطور ؛ فالارادة الكلية تمارس نشاطها مباشرة من خلال نشـاط الارادة الفردية : وليس لهذه الأخيرة أية معرفة بنفسها عـلى الاطلاق تعـارض الجوهر ، الذي لم يُنظر إليه بعدُ عـلى أنه قـوة معارضـة لها : « كـالله الغيور » مثلاً في الديانة اليهودية الذي يُعرف على أنه سلب أو نفي للفرد . إن الارادة الكلية في الصين تـأمر مبـاشرة بمـا ينبغي على الفـرد أن يفعله ، وهذا الأخـير يـذعن ويـطيـع بـدون تفكـير أو ذاتيـة يتنـاسب مع هـذه الـطاعـة . فإذا لم يـطعْ ويذعن وانفصل بالتالي عن الجوهر ، فـإن العقاب الـذي ينالـه لا يمس أيضاً الكيـان الداخلي ، وإنما يمس الـوجود الخـارجي ، وذلك لأن الانفصـال عن الجوهر لم يتم عن طريق تقهقر داخـل ذاته نفسهـا . ومن ثمّ فإن عنصـر (أو لحظة) الذاتية غير موجود في هذا الكل ، الذي هو كل الدولة ، كما أن هـذا الكل من ناحية أخرى لا يستند اطلاقاً على أساس الاستعداد الأخـلاقي عند الفاعل ، لأن الجوهر هـو مباشـرة فرد ، وأعني بـه الامبراطـور الذي يشكـل قانونه كل ميل أو اتجاه أو استعداد أخلاقي . ومع ذلك فإن تجاهل هذا الميـل (أو الافتقار إلى هذا الاستعـداد) لا يعني التعسف الذي لا بـدّ أن يشير هـو نفسه إلى اتجاه أو استعداد أخلاقي ، أعني ذاتية وحركـة ، وإنما الـذي يكون سائداً هنا هو العام ، أي الجوهر الذي لا يـزال صلباً لا يلين ولا يشبـه شيئاً سوى ذاته وحدها (ولا يشتمل على أي عنصر آخر) .

والعلاقة التي تعبر ، إذنْ ، بطريقة أكثر دقة وأكثر اتفاقاً مـع تصورهـا هي علاقة العائلة . إذْ تعتمد الدولة في الصين على هذه (الصورة من صور) الرابطة الأخلاقية وحدها ، والولاء الموضوعي للأسـرة هو الـذي يُميِّز الـدولة

الصينية ، فالصينيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ينتمون إلى أسرهم أو عائلاتهم وعلى أنهم في الوقت نفسه أبناء للدولة . وهم في داخل العائلة ليست لهم شخصيات ، لأن الوحدة الجوهرية التي يوجدون فيها هي وحدة الدم والوحدة الطبيعية . وليس لهم في الدولة كذلك شخصيات مستقلة ، لأن العلاقة الأبوية البطرياركية هي السائدة ، ولأن الحكومة تقوم على أساس ممارسة الرعاية الأبوية للامبراطور الذي ينظم كل قطاعات الدولة . وهناك خمسة واجبات ذكرت في كتاب « تشو ـ كنج » بوصفها العلاقات الأساسية العظيمة التي لا تتغير ـ وهي : ـ

١ ـ الواجبات المتبادلة بين الامبراطور والشعب .

٢ ـ الواجبات المتبادلة بين الآباء والأبناء .

٣ ـ الواجبات المتبادلة بين الأخ الأكبر والأخ الأصغر .

٤ ـ الواجبات المتبادلة بين الزوج والزوجة .

٥ ـ الواجبات المتبادلة بين الصديق وصديقه .

ويمكن أن نلاحظ هنا بالمناسبة أن الصينيين كانوا ينظرون إلى العدد ٥ ، بصفة عامة على أنه شيء أساسي فهو يمثل ، تقريباً ما يمثله العدد ٣ عندنا[١٣] . فقد كان لديهم خمسة عناصر طبيعية هي : الهواء ، والماء ، والأرض ، والمعادن ، والخشب . وهم يعرفون أربعة أركان للسماء زائد مركز[١٤] . وكانت الأماكن المقدسة التي يشيّدون فيها المذابح الدينية (أو الهياكل الدينية) تُقام على أربعة روافع وخامسة في الوسط .

وتمثل واجبات الأسرة التزاماً مطلقاً وهي تتحدد وتنظم بقانون . فليس للابن أن يبدأ بالكلام حين يدخل أبوه عليه الغرفة ، وإنما ينبغي عليه أن

---

(١٣) يقصد في الثقافة المسيحية حيث يمثل العدد ٣ رمزاً للثالوث المقدس (المترجم) .

(١٤) في الترجمة الفرنسية : « وهم يقولون بأربعة جهات أصلية ومركز » (المترجم) .

يتنحّى ويتوارى بطريقة ما بجوار الباب . وليس له أن يترك الغرفة دون إذن من الأب . وعلى الابن ، إذا مات الأب ، أن يعلن الحداد لمدة ثلاث سنوات ، وأن يمتنع عن أكل اللحم وشرب الخمر كما أن الأعمال التي كان يقوم بها لا بدّ أن تتعطل حتى ولو كانت أعمالاً للدولة فهو مضطر للتخلي عنها . وحتى الامبراطور الذي تسلّم الحكم حديثاً لا يستطيع أن يكرّس نفسه لواجباته الحكومية طوال هذه الفترة . كما أنه لا يجوز أن يُعقَد قران في الأسرة خلال مدة الحداد . وإذا بلغ المرء السنة الخمسين من عمره فإنها ، هي وحدها ، التي تحرره من قسوة الحداد الزائدة هذه حتى لا يُصاب أهل الميت بالهزال . ومَنْ بلغ الستين من العمر تحلل أكثر وأكثر من هذه المراسيم . أمّا مَنْ بلغ السبعين فإن الحداد ينحصر عنده في لون الملابس . وكذلك تُحترم الأم بمقدار ما يُحترم الأب . فعندما رأى « لورد ماكرتني Lord Macartney..»(١٥) الامبراطور ، كان هذا الأخير قد بلغ من العمر ثمان وستون سنة (والستون سنة عند الصينيين تُعتبر عدداً أساسياً كما هي الحال عندنا بالنسبة للعدد مائة) - ومع ذلك فقد كان يقوم بزيارة أمه كل صباح سيراً على قدميه لكي يُعبر عن احترامه لها ، وتُقدَّم التهاني بالسنة الجديدة لأم الامبراطور ، ولا يمكن للامبراطور نفسه أن يتلقى الطاعة والولاء من نبلاء القصر إلّا إذا قدّمها هو نفسه أولاً لأمه . والأم تظل باستمرار هي المستشار الأول والدائم لابنها ، وتُعلَن جميع المراسيم الخاصة بالأسرة باسمها . ولا تُنسَب فضائل الابن لنفسه وإنما إلى أبيه . وعندما التمس رئيس الوزراء في الماضي من الامبراطور أن يمنح أباه ألقاب الشرف ، أصدر الامبراطور مرسوماً جاء فيه :

« حين كانت المجاعة تدمر البلاد قدّم والدك الأرز للذين يتضورون

(١٥) ايرل جورج ماكرتني (١٧٣٧ - ١٨٠٦) دبلوماسي انجليزي عمل في أماكن عديدة من العالم مثل « سانت بطرسبرج » و « ايرلندة » و « مدراس » ، وكان أول مبعوث دبلوماسي لبريطانيا في بكين لمدة عامين من عام ١٧٩٢ حتى ١٧٩٤ ، كما كان حاكماً لرأس الرجاء الصالح لمدة عامين أيضاً من ١٧٩٦ حتى عام ١٧٩٨ (المترجم) .

جوعاً فيا له من عمل خير . . ! لقد كانت الامبراطورية على حافة الخراب لكن والدك حماها وصانها مجازفاً بحياته: فيا له من ولاء وإخلاص! لقد كان والدك يقوم بأعباء الادارة في الدولة : فشرّع قوانين ممتازة ، وصان السلام والوئام مع الأمراء المجاورين ، كما دعَّم كذلك الحقوق الشخصية للتاج ، فيا لها من حكمة ! ولذلك فإن ألقاب الشرف التي أمنحها له هي : المحسن ، والمخلص ، والحكيم . . » .

وكل ما هو منسوب هاهنا للأب قام به الابن . وهكذا يبلغ الجدود والأسلاف ، عكس الحال عندنا ، مراتب الشرف بفضل أبنائهم ، ولكن في مقابل ذلك فإن أب كل أسر مسؤول عن أخطاء أبنائه . وهناك واجبات تصعد من أسفل إلى أعلى ، لكن ليس من الواجبات ما يهبط من أعلى إلى أسفل .

ومن الأهداف الرئيسية للصينيين أن يكون لهم أبناء يشرِّفونهم في الجنازات ، ويحترمون ذكراهم بعد الموت ، ويزينون لهم قبورهم . وعلى الرغم من أن الرجل الصيني قد تكون له عدة زوجات فإن واحدة فقط هي التي تكون سيدة المنزل ، وعلى أبناء الزوجات الأخريات احترامها احتراماً مطلقاً بوصفها أماً للكل . وإذا لم يكن لدى الرجل الصيني أبناء من أي من زوجاته فإنه يلجأ إلى التبني وفي ذهنه عمليات التشريف التي تُقام له بعد وفاته . فهناك مطلب أساسي لا غنى عنه وهو زيارة قبر الوالدين كل عام . وهاهنا تتجدد الأحزان كل عام ، ولكي يجد البعض متنفساً كاملاً لأحزانهم ، فإنهم يقيمون عند القبور بعض الوقت : أحياناً شهراً وأحياناً شهرين . وغالباً ما كان يُحتفظ بجثة الأب المتوفي لمدة ثلاثة أشهر ، أو أربعة أشهر في البيت ، ولا يجوز لأحد خلال هذه الفترة أن يجلس على كرسي أو ينام في سرير . ولكل عائلة في الصين « قاعة للأسلاف » أو الجدود يجتمع فيها أعضاء الأسرة جميعاً كل عام ، وتُعلَّق في هذه القاعة صور أولئك الذين شغلوا مناصب سامية . أمّا أسماء رجال الأسرة ونسائها الذين يقلون عن ذلك أهمية فتسجل في لوحات صغيرة ثم يشترك كل أفراد الأسرة في تناول وجبة غذائية ، وعلى

أثرياء الأسرة أن يكرموا وفادة أعضاء الأسرة الفقراء . ويروى أن واحداً من « الماندرين » ..Mandarin[١٦] أصبح مسيحياً وكفّ عن تمجيد أسلافه بهذه الطريقة فعرّض نفسه بذلك لاضطهادات كبرى من جانب أقاربه . ونفس هذه الدقة في التنظيمات السائدة في علاقة الأب بأبنائه تتميز بها كذلك علاقة الأخ الأكبر بالأخوة الأصغر ، إذْ على الأخوة الصغار احترام الأخ الأكبر وإنْ كان ذلك بدرجة أقل من احترام الوالدين .

وهذا هو الأساس الذي تقوم عليه العائلة وهو الأساس الذي يرتكز عليه الدستور إنْ جاز لنا أن نتحدث عن شيء من هذا القبيل . لأنه على الرغم من أن الامبراطور له حقوق الملك ويتربّع فوق قمة البناء السياسي (أو كل الدولة) فإنه يمارس هذه الحقوق بطريقة أب مع أبنائه . فهو الأب وكل ما في الدولة من أمور تستوجب الاحترام ترتبط به، لأن الامبراطور هو الرئيس في كل من أمور الدين والعلم وسوف نتحدث عن هذا الموضوع بالتفصيل فيما بعد . وهذا الاهتمام الأبوي من جانب الامبراطور وروح رعاياه بوصفهم أطفالاً لا يستطيعون أن يتعدوا المبدأ الأخلاقي لمحيط الأسرة ولا أن يظفروا لأنفسهم بأية حرية مستقلة ومدنية ـ يجعل من هذا الكل امبراطورية وحكومة وسلوكاً ، يكون في الوقت نفسه أخلاقياً وواقعياً تماماً ، أعني أنه نتاج للفهم بلا عقل حر ولا خيال حر .

---

(١٦) كلمة برتغالية معناها الحاكم ثم أصبحت لقباً أطلقه الأوروبيون على كبار موظفي الدولة ، مدنيين وعسكريين ، في الامبراطورية الصينية القديمة ، وكان نظام الماندرين نظاماً أساسياً في الصين القديمة ينقسم إلى تسع درجات يُستدَل على كل منها بزرار ذي لون معين يوضع على القبعة . وهذا النظام وإنْ كان يشبه طبقة البراهمة في الهند من حيث أنه الطبقة الرئيسية المفكرة في البلاد ، فإنه يخالفها في أمور كثيرة منها أنه أقل انتماء إلى رجال الدين ، كما أن الماندرين ليس طبقة مقفلة كما هي الحال في النظام الهندي ، فليس الرجل من الماندرين بمولده بل بتربيته ، فالماندرين يُؤخذون بالتعليم والامتحان من جميع طبقات الشعب ، وليس لابن الماندرين أيُّ حق مكتسب في أن يخلف أباه لكن عليه أن يثبت كفاءته وجدارته بما لديه من مواهب وقدرات واستعدادات حتى يدخل في هذه الطائفة (المترجم) .

ينبغي أن يوجه للامبراطور أعظم احترام ممكن . وهو مضطر شخصياً بفضل مركزه أن ينظم الحكومة ، ولا بدّ له هو نفسه أن يتعرّف (بطريقة مباشرة) على الأعمال التشريعية وعلى أحوال الامبراطورية وأن يوجهها بنفسه برغم معاونة المحاكم له . وعلى الرغم من ذلك فإن مجال ممارسته لارادته الفردية المحضة ضئيل . لأن الحكومة كلها تسير وفقاً لمجموعة من المبادىء الأساسية القديمة في الامبراطورية . لكن اشراف الامبراطور ومراقبته المستمرة لا تقلان عن ذلك أهمية . ولذلك فإن أمراء الامبراطورية يربون بطريقة صارمة حتى ليصبح هيكلهم البدني متعوداً على الخشونة (نتيجة للتدريب على ضبط النفس) ودراسة العلوم هي شغلهم الشاغل منذ نعومة أظافرهم . وتتم هذه التربية تحت اشراف الامبراطور فيتعلمون في فترة باكرة من حياتهم أن الامبراطور هو رأس الدولة ولهذا ينبغي أن يظهر على أنه الأول والأحسن في كل شيء . ويُعقد امتحان للأمراء في كل عام ، ويُنشر تقرير مفصل عن هذا الموضوع في جميع أنحاء الامبراطورية التي تهتم اهتماماً بالغاً بهذه المسائل . ولهذا فقد نجحت الصين في أن تحصل على أفضل وأعظم الحكام الذين يمكن أن ينطبق عليهم تعبير « حكمة سليمان » . ولقد تميزت بوجه خاص أسرة مانتشو ..Mantchoo الحاكمة الحالية بمواهب ذهنية وبدنية. فلقد تحققت هنا كل المثل العليا للأمراء ، ولتربية الأمراء التي كانت كثيرة ومتنوعة منذ ظهور «مغامرات تليماك» لفينيلون ..Fènelon(١٧) ففي أوروبا لا يمكن

---

(١٧) أحد مفكري القرن السابع عشر في فرنسا اسمه الكامل فرانسو دي سالبناك -Fran çois de Salignac.. ولد في ١٦ أغسطس عام ١٦٥١ وتوفي في ٧ فبراير عام ١٧١٥ . كان رئيساً لأساقفة كامبراي ..Cambrai لمدة عشر سنوات ثم عين عام ١٦٨٩ مربياً لدون بورجوني ..Bourgogne حفيد لويس الرابع عشر الذي كتب لتربيته ثلاثة كتب هي «الحكايات الخرافية» تدور حول تربية الأطفال لا سيما البنات ثم « حوار الموتى » وهي محاورات خيالية بين الأبطال القدامى و « مغامرات تلماك » وهي نوع من اليوتوبيا السياسية التي تعرض بمهارة لكثير من الدروس السياسية التعليمية ، ونقداً بارعاً للنظم القائمة فجاء البحث لوناً من ألوان التوفيق بين الأحلام والممكنات (المترجم) .

أن يكون هناك أشخاص مثل « سليمان » ، أمّا هنا فيوجد المكان والضرورة لمثل هذه الحكومة ، ما دامت العدالة ، والرخاء ، وأمن الجميع تعتمد على الدفعة الأولى التي يقوم بها العضو الأعلى (أو الحلقة الأولى) في هذا النظام التصاعدي . أمّا سلوك الامبراطور فهم يصورونه لنا على أنه تصرف ذكي ونبيل وطبيعي وبسيط إلى أعلى درجة وهو يخلو من الزهو الصامت أو الغطرسة المنفرة سواء في الكلام أو العادات ، لكنه يعيش وهو يشعر بقيمته الخاصة ، ويمارس واجباته الامبراطورية التي تربّى على شعائرها منذ شبابه المبكر . وليس هناك عدا الامبراطور في حقيقة الأمر طبقة مميزة ولا نبلاء عند الصينيين . وأمراء البيت الامبراطوري وحدهم ، وكذلك أبناء الوزراء ، هم الذين لهم أولوية خاصة ، وهم يتمتعون بذلك بحكم منصبهم أكثر مما هو بحكم مولدهم ، وما عدا ذلك فالكل متساوون ولا يشارك في إدارة الأعمال العامة إلاّ الذين هم أكفّاء لها . ولذلك فإن المناصب الرسمية لا يشغلها إلاّ رجال على قدر كبير من التعليم ورجاحة العقل . ولهذا السبب فكثيراً ما وقفت الدولة الصينية كمثل أعلى يصلح أن يكون نموذجاً يُحتذَى حتى بالنسبة لنا .

والموضوع التالي الذي ينبغي علينا أن نتناوله هو إدارة الامبراطورية . ليس في استطاعتنا أن نتحدث عن دستور بالنسبة للصين ، لأن ذلك لا بدّ أن يعني أن الأفراد والنقابات أو الهيئات لها حقوق مستقلة من حيث مصالحهم الخاصة من ناحية ومن حيث الدولة بأسرها من ناحية أخرى . ولا بدّ أن يكون هذا العنصر مفقوداً هنا ، فنحن لا نستطيع أن نتحدث إلاّ عن إدارة الامبراطورية ، فالدولة في الصين هي دولة المساواة المطلقة ، وكل الفروق الموجودة لا تكون ممكنة إلاّ عن طريق إدارة الامبراطورية وعن طريق الكفاءة والجدارة التي يبديها كل فرد حتى يصل في هذه الادارة إلى مرتبة عليا . وما دامت المساواة منتشرة في الصين لكن بلا أدنى حرية ، فإن الحكم المطلق المستبد هو بالضرورة شكل الحكم هناك . إن الناس في بلادنا متساوون أمام القانون وحده وفي احترام كل منهم لملكية الآخرين لكنهم يختلفون بعد ذلك

من حيث أن لديهم الكثير من المصالح والامتيازات الجزئية الخاصة ، التي لا بدّ أن تكون مكفولة إنْ كنا نريد أن يكون لدينا ما نسميه بالحرية . لكن هذه المصالح الخاصة في الامبراطورية الصينية ليس لها في ذاتها أي اعتبار . وتعتمد الحكومة في إدارتها لشؤون الدولة على الامبراطور وحده الذي يحرِّك الحكومة بوصفها سلسلة تصاعدية من الموظفين أو الماندرين ..Mandarin . وهناك نوعان من الماندرين : نوع مثقف ، ونوع عسكري ، وهذا اللون الأخير يقابل نظام الضباط عندنا . أمّا الماندرين المثقفون فهم يشكلون فئة عليا لأن المدنيين في الصين لهم أفضلية على العسكريين . ويتعلّم موظفو الدولة في المدارس فهناك مدارس أولية مخصصة لتحصيل المعلومات الأولية ولا يوجد هناك مؤسسات للتعليم العالي تشبه الجامعات عندنا . أمّا أولئك الذين يرغبون في الحصول على مناصب عليا في الدولة فإن عليهم أن يجتازوا عدة امتحانات عددها في العادة ثلاثة. ولا يُسمَح بالتقدم إلى الامتحان الثالث والأخير ، والذي يحضره الامبراطور بنفسه ، إلاّ لأولئك الذين اجتازوا بنجاح الامتحانين السابقين (الأول والثاني) . والمكافأة التي يحصل عليها مَنْ يجتاز هذا الامتحان الأخير هو أن يقدم مباشرة إلى أعلى مجلس في الامبراطورية، والعلوم التي يُطلَب من المتقدم أن يكون على علم بها بصفة خاصة هي تاريخ الامبراطورية وفقه التشريع ، وعلم العادات والسلوك وتنظيم وإدارة الحكومة ، ويقال إنه على الماندرين فضلاً عن ذلك ، أن يكون لديه موهبة الشعر على أرفع قدر ممكن . ويتضح ذلك بوجه خاص من قصة يوكياو لي ..Ju - Kiao - Li » أو « أبناء العم » التي ترجمها « آبل ريموزا » ..Abel Remusat[١٨] التي يروي لنا المؤلف فيها قصة شاب أنهى دراسته

---

(١٨) جان بير آبل ريموزا .. Jean Pierre Abel Rèmusat (١٧٨٨ - ١٨٣٢) طبيب فرنسي لكنه تخصص في الثقافة والآداب الصينية ، وله العديد من المؤلفات عن الصين منها « دراسة للغة الصينية وللأدب الصيني » ومنها أيضاً « أصول علم النحو الصيني » عام ١٨٢٢ ومنها كتابه « تاريخ البوذية » عام ١٨٣٦ . . . الخ (المترجم) .

ويحاول الحصول على مناصب عليا . وضُبَّاط الجيش أيضاً لا بدّ أن يكون لديهم بعض المواهب الذهنية ، وهم يُمتحنون كذلك . لكن الموظفين المدنيين ، كما سبق أن ذكرنا ، يتمتعون باحترام أعظم . ويظهر الامبراطور في الاحتفالات الكبرى وبصحبته حاشية تتألف من ألفين من الحكماء ، أعني من الماندرين المدنيين ، ونفس العدد من الماندرين العسكريين . (يوجد في الدولة الصينية كلها من الماندرين ١٥ ألف مدني ، و ٢٠ ألف عسكري) . أمّا الماندرين الذين لم يحصلوا بعد عى عمل فإنهم ينتمون مع ذلك إلى القصر أو البلاط الامبراطوري ويلزمون بالظهور في الاحتفالات العامة في الربيع والخريف حين يقود الامبراطور بنفسه المحراث لتخديد الأرض . وينقسم الموظفون إلى ثمان فئات : الفئة الأولى هي تلك التي تصاحب الامبراطور ويليها نواب الامبراطور . . . الخ . ويحكم الامبراطور بواسطة مجموعات إدارية تتألف في الأعم الأغلب من الماندرين . ويُعتبر المجلس الامبراطوري أعلى مؤسسة إدارية وهو يضم أعلى الرجال ثقافة ، وأرفعهم موهبة ، ومن بين هؤلاء يتم اختيار رؤساء المجالس الأخرى . وفي أعمال الحكومة يسود أعظم قدر من العلانية فالموظفون يرفعون تقارير إلى المجلس الامبراطوري الذي يضع بدوره الأمر بين يدي الامبراطور ، وحين يتخذ الامبراطور قراره يُعلَن على الناس في صحيفة القصر . وكثيراً ما اتهم الامبراطور نفسه أيضاً بارتكاب أخطاء معينة . وحين يجتاز الأمراء امتحاناتهم بصورة سيئة كان اللوم يوجه إليهم علانية . ويوجد في كل وزارة ، وفي أجزاء الامبراطورية المختلفة رقيب اسمه : « كو ـ تاو ..Ko - Tao » عليه أن يرفع إلى الامبراطور تقريراً عن كل شيء ، ولهؤلاء الرقباء وظائف دائمة ، فلا يستطيع أحد أن ينال منهم شيئاً ، بل إن الناس ، على العكس من ذلك ، يخشونهم جداً ، فهم يقومون بمراقبة دقيقة لكل ما يخص الحكومة ، كما يراقبون سلوك الماندرين العام والخاص ويرفعون تقاريرهم إلى الامبراطور مباشرة : وفضلاً عن ذلك فإن للرقباء الحق في الاحتجاج على سلوك الامبراطور وتوجيه اللوم إليه . ويقدم لنا تاريخ الصين الكثير من الأمثلة عن

روح الـرقباء النبيلة وشجـاعتهم : فلقد أبـدى أحد الـرقباء ، مثـلاً ، بعض الملاحظات ضـد حاكم طـاغية فـطرده الأخير شـر طردة ، لكنـه رغم ذلك لم يتحوّل عن رأيه وإنمـا ذهب بنفسه مـرة أخرى إلى الامبـراطور لكي يجـدد له اعتراضاته . ولّما كان يعلم مقدماً أن في ذلك اعدامه فقد أحضر معه التابوت الذي يودّ أن يُدفن فيه . ويروى عن رقباء آخرين أنهم بعد أن عُذّبوا بقسـوة بواسطة الجلادين ، وبعد أن عجزوا عن احداث أي صوت ـ كتبوا انتقاداتهم مع ذلك على الرمال بدمائهم ، ويشكل هؤلاء الرقباء أنفسهم محكمـة أخرى لهـا حق الاشراف والمراقبة عـلى جميـع أجـزاء الامبـراطـوريـة . والمـانـدرين مسؤولون كذلك عن كل الـواجبات التي أهملوهـا في الظروف القـاهرة : فلو حدثت مجاعـة ، أو انتشر وبـاء ، أو وقعت مؤامرة ، أو اضـطرابات دينيـة ، فإن عليهم أن يكتبوا تقارير عنها ، وعليهم التدخل على نحو مباشر حسب ما تقتضيـه الأحوال دون انتـظار أوامر من الحكـومة . وهكـذا فإن الادارة كلهـا تُغطَى بشبكـة من الموظفـين: منهم مَنْ يُخصص لـلاشـراف عـلى الـطرق، ومنهم مَنْ يُخصص لـلاشراف عـلى الأنهار أو الشواطىء . فكـل شيء منظم بـدقـة بالغة ، وهم يوجهون اهتماماً شـديداً إلى الأنهار بصفـة خاصـة . وتوجـد في كتـاب « تشو كنج » ..Shu - King كثير من أوامـر الامبراطـور التي تستهدف المحافظة على البلاد من خـطر الفيضانـات ، ويسهر عـلى بوابـات كل مـدينة حـراس، كما أن الشـوارع تُغلق طـوال الليـل. ويمكن مُسـاءلـة مـوظفي الحكـومة باستمرار أمام المجلس الأعلى . ويلتزم كل ماندرين أيضاً بأن يعلن كل خمس سنوات عن الأخطاء التي ارتكبهـا . ويشهد عـلى صحة حكمـة هيئة النـظام والمراقبة . إذا وجدت ثمة جريمة كبيـرة لم يعلن المانـدرين أنه ارتكبهـا يعاقب هو وعائلته معاقبة بالغـة القسوة . وواضـح من ذلك كله أن الامبـراطَور هـو المركز الذي يدور حوله كل شيء ، ويعود إليه كل شيء ، وبالتالي فإن رخـاء البلاد ، وسعادة النـاس يعتمدان عليـه ، ويعمل النـظام التصاعـدي للادارة بـأسره ، قليـلاً أو كثيراً ، وفق نـظام روتيني مستقـر . وهـو نـظام يصبـح في أوقات الاستقرار والهدوء عادات مريحة ؛ فهو يسير في طريقه عـلى نحو مـطرد ومنظم يشبه مجرى الطبيعة الذي تكون الحال فيـه ، في أي وقت ، كأي وقت

آخـر ؛ وينبغي أن يكون الامبـراطور هـو المحـرِّك والـروح اليقـظة والنشـطة بطريقة تلقائية دائماً : فإذا لم تكن شخصية الامبراطور على النحو الذي أسلفنا ذكره ، أعني إذا لم تكن شخصية أخـلاقية تمـاماً ، مجـدّة ، مؤكدة لجـلالها ، مليئة بالنشاط ـ فإن كـل شيء يتراخى ، وتُصـاب الحكومـة بالشلل من قمـة الـرأس حتى أخمص القدم ، وتستسلم لـلإهمال والأهـواء الفـرديـة ، لأنـه لا توجد قوة شرعية أخرى أو نظام ، سوى قوة الامبراطور المهيمنة والمـراقبة من أعلى ، فليس ضمير موظفي الحكومة أو شرفهم هو الذي يـدفعهم إلى تأديـة واجبـاتهم، لكنهم يؤدّون واجبـاتهم بسبب قـرارات خـارجيـة تـدعمهـا عقـوبـات صارمة . وعلى سبيل المثال فإن آخر امبراطور في الأسرة الحـاكمة إبّـان الثورة التي نشبت في منتصف القـرن السابـع عشـر ، كـان ودوداً للغـايـة وجـديـراً بالاحترام . لكن دماثة شخصيته هذه جعلت عنان الحكومة يتراخى في يده ، وجعل من الطبيعي أن تنشأ الاضطرابات . واستدعى المتمـردون « المانتشـو » Mantchoo.. إلى البـلاد . ولقد اضـطر الامبراطـور إلى أن يقتـل نفسـه حتى يتجنب السقوط في أيدي أعـدائه . وكتب بـدمه عـلى طرف رداء ابنتـه بضع كلمات يشكو فيها بمرارة ظلم رعاياه . ولقد دفنه واحـد من المانـدرين الذين كـانوا معـه ، ثم قتل نفسـه على مقبـرته ، ثم تبعتـه الامبراطـورة وحاشيتهـا فانتحرن أيضاً . أمّا آخر أمير في القصر الامبراطوري ، وقد كـان محاصـراً في منطقة بعيدة ، فقد وقع في أيدي الأعداء وتمّ إعدامـه . أمّا جميـع المانـدرين الآخرين الذين كانوا يحيطون بهذا الأمير فقد انتحروا بإرادتهم .

وإذا ما انتقلنا من نظام الادارة في الصين إلى **نظام التشريـع** ، لوجـدنا أنه ينظر إلى الرعايا على أنهم قُصَّر على نحو ما يكشف مبدأ الحكومـة الأبويـة البطرياركية[١٩] ، فلا توجد فئات أو طبقات مستقلة كما هي الحال في الهند ،

---

(١٩) النظام الأبوي أو البـطرياركي يعني بصفـة عامـة « حكم الأب » فهو نـظام اجتماعي يتميز بسلطة الأب المطلقة على العشيرة أو العائلة بـانتساب جميع أفراد الجمـاعة إليـه وهـو وراثي ويسير النَّسَب في خط الـذكور فقط فينتقـل اسم رئيس العائلة وممتلكـاتـه وسلطتـه إلى الأبناء . ويسـود النظام الأبـوي عند القبـائل الجـوّالة في آسيـا وأفـريقيـا =

لها مصالحها الخاصة التي تدافع عنها . وإنما كل شيء يُدار ويوجه من أعلى . وقد استقرّت تماماً جميع العلاقات (المشروعة) بواسطة قوانين وتشريعات وبالتالي فقد طمست تماماً الاحساس الحر ، ووجهة النظر الأخلاقية بصفة عامة(*) . وقد تحددت صورياً عن طريق القوانين مواقف أفراد الأسرة في إحساساتهم إزاء بعضهم البعض . وانتهاك هذه القوانين يتضمن في بعض الحالات عقوبة قاسية . والنقطة الثانية التي علينا أن نلاحظها هنا هي سطحية Ausserlichkeit العلاقات الأسرية التي تكاد تتحول إلى عبودية . فلكل فرد الحق في أن يبيع نفسه وأبناءه . وكل صيني يشتري زوجته والزوجة الأولى ، هي وحدها المرأة الحرة ، أمّا المحظيات فهن ، على العكس من ذلك ، إماء ، ويمكن الاستيلاء عليهن كالأطفال أو أي عقارات أخرى في حالة مصادرة الممتلكات .

وهناك نقطة ثالثة هي أن العقوبات ، في الأعم الأغلب ، بدنية ، ولا بدّ أن يُنظَر عندنا إلى هذه العقوبات على أنها إهانة مخلّة بالكرامة ، لكنها لم تكن كذلك في الصين التي لم يتطور فيها بعد الاحساس بالكرامة . فما أسهل أن تُنسى علقة بالهراوة ، رغم أنها من أقسى العقوبات عند الانسان ذي الكرامة الذي يكره أن يُنظر إليه على أنه يمكن الاعتداء عليه بدنياً ، ولكن

والصين واليابان ويمكن القول بأن النظام الاقطاعي في العصور الوسطى يحتوي على عناصر بطرياركية أيضاً على اعتبار أن الاقطاعي الكبير كان يُعِد نفسه ملتزماً بجماعة ومسؤولاً عنها ، لكنه من الأنظمة المنتشرة على نحو واسع بين القبائل البدائية ولهذا يمثل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي عند الانثروبولوجيين (المترجم) .

(*) من الواضح أن تعبير « وجهة النظر الأخلاقية » يُستخدم هنا بالمعنى الدقيق الذي حدده هيجل في كتابه « فلسفة الحق أو القانون » بوصفه التعين الذاتي للذاتية ، أو الاعتقاد الحر بالخير . ومن ثم فينبغي على القارىء ألاّ يسيء فهم المعنى الذي تُستخدم فيه باستمرار مصطلحات : الأخلاق ، والحكومة الأخلاقية . . الخ بالنسبة للصين . لأن هذه الكلمات لا تعني الأخلاق إلاّ بالمعنى الواسع الفضفاض لهذه الكلمة ، أي قواعد وأوامر تُعطى لجعل السلوك خيّراً دون أن يبرز فيها عنصر الاقتناع الداخلي (الناشر) .

لـديه جـوانب أخرى لحسـاسيته أكـثر رقة . لكن الصينيـين لم يعرفـوا ذاتيـة الكرامة ، فهم رعايا يخضعون للتأديب والتربية أكثر من خضوعهم للعقوبة ، كما هي الحال بالنسبة للأطفال عندنا ، لأن التأديب يستهدف الاصلاح ، أمّا العقوبة فهي تعني الاتهام الحقيقي بارتكاب الخطأ . إن المبدأ الذي يحول دون ارتكاب الفعل في حالة العقوبة البدنية هو الخوف من العقـاب فحسب وليس أي شعور بالإثم ، لأننا لا نستطيع هنا أن نفترض تفكيراً تـأملياً حـول طبيعة الفعـل نفسـه ، فجميـع الجـرائم عنـد الصينيـين سـواء تلك التي اقتـرفت ضـد قوانين العلاقات الأسرية ، أو ضد الدولة ، يُعاقب عليها بطريقة خارجيـة ، فـالأبناء الـذين لا يؤدون الاحترام الـواجب لآبـائهم أو أمهـاتهم ، والأخـوة الأصغر سناً الذين لا يحترمون أشقاءهم الأكبر منهم احترامـاً كافيـاً يُضربـون بـالعصا (بـالفلقـة) . ولـو اشتكى ابنٌ من ظلم وقـع عليـه من والـده ، أو اشتكى أخ أصغر من أخ أكبر ، كان جزاؤه مائة ضربة بعصـا من الخيزران ، ويُنفى ثلاث سنوات لو كان معـه الحق في شكواه . أمّـا إذا لم يكن له حق في الشكوى فيشنق ، ولو رفع ابنٌ يده عـلى والده ، فـإنه يُحكم عليـه بأن يُمـزَّق لحم جسـده بكماشـة محمّاة في النـار . والعلاقـات بين الـزوج والزوجـة لهـا تقديرها واحترامها شأنها شأن غيرها من العلاقات الأسريـة ، إذْ تقدّر تقـديراً عالياً فـلا يمكن أن نعثر عـلى خيانـة زوجية إلّا نـادراً جداً بسبب العـزلة المضـروبة على النساء . وإذا ضُبطت الخيانة عوقب مرتكبوهـا بشدة . وهنـاك عقوبـات مماثلة تنتظر الرجل الصيني الذي يُبدي مـودة أكثر لاحـدى زوجاتـه أكثر ممـا يبدي للزوجة الأولى التي هي ربة بيته لو أن الأخيرة اشتكت واتهمته بذلك . وكـل مـوظف في الصـين « مـانـدرين » يستـطيـع أن يقـوم بعمليـة الضـرب بالخيزران . وحتى أصحـاب المناصب الكبيـرة والرفيعـة من أمثال : الـوزراء ونواب الامبراطـور ، بل وكثيـرون من المقربـين لدى الملك نفسـه ـ يُعاقبـون بالطريقة نفسها . والغريب أن صداقة الامبراطور لا تُسحب منهم بسبب هذا التـأديب ، وهم أنفسهم لا يبدون أي تـأثـير لهـذه المعـاملة عـلى الاطـلاق . وعندما قاد الأمراء وحاشيتهم، في الماضي ، آخر بعثة دبلوماسية انجليـزية في

الصين من القصر الامبراطوري كان وزير المراسيم يفسح نفسه الطريق بين الأمراء والنبلاء بالكرباج بلا أدنى كياسة أو تهذيب .

أمّا فيما يتعلق بالاتهامات الجائرة أو بالمسؤولية فإن الصينيين لا يفرقون بين تعمد الفعل ، وبين ارتكاب أفعال عابرة لا لوم عليها ، فالصدفة تلام لدى الصينيين كالتعمد سواء بسواء . والموت هو عقوبة القتل الخطأ ، ولقد أدّى اغفال التفرقة بين أحداث المصادفة والأحداث المتعمدة إلى كثير من النزاع بين الانجليز والصينيين ، لأنه إذا هاجم الصينيون الانجليز عندما تكون هناك مثلاً باخرة انجليزية حربية اعتقدت أن هناك مَنْ يهاجمها فدافعت عن نفسها وأدّى ذلك إلى مقتل أحد الصينيين ـ فإن الصينيين قد اعتادوا أن يطالبوا باعدام الجندي الانجليزي الذي أطلق الرصاصة القاتلة . وكل مَنْ تكون له صلة بالجرائم بشكل من الأشكال ، وخاصة الجرائم الموجهة ضد الامبراطور ، فإنه يلقى حتفه مع المجرم الحقيقي . كما يُعذَّب جميع أفراد أسرته القريبين حتى الموت . أمّا مَنْ يطبع كتاباً ضد النظام ، وكذلك كل مَنْ يقرؤه ، فإنه يعرِّض نفسه لانتقام القانون كذلك . وإنه لمن الغريب ذلك الشكل الذي يأخذه الانتقام الشخصي في مثل هذه الأوضاع . ويمكن أن يُقال عن الصينيين أنهم حساسون ضد الاهانة إلى أقصى درجة وأنهم ذوي طبيعة انتقامية . ولكي يشبع الشخص المهان انتقامه فإنه لا يغامر بقتل غريمه وإلّا فإن عائلة القاتل سوف يُحكم عليها كلها بالاعدام ، ولذلك فإنه يلجأ إلى قتل نفسه لكي يدمر خصمه . ولقد رأت الحكومة أنه لا بدّ من تضييق فتحات الآبار في كثير من المدن حتى تضع حداً للانتحار غرقاً ، لأنه حين يرتكب أي شخص جريمة الانتحار فإن القوانين تقضي اجراء تحقيق دقيق عن أسباب الانتحار . ويُقبض على كل أعداء الشخص المنتحر ويعذبون . وإذا تمكنت الحكومة من اكتشاف الشخص الذي تسبب في الاهانة التي أدّت إلى فعل الانتحار فإنه يُحكَم عليه بالموت هو وعائلته . ومن ثمّ فإن الرجل الصيني في حالة الإهانة ؛ يفضل أن يقتل نفسه بدلاً من أن يقتل خصمه ما دام لا بدّ أن يموت في الحالتين لكنه في الحالة الأولى سوف ينال شرف الدفن ، وقد

يداعبه الأمل في أن تحصل أسرته على ممتلكات غريمه . وذلك هو الأمر المرعب فيما يتعلق بالتهم الجائرة أو الصحيحة ، أو بالمسؤولية أو عدم المسؤولية . إذ تتجاهل كل حرية ذاتية وكل حضور أخلاقي عند الفعل . وفي القوانين الموسوية حيث لم تتضح كذلك التفرقة الدقيقة بين الألم ..Dolus والذنب ..Culpa والسبب ..Casus ، فإنه كان يوجد مع ذلك ملتجأ آمن ..Asylum[٢٠] ، يلجأ إليه مَنْ قتل عن غير قصد . ولا يوجد في الصين تفرقة في قانون العقوبات بين الطبقات الدنيا والطبقات العليا ، فلقد وشي بأحد القادة الكبار في الامبراطورية، وكان مرموقاً للغاية ، لدى الامبراطور واتهم في موضوع معين فكانت عقوبته أنْ أُسنِدت إليه وظيفة مراقبة الأشخاص الذين لا يقومون بتنظيف الشوارع من الثلوج .

وعلينا أن نشير أيضاً، فيما يتعلق بالعلاقات القانونية في الصين إلى أن هناك ثغرات في حقوق الملكية داخل نظام الرق الذي يرتبط هناك بالملكية . ولم تعتبر الأرض الصينية التي تمثل الملكية الرئيسية في الصين ، ملكاً للدولة إلّا في عهود متأخرة . ومنذ ذلك الوقت تقرر أن يخصص (بقوة القانون) تُسع عائد العقارات والمحاصيل للامبراطور . وفي فترات أخرى لاحقة ظهرت القنانة (عبيد الأرض)[٢١] ، ويُعزى التشريع الذي نظمها للامبراطور « تشي - هونج - تي » ..Shi - Hoang - Ti الذي بنى سور الصين العظيم في عام ٢١٣ قبل الميلاد ، والذي أحرق جميع الكتب التي تسجل الحقوق الصينية القديمة ، والذي بسط سلطانه على كثير من المقاطعات الصينية المستقلة ، والبلاد التي غزاها بالحرب تحولت إلى ممتلكات خاصة كما تحول سكانها إلى عبيد ، ومع ذلك فإن التفرقة بين الحرية والعبودية في الصين

(٢٠) كانت هناك أماكن مقدسة في العصور الغابرة يلجأ إليها المدينون والمجرمون خوفاً من العقاب ، وكانت تشبه أماكن العبادة في أنه لا يجوز انتهاك حرمتها (المترجم) .

(٢١) تختلف القنانة أو عبودية الأرض عن نظام الرقيق في أن القن مِلكٌ للأرض لا للسيد ، وتنتقل ملكيته إلى أي سيد تؤول إليه ملكية تلك الأرض (المترجم) .

ليست كبيرة ما دام الجميع متساوين أمام الامبراطور ـ أعني أن الجميع متشابهون في المهانة . وبما أن الكرامة لا وجود لها بينهم ، وبما أنه ليس ثمة شخص له حقوق فردية يتميّز بها عن الآخرين فإن الشعور بالاذلال والمهانة هو الشعور السائد ، وما أسهل أن يتحول إلى شعور بالضعة والانحطاط ، وترتبط اللاأخلاقية الكبرى للصين بهذا الشعور الأخير : فالصينيون مشهورون بالخداع حيثما استطاعوا ، فالصديق يخدع صديقه ويغشه دون أن يستاء أحد أو يمتعض من محاولة الغش التي يقوم بها الآخرون إذا لم تؤدِّ الخدعة غرضها أو وصلت إلى علم الشخص المراد خداعه . وتتم ألوان النصب عندهم بمهارة ودهاء حتى أنه يتحتم على الأوروبيين أن يحترسوا جداً في تعاملهم معهم . ويظهر احساسهم بالضعة الأخلاقية كذلك في تلك الحقيقة المعروفة هي انتشار ديانة « فو ..Fo» انتشاراً واسع المدى وهي ديانة تنظر إلى العدم الخالص على أنه الوجود الأعلى وعلى أنه المطلق : أعني أنه الله ، وتنظر إلى احتقار الفردية (والوجود الشخصي) على أنه أعلى ألوان الكمال .

لقد وصلنا الآن إلى دراسة الجانب الديني في الدولة الصينية . والسمو الديني للانسان لذاته في الوضع الأبوي البطرياركي هو أخلاقيات بسيطة وعمل مستقيم. والمطلق نفسه يكون تارة هو القاعدة المجردة البسيطة لهذا العمل المستقيم ، أي للعدالة الأبدية ، وتارة أخرى يكون هو قوة هذه العدالة . وباستثناء هذه الجوانب البسيطة فإننا نجد هناك تجاهلاً كاملاً لجميع علاقات العالم الطبيعي بالانسان ولجميع مطالب الوجدان الذاتي ـ والصينيون في نظامهم الأبوي الاستبدادي لا يحتاجون إلى مثل تلك الرابطة أو التوسّط مع الموجود الأسمى ، لأن التربية وقوانين الأخلاق والآداب العامة ، وأوامر الامبراطور وحكومته يجسِّدون كل هذه الرابطة ، وهذا التوسّط ، (بمقدار ما يشعرون بالحاجة إليهما) : فالامبراطور بوصفه الرئيس الأعلى للدولة فإنه أيضاً الرئيس الأعلى لدين الدولة ، وبالتالي فإن الدين في الصين هو

بالضرورة دين الدولة . وعلينا أن نلاحظ التفرقة بينه وبين اللامية Lamaism[٢٢]، ما دامت الأخيرة لا تتطور إلى دولة وإنما تتضمن الدين كوعي روحي حر نزيه . ولهذا فإن الديانة الصينيـة لا يمكن أن تكون هي ما نطلق عليه نحن اسم الدين ، لأن الدين عندنا هو العمق الداخلي للروح في ذاتها بأن تتصور الروح نفسها في ذاتها ، أي في أعمق أعماق جوهرها . وينسحب الانسان في هذه المجالات ، إذنْ ، من علاقته بالدولة أيضاً ، ويلجأ إلى عمقه الداخلي ويكون في هذه الحالة قادراً على انتزاع نفسه من سيطرة الحكومة الدنيوية . لكن الدين في الصين لا يرتفع إلى هذه الدرجة لأن الايمان الحقيقي لا يكون ممكناً إلّا حينما يكون (وجود) الأفراد في ذاتهم أنفسهم ولذاتهم . (أعني حين يكون في استطاعتهم أن يوجدوا لأنفسهم) مستقلين عن كل سلطة قهرية خارجية . وليس للفرد في الصين أي جانب من جوانب هذا الاستقلال ، ولهذا فهو في الدين لا استقـلال له . إنه في الدين (كما هي الحال في غيره من المسائل) يعتمد على موجودات الطبيعة (أو الكائنات الطبيعية) ، وأسمى هذه الكائنات هي السماء (المادية) ، التي يعتمد عليها الحصاد ، وفصول السنة ووفرة المحاصيل أو جدبها . والامبراطور بوصفه تتويجاً للكل وتجسيداً للسلطة هو وحده الذي يقترب من السماء ، لكن الأفراد بما هم كذلك ، لا يستمتعون بهذه الميزة : فهو الذي يقدم القرابين في الأعياد الأربعة .. ويقدم على رأس حاشيته الشكر على وفرة الحصاد ، ويتضرع

---

(٢٢) الوجود للذات أو الوجود من أجل الذات ..Sein Für Sich عند هيجل هـو الوجـود المستقل وأوضح نموذج لهذا الوجود هو « الأنا » التي تـوجد من أجـل ذاتها فقط لا من أجل أي شيء آخر : هذا الحجر ليس من أجـل ذاته إنـه من أجلي أنـا فقط أعني أنه يوجد من أجل الفكر ـ وهو بالتـالي من أجل الآخـر أو هو وسيلة وليس غـاية في ذاتـه بلغة كانط ومن ثم فهو متناه . أمّا الذات أو الأنا أو الفكر فهي لا متناهية لأنها وجـود للذات ، ويرى هيجل أن الروح والله هي أمثلة لهذا الوجود اللامتناهي الحقيقي ومن ثم فهي وجود للذات.راجع كتابه المنطق الكبير جـ ١ ص ١٧١ وما بعدها من الترجمة الانجليـزيـة : Science of Logic Vol. Ip. 171 Eng. Trans. by H. Johns and Struthers, Allen and Unwin, London 1951. (المترجم) .

التماساً للبركة عند بذر البذور . وهذه « السماء » يمكن أن تؤخذ بمعنى كلمة « الله » عندنا أي بوصفها رب الطبيعة . (ونحن نقول مثلاً لترعانا السماء !) . لكن مثل هذه العلاقة تجاوز مجال التفكير الصيني ، لأن الوعي الذاتي الواحد هنا بوصفه وعياً جوهرياً وأعني به الامبراطور هو نفسه القوة أو السلطة . ومن ثمّ فليس للسماء أي معنى أعلى من الطبيعة . صحيح أن الجزويت (اليسوعيين) تنازلوا ووافقوا على الأفكار الصينية حتى أنهم أطلقوا على الإله المسيحي اسم « السماء » . ولهذا السبب وجهت إليهم الأنظمة المسيحية الأخرى تُهماً وشكوى للبابا . ولهذا أرسل البابا إلى الصين أحد الكرادلة الذي مات هناك ، ثم أرسل لهم بعد ذلك أسقفاً يقنعهم بأنه ينبغي عليهم أن يقولوا : « رب السماء » بدلاً من « السماء » . وقد كان يُفترض أن العلاقة مع « تيان » ..Tien (السماء) هي على النحو التالي : إن السلوك الطيب للأفراد وللامبراطور يجلب البركة ، أمّا آثامهم فقد كانت تجلب العوز والفاقة وجميع ألوان الشرور. وتتضمن الديانة الصينية ذلك العنصر البدائي وأعني به عنصر السحر ، من حيث أن السلوك البشري يحدد بطريقة مطلقة مجرى الأحداث ، فإذا ما سلك الإمبراطور سلوكاً طيباً ، فإن الرخاء لا بدّ أن يعمَّ ، أعني أن السماء لا بدّ أن تقضي بالرخاء . وجانب آخر عن هذه الديانة هو أن الجانب العام للعلاقة مع السماء مثلما هو مرتبط بشخص الامبراطور فإنه يملك في يديه أيضاً العلاقة الخاصة تماماً . وهذه تتمثل في رفاهية الأفراد الخاصة ورفاهية المقاطعات . فلكل مقاطعة من هذه المقاطعات روح حارس ..Chen خاص بها يخضع لأوامر الامبراطور الذي لا يعبد سوى القوة العامة للسماء في حين تخضع لامرته الأرواح الحارسة المتعددة في العالم الطبيعي وتطيع قوانينه . وهكذا يصبح الامبراطور أيضاً هو المشرِّع الخاص للسماء فضلاً عن أنه المشرِّع الخاص للأرض . ولكل روح من الأرواح الحارسة التي يعبد كل منها بطريقة خاصة مجموعة من الأشكال المنحوتة وهي أوثان قبيحة الشكل مقززة لم تبلغ مرتبة الفن لأنه لا يتمثل فيها شيء روحي على الاطلاق . وهي لهذا السبب ليست إلاّ أصناماً مفزعة مخيفة سلبية

فحسب . وهي تحرس العناصر الفردية والموجودات الطبيعية كما كانت تفعل آلهة الأنهار، وعرائس الماء، وحوريات الغابات عند الاغريق، فلكل عنصر من العناصر الخمسة روح حارس يتميز بلون خاص . وتعتمد سيادة الأسرة الحاكمة التي تتربع على عرش الصين على روح حارس هي أيضاً ، وهذا الروح أصفر اللون. وقل مثل ذلك في كل مقاطعة، وكل مدينة وكل جبل، وكل نهر ، فلكل منها حارس خاص (أو جني) وهذه الأرواح كلها تخضع للامبراطور ، ويسجل في الدليل السنوي للامبراطورية : الموظفون والأرواح الحارسة (أو الجنات) الذين يوكل إليهم هذا الغدير أو ذلك النهر . . الخ . وإذا ما وقعت كارثة في منطقة من المناطق فإن الجني يُعزل شأنه شأن أي موظف (أو مندرين) آخر . ولهذه الأرواح (أو الجنيات) معابد لا حصر لها (إذْ يوجد في بكين وحدها ١٠,٠٠٠ معبد) ويلحق بها عدد كبير من الكهنة والأديرة . ويعيش هؤلاء الرهبان البوذيون Bonzes بغير زواج ، ويهرع إليهم الصينيون طلباً للنصيحة في جميع الأحوال التي تحدث فيها كوارث أو تلمُّ بهم نوازل أو تقع فيها أحداث سيئة . أمّا في الأحوال العادية الأخرى فإن الصينيين لا يكنون لهم ، أو لمعابدهم ، احتراماً كبيراً ، ولقد كان « لورد ماكرتني .. Lord Macartney يتخذ من أحد المعابد مقراً لسفارته ، كما تُستخدم أمثال هذه المنشآت كفنادق (أو حانات) أيضاً ، ولقد قام أحد الأباطرة بتحويل عدة آلاف من هذه الأديرة إلى أغراض علمانية ، وأرغم الرهبان على التحول إلى الحياة المدنية ، وفرض الضرائب على عقارات الأوقاف (التي كانت تابعة لهذه الأديرة) . ولقد كان لدى رهبان البوذية القدرة على التنبؤ ، وعلى طرد الأرواح الشريرة ، فالصينيون كانوا يؤمنون بخرافات لا حصر لها ، ولقد نشأ ذلك من افتقارهم إلى الاستقلال الذاتي الذي يفترض مقدماً العكس المضاد تماماً لحرية الروح . ففي كل عمل يشرعون في القيام به مثل : تحديد مكان بناء منزل أو مقبرة . . الخ تراهم يلتمسون مشورة العرّافين[٢٣]. وتوجد في كتاب « ي كنج .. Y - King »

(٢٣) خلع الصينيون القدماء على السحر والعرافة قداسة وتبجيلاً واحتراماً لا حدود لها =

خطوط معينة تحدد أشكالاً ومقولات أساسية ، ولذلك أطلق على هذا الكتاب اسم « كتاب الأقدار » فتجمع هذه الخطوط يعطي معنى معيناً ، كما أن نبوءات كثيرة قد تمّ استنباطها من هذا المرجع الأساسي . ويمكن أيضاً أن تُلقى مجموعة من العصي الصغيرة في الهواء ثم يُستنتج القدر (أو الحظ) المراد معرفته من طريقة سقوطها على الأرض . ونحن نجد الصينيين يستنبطون ما نسميه نحن بالصدفة أو ما ننظر إليه على أنه ارتباط طبيعي يستنبطونه هم أو يصلون إله بفنون السحر ، وحتى في هذه الحالات الجزئية الخاصة يتجلّى أيضاً افتقارهم للروح .

وفضلاً عن ذلك فإن هذا النقص للذاتية الأصيلة يرتبط بالشكل الذي يتخذه العلم الصيني . وعندما نتحدث عن العلوم الصينية فإننا نصادف سمعة كبيرة فيما يتعلق بتكوينها وقدمها . ولو أننا درسنا الموضوع عن كثب أكثر لرأينا أن العلوم تتمتع بقدر كبير من الاحترام وأنها تتمتع بتقدير النّاس ، وتشجيع عام من جانب الحكومة . ويتربع الامبراطور نفسه على قمة الآداب . وهنا مجلس خاص قائم مهمته تحرير أوامر الامبراطور مع مراعاة كتابتها بأفضل أسلوب ممكن . وهذا التنقيح يدل على أن هذه الكتابة أمر هام من أمور الدولة . وعلى « الماندرين » (كبار موظفي الدولة) في رسائلهم إلى عامة الناس مراعاة نفس هذا الكمال في الأسلوب لأن الشكل ينبغي أن يتفق مع امتياز المضمون . وتعتبر أكاديمية العلوم واحدة من أعلى الهيئات الحكومية في الدولة ، إذ يمتحن الامبراطور بنفسه أعضاءها ، وهم يعيشون في القصر الامبراطوري سَواء أكانوا موظفين في السكرتارية أو مؤرخين للامبراطورية ، أو علماء في الطبيعة أو في الجغرافيا ، وإذا ما طلب

= واعتبروها الواسطة بين عامة النّاس والآلهة والأرواح : فهم الذين يحددون أماكن بناء المساكن ، وينسقون حجراتها ، ويعينون مواضع تقديم القرابين ، ويرتبون أسبقية الأرواح وفقاً لمكانتها . . الخ . ثم أخذت العقلية الصينية تتحرر تدريجياً من أسار العرافة وقيود السحر والأرواح أو قلْ إنهم تحوّلوا الآن إلى الطرف المضاد تماماً فرفضوا الإيمان بالغيبيات جميعاً (المترجم) .

وضع قانون جديد بناء على اقتراح ما فعلى الأكاديمية أن تكتب تقريراً عنه ، ولا بدّ من كتابة تاريخ التشريعات القائمة والقوانين القديمة كمقدمة وتمهيد لهذا القانون الجديد . وإذا ما كان الأمر يتعلّق ببلاد أجنبية أصبح من المطلوب وصف هذه البلاد . ويكتب الامبراطور بنفسه تصدير هذه المؤلفات التي تُكتب على هذا النحو . ويمتاز الامبراطور « كين لونج » ..Kien - Long من بين الأباطرة المحدثين بما حققه من منجزات علمية . فقد كتب هو نفسه الشيء الكثير ، لكنه اشتهر بصفة خاصة عندما نشر الأعمال الرئيسية التي أنتجتها الصين . ولقد كان أحد أمراء الامبراطورية على رأس اللجنة المكلفة بتصحيح الأخطاء المطبعية وبعد أن يمر هذا العمل على جميع الأعضاء يعود مرة أخرى إلى الامبراطور الذي يعاقب بقسوة على ما يجده من أخطاء ارتكبها الأعضاء .

وعلى الرغم من أن العلوم تبدو على هذا النحو حيث تلقى من ناحية التشجيع والتقدير العاليين ، فإنه كان ينقصها من ناحية أخرى ، الأساس الحر للذاتية ، والاهتمام العلمي الحقيقي الذي يجعل منها عملاً نظرياً ، فلا مجال هنا للمملكة الروحية الفكرية الحرة ، وما يمكن أن نطلق عليه وصف علمي هو هنا ذو طبيعة تجريبية فحسب يخدم أساساً منفعة الدولة : حاجاتها ومتطلباتها ، وكذلك حاجات ومتطلبات الأفراد وطبيعة لغتهم المكتوبة هي منذ البداية عقبة كبرى أمام تقدم العلوم وتطورها ، أو أن الأمر على العكس من ذلك ، وهكذا لم يكن لدى الصينيين أداة للتعبير عن الفكر أو لنقله إلى الآخرين لأنه لا يوجد عندهم اهتمام علمي حقيقي . لقد كان لدى الصينيين كما هو معروف ، إلى جانب اللغة التي يتحدثون بها لغة أخرى مكتوبة ، لا تعبر كما هي الحال عندنا ، عن أصوات فردية ، ولا تمثل الكلمات المنطوقة للعين ، ولكنها تمثل الأفكار نفسها بالعلامات . وقد يبدو ذلك في البداية ميزة كبرى ، فقد نالت اعجاب كثير من عظماء المفكرين من أمثال « ليبنتز » ..Leibniz وآخرين غيره . لكن الأمر على العكس من ذلك تماماً : ذلك لأننا لو تأملنا أولاً أثر مثل هذا اللون من الكتابة على اللغة المنطوقة لوجدنا أن ذلك عند الصينيين ناقص تماماً بسبب هذا

الانفصال نفسه. إن لغتنا المنطوقة تتميز بوجود علامات خاصة لكل صوت على حدة ، هذه العلامات التي نتعلم نطقها عن طريق القراءة أو نعبر عنها تعبيراً متميزاً ، أمّا الرجل الصيني الذي حُرِم من مثل هذه الوسيلة لتشكيل اللغة المنطوقة ، فإنه لا يعمل تعديلات للأصوات في لغته لكي يميّز الأصوات الساكنة التي تمثلها الحروف عند مقاطع الألفاظ . وتتألف لغتهم المنطوقة من عدد ضئيل من الكلمات ذات المقطع الواحد التي تستخدم بأكثر من معنى . والطريقة الوحيدة لبيان الفروق في المعنى تكون تارة عن طريق السياق وتارة عن طريق نبرة الصوت ، والنطق بسرعة أو ببطء ، أو بصوت مرتفع أو منخفض . ولقد أصبحت أذن الرجل الصيني حساسة جداً لمثل هذه التمييزات . ولهذا فقد وجدت أن كلمة « بو Po » لها أحد عشر معنى مختلفاً تبعاً لنغمة الصوت التي تُنطَق به، فهي تدل على : « الزجاج » و« يغلي » و« يذرّي القمح » و« يشق أو يشطر » و« يروي أو يسقي » و« يجهّز أو يُعد » و« امرأة عجوز » و« عبد » و« رجل كريم » و« شخص ذكي » و« قليل » . أمّا بالنسبة للغتهم المكتوبة فسوف أكتفي بابراز العقبات التي جعلتها تعوق تقدم العلوم، إن لغتنا المكتوبة بسيطة جداً في تعلمها ، لأننا نحلل لغتنا المنطوقة إلى حوالي ٢٥ صوتاً (ويصبح الكلام بهذا التحليل محدداً وعدد الأصوات الممكنة محصوراً كما تستبعد الأصوات المتوسطة الغامضة). وما علينا إلّا أن ندرس ونتعلم هذه العلامات وتراكيبها . أمّا الرجل الصيني فإن لديه ، بدلاً من الخمس والعشرين علامة من هذا النوع ، آلافاً كثيرة ينبغي أن يتعلمها . فالعدد الضروري المطلوب لاستخدام اللغة هو ٩٣٥٣ أو حتى ١٠,٥١٦ لو أننا أضفنا تلك العلامات التي دخلت اللغة حديثاً . أمّا عدد العلامات أو الرموز اللازمة ، بصفة عامة ، للتصورات والربط بينها على نحو ما هو معروض في الكتب فهي تبلغ من ٨٠ إلى ٩٠ ألف علامة . أمّا بالنسبة للعلوم ذاتها فإن التاريخ عند الصينيين لا يشمل إلّا وقائع محددة تحديداً تاماً بدون حكم عليها أو استنتاج منها . وقلْ مثل ذلك في فقه التشريع عندهم فهو يقدم فحسب قوانين العبادة، وكذلك يقدم « علم الأخلاق » عندهم واجبات محددة دون أن يثير

مشكلة التأسيس الداخلي لهذه الواجبات . وللصينيين ، على أية حال ، إلى جانب العلوم الأخرى فلسفة أيضاً تضرب مبادؤ ها الأساسية في عصور موغلة في القدم مثل كتاب : « ي كنج ..Y - King » « كتاب الأقدار » الذي يتناول البداية والنهاية . (بداية الأشياء ونهايتها) . إذْ توجد في هذا الكتاب أفكار مجردة تماماً عن الوحدة والثنائية ، ولذا فإن فلسفة الصينيين تبدو وكأنها تنبع من نفس المبادىء الأساسية التي تنبع منها فلسفة « فيثاغورس »(*) . والمبدأ الأساسي المعروف عندهم هو « العقل » أو « تاو ـ Tao »(٢٤) . تلك الماهية التي تكمن خلف كل شيء وتؤثر في كل شيء. والتعرّف على أشكالها يعتبر عند الصينيين العلم الأقصى . لكن ذلك ليست له علاقة بالأنظمة التي تخص الدولة أكثر من غيرها . ومؤلفات «لاو تسي ..Lao - Tse »(٢٥) .

(*) أنظر كتاب هيجل « محاضرات في تاريخ الفلسفة » الجزء الأول ص ١٣٨ وما بعدها من الأصل الألماني الطبعة الأولى (الناشر) .

(٢٤) كلمة تاو Tao الصينية كلمة عسيرة التعريب تشبه لفظ اللوغوس Logos اليوناني ؛ فهي تعني في الأصل : « الطريق » أو « النهج » أو « السبيل » أو « الدرب » وكان يقصد بها في البداية : « أسلوب الحياة » أو « الطريق الرئيسي » الذي ينبغي على الانسان أن يسلكه ليبلغ السعادة الفردية ، وليحقق سعادة البشر أجمعين في نفس الوقت ، ويستخدم لفظ « تاو » هنا بمعنى أخلاقي خالص . ولقد ظل هذا الاستخدام الأخلاقي قائماً في الثقافة الصينية القديمة حتى جاء الفيلسوف «لاو تسي» في القرن الخامس قبل الميلاد فكان أول مَنْ وسّع نطاق استخدام هذا اللفظ عندما استخدمه استخداماً ميتافيزيقياً خالصاً ، وذهب إلى أن الكون قد صدر عن مبدأ شامل يطلق عليه إسم « التاو » وأصبح هذا اللفظ يرادف لفظ « الكلمة » في الأديان ولفظ اللوغوس Logos في الفلسفة . وهو يعرِّفه بقوله « التاو مبدأ لا صورة له » ومع ذلك فهو كامل . وجد قبل أن توجد السماوات والأرض ، لا صوت له ولا جوهر . ولكنه موجود لا يتغير ، يتغلغل في كل شيء ، وهو مصدر جميع الأشياء التي يحتوي عليها العالم ، لا نعرف إسمه لكننا اصطلحنا على تسميته بكلمة « تاو » وهو لا يدرك بالحواس ، ويمتنع عن كل قياس » (المترجم) .

(٢٥) لاو تسي ..Lao-Tse ٦٠٤ ـ ٥٣١ قبل الميلاد (والاسم يعني حرفياً « المعلم العجوز ») أحد عظماء الفلاسفة في الصين القديمة ، عاش في حكم أسرة تشو ..Chou التي عهدت إليه بكتابة وثائقها التاريخية . وقد ولد في مقاطعة هونان وشغل فترة منصب أمين مكتبة الوثائق التاريخية ، المشرف على تدوين تاريخ الصين ، فأتاح =

مشهورة خصوصاً كتابه : « تاو ـ تي ـ كنج » (..Tao - Te - King)[٢٦] ولقد زار كونفوشيوس هذا الفيلسوف في القرن السادس قبل الميلاد ليعبّر له عن احترامه[٢٧] . وعلى الرغم من أنه كان يسمح لأي مواطن صيني بدراسة هذه المؤلفات الفلسفية فإن هناك فضلاً عن ذلك فرقة خاصة تطلق على نفسها اسم « تاو ـ تسي » ..Tao - Tse « أو عبّاد العقل » (تجعل من هذه الدراسة شغلها الشاغل) . ويعزل الأعضاء الذين تتألف منهم هذه الجماعة أنفسهم عن الحياة المدنية . وهناك الكثير من العناصر الحماسية والصوفية التي أدمجت

= له هذا المنصب معرفة وثيقة بالأحداث المختلفة وتطور أحوال البلاد . يعتبر مؤسس التاوية أو الكاوية Taoism وهي ديانة ومذهب فلسفي في وقت واحد . وهي كفلسفة تختلف اختلافاً كبيراً عن فلسفة كونفوشيوس المعاصرة لها من حيث أنها تميل أكثر من الأخيرة إلى مخاطبة العواطف البشرية . وقد أصبحت التاوية مذهباً دينياً مكتملاً في القرن الخامس له آلهة كثيرة . ولقد حاول أنصاره فيما بعد العناية بالكيمياء والبحث عن إكسير الحياة والجمع بين دراسة الطبيعة والحياة البشرية (المترجم) .

(٢٦) معناها الحرفي « تعاليم التاو » ـ وهو كتاب صغير . ولهذا يطلق عليه أحياناً إسم « الكتاب ذي الخمسة آلاف كلمة » لصغر حجمه . لكن تأثيره في الفكر الصيني كان هائلاً . والكتاب في جانب منه يعرض لفكرة « التاو » التي هي مصدر الكائنات جميعاً . ثمّ في جانب آخر منه يصف الانسان الكامل الذي يُطلَق عليه إسم الحكيم لأنه على بصيرة بمبدأ التاو الخفي ولأنه يتولى ترتيب حياته وتنظيم أفعاله وفقاً لأحكامه . وعلى مَنْ يتطلع لأدراك مبدأ التاو أن يتواضع وأن يلتزم الهدوء والسكينة ويتخلص من الرغبة والهوى ويتحرر من الكراهية والبغضاء ويعود إلى حالة البراءة والبساطة والانسجام مع الطبيعة (المترجم) .

(٢٧) الواقع أن زيارة كنفوشيوس لـ « لاو تسي » لم تكن لهذا الغرض وحده وإنما جاءت رغبة في الإطلاع على ما تحت يد الأخير من مراجع تدور حول الفضيلة والشعائر والطقوس الدينية التي أخذ بها الناس قديماً ، بوصفه أمين مكتبة الوثائق التاريخية . لكن لاو تسي رفض أن يطلعه على شيء منها ونصحه بالابتعاد عن الطموح والإدعاء والعجرفة وممارسة السلوك الفاضل فهو أجدى من الإطلاع على كلمات الأقدمين . ولقد كان إنطباع كنفوشيوس عن لاو تسي مزيجاً من الإعجاب والخوف فقد وصفه بعد أن غادر مجلسه بأنه : « تنّين يتوارى خلف السحاب ويبعد عن إدراكي ! » (المترجم) .

مع آرائهم ، فهم يعتقدون ، مثلاً ، أن ذلك الذي يصبح على معرفة (مباشرة) بالعقل ، فإنه يمتلك وسيلة (ذات قدرة) كلية يمكن أن يُنظر إليها على أنها قادرة بصفة مطلقة وأنها تمنح قوة خارقة للطبيعة . وهكذا فإن الحائز عليها يستطيع بواسطتها أن يرتفع إلى السماء دون أن يخضع للموت على الاطلاق (وهو يشبه تقريباً اكسير الحياة[٢٨] الذي كان الحديث عنه شائعاً بيننا في فترة من الفترات .) ولقد أصبحنا أكثر إلفاً بمؤلفات كونفوشيوس الذي تدين له الصين بتحرير كتب كنجز Kings وكثير من الكتب الأصيلة في الأخلاق التي تشكل أساس العادات والسلوك عند الصينيين. وتوجد في الكتاب الرئيسي لكونفوشيوس الذي ترجم إلى اللغة الانجليزية مجموعة من الحكم الأخلاقية السديدة . لكنا نجد كذلك استرسالاً وتأويلاً ، والتواء في الفكر مما يمنعه من الارتفاع فوق المستوى العادي . أمّا بالنسبة للعلوم الأخرى فلا ينظر إليها في ذاتها وإنما على أنها أفرع من المعرفة تستهدف الوصول إلى غايات عملية . ولهذا كان الصينيون متخلفون جداً في الرياضيات ، والفيزياء ، وعلم الفلك ، رغم شهرتهم السابقة في هذه العلوم . فقد عرفوا أشياء كثيرة في وقت لم يكن الأوروبيون فيه قد اكتشفوا هذه الأشياء ، لكنهم لم يفهموا كيف يطبقون هذه المعرفة ، فاكتشفوا مثلاً حجر المغناطيس وفن الطباعة . لكنهم لم يتقدموا خطوة واحدة في سبيل استغلال هذه المكتشفات . فهم مثلاً فيما يتعلق بفن الطباعة كانوا ينقشون الحروف في لوحات خشبية ثم يطبعونها لكنهم لم يعرفوا شيئاً على الاطلاق عن

(٢٨) إكسير الحياة أو حجر الفلاسفة عنصر كيمائي كان يظن في الكيمياء القديمة Alchemy أنه يحيل المعادن الخسيسة إلى ذهب ومعادن نفيسة ، كما يعيد الشباب إلى الإنسان ويطيل حياته إلى ما لا نهاية . وقد انتقلت هذه الفكرة التي يُقال إنها نشأت أساساً في مصر القديمة - من مدرسة الاسكندرية إلى العرب ابّان القرن الثامن ، وبقيت معهم حتى القرن الثاني عشر حيث انتقلت إلى أوروبا عبر أسبانيا وشغلت طوال العصر الوسيط تفكير كثير من الباحثين لا سيما روجر بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٤) وألبرت الكبير (١١٩٣ - ١٢٨٠) - (المترجم) .

حروف المطبعة التي يمكن تغييرها . ولقد زعموا كذلك أنهم اخترعوا البارود قبل الأوروبيين ، غير أن اليسوعيين كانوا أول مَنْ علمهم صنع المدافع . أمّا بالنسبة للرياضيات فقد عرفوا جيداً كيفية العد أو الحساب لكن المرحلة العليا من هذا العلم ظلت مجهولة عندهم . ولقد عُرف الصينيون كذلك ، لمدة طويلة ، بعظمتهم في علم الفلك . ولقد درس « لابلاس .. Laplace »(٢٩) معلوماتهم في هذا العلم واكتشف أنهم وقفوا على بعض المعلومات والملاحظات القديمة عن كسوف الشمس وخسوف القمر ، لكن ذلك لم يكن بالتأكيد ، يشكل علماً بل الملاحظات المشار إليها كانت فضلاً عن ذلك غير محددة لدرجة أنه لم يكن من الممكن وضعها في مقولة المعرفة . ولقد كان هناك في كتاب « تشو ـ كنج .. Shu - King » مثلاً كسوفان للشمس مذكوران في فترة زمنية مقدارها ١٥٠٠ سنة . وأفضل شاهد على وضع علم الفلك عند الصينيين هو واقعة أن الأوروبيين كانوا يقومون بعمل التقويم الصيني منذ مئات عديدة من السنين في العصور الأولى عندما كان علماء الفلك الصينيون يقومون بعمل التقويم ذكرت بيانات خاطئة عن كسوف الشمس وخسوف القمر مما استتبع اعدام المؤلفين . ولقد استعمل وضع المرقب (التلسكوب) الذي تسلّمه الصينيون هدية من الأوروبيين للزينة ولم يكن لديهم فكرة عن كيفية الاستفادة منه . ولقد درس الصينيون الطب أيضاً لكن من الناحية التجريبية وحدها وارتبطت أعظم الخرافات بممارسته . وللصين ، كخاصية عامة ، مهارة عظيمة في التقليد والمحاكاة ، وهي مهارة لا يمارسونها في الحياة اليومية فحسب بل أيضاً في الفن . ولم ينجحوا بعد في تمثل الجميل بوصفه جميلاً إذْ ينقص رسوماتهم الظل والمنظور . وعلى الرغم من أن المصوّر (الرسّام) الصيني ينسخ الصور الأوروبية طبق الأصل (على نحو ما يفعل

---

(٢٩) بيير سيمون لابلاس (١٧٤٩ ـ ١٨٢٧) عالم فلك ورياضيات فرنسي كان أستاذاً للرياضيات بالمدرسة الحربية بباريس ، له الكثير من الأبحاث في تغير حركات القمر والاختلاف المركزي لمسار الأرض ، وسير المذنبات وله أيضاً نظرية السديم ، ومعاملات لابلاس في تحليل المسائل الطبيعية . (المترجم) .

الصينيون في كل شيء آخر) نسخاً سلبياً ، وعلى الرغم من أنه يلاحظ بدقة حراشيف السمك المتعددة وعدد الثنايا في أوراق الشجر ، والأشكال المختلفة للأشجار وكيف تميل الأغصان فإن الجليل والمثل الأعلى ، والجميل لا تشكل الأرضية الذي يمارس فيه الفنان الصيني فنه ويبرز مهاراته . والصينيون ، من ناحية أخرى يستكبرون جداً أن يتعلّموا أي شيء من الأوروبيين ، رغم أنهم كثيراً ما يعترفون بتفوق هؤلاء الأوروبيين عليهم . فقد ابتنى تاجر من كانتون ..Canton(٣٠) ، سفينة أوروبية . لكن سرعان ما صدرت أوامر الحاكم بتدمير هذه السفينة في الحال فالأوروبيون يعاملون على أنهم شحاذون لأنهم اضطروا إلى مغادرة بلادهم يلتمسون أسباب الرزق من أي مكان آخر غير وطنهم .. وعلى العكس من ذلك فإن الأوروبيين أيضاً بسبب ذكائهم ، ليسوا قادرين على محاكاة مهارة الصينيين الصناعية ومهارتهم الطبيعية التامة فإن تجهيز هؤلاء للطلاء وصناعتهم للمعادن لا سيما فن سبكها بحيث تصبح رقيقة إلى أقصى درجة ، وصناعة الخزف الصيني عندهم ، وأشياء أخرى كثيرة قد بقيت حتى ذلك الحين فريدة لم يبلغها أحد غيرهم .

تلك هي شخصية الشعب الصيني في جوانبها المختلفة والسمة التي يتميز بها هي أنه كان بعيداً عن كل ما يتعلق بالروح ، أي عن الأخلاقيات الحرة ، الذاتية منها أو الموضوعية ، وعن الوجدان وعن الجانب الباطني للدين والعلم والفن الجديران حقاً بهذا الاسم . وإذا كان الامبراطور يتحدث إلى الشعب باستمرار بجلال وبرقة وعطف أبوي فإن الشعب ليس لديه عن نفسه إلّا أسوأ مشاعر الذاتية فهو يعتقد أنه لم يولد إلّا ليجرّ مركبة السلطة الامبراطورية . ويبدو لأفراد الشعب العبء الذي ينوء به كاهلهم وكأنه

(٣٠) مدينة تجارية كبرى في الصين القديمة ازدهرت قبل ميلاد المسيح بعدة قرون ، وهي عاصمة كوانج تونج ..Kwang - Tung » . وأول ميناء صيني يفتح للتجارة الأوروبية ، وهي تقع على نهر بيرل Pearl الذي يُسمى أيضاً بإسم نهر كانتون . وقد زار الرحّالة العرب هذه المدينة في القرن العاشر الميلادي (المترجم) .

قدرهم المحتوم . ولا يبدو لهم أمراً مزعجاً أن يبيعوا أنفسهم كعبيد وأن يأكلوا خبز العبودية المر . أمّا الانتحار ، كعملية انتقامية ، والتخلي عن الأطفال وتركهم في العراء فهي عادات مألوفة وأشياء تحدث يومياً وتدل على مبلغ ضآلة الاحترام الذي يكنونه لأنفسهم كأفراد وكبشر بصفة عامة . وعلى الرغم من أنه ليست هناك تفرقة بسبب المولد ، وفي استطاعة كل فرد أن يبلغ أعلى المراتب فإن هذه المساواة ذاتها لا تنهض دليلاً على انتصار القيمة الداخلية للانسان . لكنها دليل على الاحساس بالضعة : احساس الفرد بأنه لم يبلغ من النضج المرحلة التي تمكنه من إدراك الفروق .

« القسم الثاني »

« الهند »

الهند ، مثل الصين ، صورة من الصور Gestalt القديمة والحديثة على حد سواء . وقد ظلت ساكنة ثابتة واكتمل تكوينها في الداخل أعظم تكوين . ولقد كانت دائماً بلد الشوق والحنين[1] . ولا تزال تبدو أمامنا بوصفها مملكة العجائب عالماً ساحراً جذاباً . وعلى العكس من الدولة الصينية التي تمثل تماماً الفهم الأكثر واقعية في كل مؤسساته[*] ، نجد أن الهند تمثل بلد الخيال والعاطفة . ويمكن أن نحدد عامل التقدم من حيث المبدأ بصفة عامة على النحو التالي : ـ

المبدأ الأبوي البطرياركي يحكم في الصين شعباً من القاصرين الذين يقوم القانون المنظّم والاشراف الأخلاقي للامبراطور بالنسبة لهم مقام قرارهم الأخلاقي . ومن هنا فإن اهتمام الروح هو أن يتحول التحديد الموضوع خارجاً إلى تحديد داخلي ، وأن يتم جعل العالم الطبيعي والعالم الروحي ، عالماً داخلياً ينتمي إلى العقل ، وبذلك تتأسس بهذه العملية وحدة الذاتية والوجود (الإيجابي) بصفة عامة أو مثالية الوجود الفعلي . وهذه المثالية توجد

---

(١) في الترجمة الفرنسية « بلد الرغبة » (المترجم) .

(*) الفهم Verstand بمعنى الفهم المتقبل ، في مقابل العقل Vernunft بمعنى العقل الخلّاق . (الناشر) .

إذنْ ، في الهند ، لكنها لا توجد إلّا بوصفها مثالية الخيال بغير تصورات أو مفاهيم محددة ومتميـزة. حقاً إنها مثـالية تـأخذ من الـوجود الـواقعي البدايـة والمادة ، لكنها تحوّل كل شيء إلى خيال (محض) ، لأنه على الرغم من أن الخيـال يبدو مغـزولاً من تصورات أو مفـاهيم معينة، وتـظهر الفكـرة أحيانـاً كملازم عَرَضي ، فإن ذلك لا يحدث إلّا من خلال اتحاد عَرَضي . ولكن بما أن الفكرة المجردة والمطلقة ذاتها تدخل في هذه الأحلام كمادة لها ، فإننا يمكن أن نقول إن ما نراه ممثلاً هنا هو إله في غمرة أحلامه ، لأننا لسنا أمام أحلام ذات فردية واقعية لها شخصيتها المتميزة المحددة ، وتكون هذه الأحلام بمثابة مفتاح لهذه الشخصية فقط ، لكنا أمام أحلام الروح المطلق غير المحدودة ذاتها .

هناك جمال من نوع خاص في النساء اللاتي تكشف ملامح وجوههن عن بشرة صافية مصحوبة بلون وردي خفيف ومحبوب ، ليس كالتورد الذي يدل على مجرد الصحة والنشاط الحيوي ـ وإنما هو تورد للخدين أكثر حيوية وأشد صفاء ، تصنعه الروح من الداخل ـ وفيهن تبدو القسمات ، مع نظرة العين ، وموضع الفم ، تبدو رقيقة ناعمة وخالية من التوتر . ويرى المرء جمال النساء هذا ، هذا الجمال الذي يكاد يكون غير أرضي في تلك الأيام التي تعقب مباشرة انجابهن للطفل، عندما يضاف التخلص من عبء الحمل وآلام المخاض إلى متعة النفس التي ترحب بهبة الطفل المحبوب . وترى مسحة من الجمال في النساء مشابهة لتلك أثناء استغراقهن في حالة النوم السحرية الانتقالية ، وبذلك يصبحن في علاقة مع عالم أجمل . ولقد أضفى عظيم هو سكوريل ..Schoreel[٢] ، هذه المسحة من الجمال أيضاً على العذراء في حالة موتها ، حيث ترتفع روحها إلى المناطق العلوية السماوية ، ويضفي مرة

---

(٢) سكوريل (١٤٩٥ ـ ١٥٦٢) رسام ألماني درس في نورمبرج ، واهتم باللوحات الدينية . زار فلسطين ثم روما عـام ١٥٢١ ، وعاد ليرسم أشهر لـوحاته « العذراء والـطفل » و « الحج إلى الأراضي المقدسة » . . (المترجم) .

أخرى حيوية على ملامحها الميتة ، تتلقى قبلة وداع . ومثل هذا الجمال نجده أيضاً في أروع أشكاله في العالم الهندي : جمال الضعف أو الوهن العصبي الذي يذوب فيه كل اعوجاج وجمود ومقاومة بحيث لا يكون أمامنا سوى نفس حساسة ، ولكنها نفس يمكن أن ندرك فيها موت الروح الحر الذي يعتمد على ذاته . لأننا إذا ما دققنا لنظر في حسن هذه الحياة المزهرة ـ وهو حسن غني في خياله وعبقريته ـ حيث نجد أن بيئته كلها، وجميع علاقاته تنفذ فيها الأنفاس الوردية للنفس ، ويتحول العالم إلى حديقة للحب ، لو أننا تأملنا ذلك عن كثب ، وفحصناه على ضوء كرامة الانسان وحريته لوجدنا أنه كلما ازددنا اغراء بهذه النظرة الأولى وسحرها ، كلما وجدنا الفساد أعظم (في هذه الحياة الهندية) في كل جوانبها .

لا بدّ لنا أن نحدد بدقة أكثر خصائص الروح الحالمة بوصفها المبدأ العام للطبيعة الهندية . إن الفرد في حالة الحلم يكفّ عن أن يكون واعياً بنفسه بما هو كذلك بحيث يقدر على التفرقة بين ذاته وبين الموجودات الموضوعية . لكني عندما أستيقظ أصبح وجوداً لذاتي وتصبح بقية المخلوقات تموضعاً خارجياً وصلباً مقابلاً لي مثلما أنا مقابل لها. وبقية الوجود ينتشر، بوصفه شيئاً خارجياً ، في ترابط عقلي ، ونسق من العلاقات يكون فيه وجودي الفردي ذاته عضواً ، وهو وجود فردي يتحد مع ذلك الكل الشامل ، وتلك هي دائرة الفهم . وعلى العكس من ذلك ، فإن هذا الانفصال لا وجود له في حالة الحلم ، إذْ تكفّ الروح عن أن تكون وجوداً لذاتها يعارض الوجود الخارجي الآخر ، وهكذا يكفّ بصفة عامة انفصال الخارجي والفردي أمام عموميته وماهيته. ومن ثمّ فإن الهندي الحالم هو كل ما نطلق عليه لفظ المتناهي والفردي . وهو في الوقت نفسه ـ بوصفه لا محدوداً وعاماً على نحو لا متناهٍ ـ فيه شيء إلهي (من الناحية الداخلية) . فالنظرة الهندية إلى الأشياء هي تماماً نظرة وحدة وجود عامة ..Pantheism ، ولكنها وحدة وجود لقوة الخيال لا للفكر . فهناك جوهر واحد (يتغلغل في جميع الأشياء) ، وكل تفرّد يتم تحريكه وتنشيطه إلى قوى جزئية خاصة . وتؤخذ

فقط المادة الحسية والمضمون الحسي وينقلان، وهما في حالتهما الأولية الخام إلى دائرة الكلي وما لا يمكن قياسه ، ولم يتم تحريرها بواسطة القوة الحرة للروح إلى شكل جميل ويكون لهما طبيعة مثالية في الروح بحيث يصبح الحس ليس إلّا خادماً وتعبيراً ملائماً للجانب الروحي وإنما (الموضوع الحسي نفسه) يمتد إلى ما لا يمكن قياسه، وما هو غير محدود، وبذلك يصبح الإلهي غريباً شاذاً ، غامضاً ومضحكاً . وهذه الأحلام ليست مجرد حكايات خرافية ، لعبة لقوة التخيل بحيث تكون فيها الروح ليست إلّا خيالاً يحوم هنـا وهناك، لكنها (أي الروح) تضيع فيها ، ويلقى بها من هذه الأحلام هنا وهناك ، أي يلقى بها من واقعها الحقيقي ومن جديتها ، وتسلم لهذه الموضوعات المتناهية بوصفها أربابها وآلهتها . ومن ثمّ فكل شيء : الشمس ، والقمر والنجوم ، ونهر الكنج ، ونهر السند ، والحيوانات والزهور- كل شيء بالنسبة للروح إله . وعلى حين أن التناهي في حالة التأليه هذه ، يفقد دوامه وثباته وجوهريته فإنه يستحيل تكوين تصور عقلي عنه . وعلى العكس من ذلك فإن الإلهي نظراً لأنه لذاته متغير وغير ثابت ، فإنه بواسطة هذا الشكل المنحط الذي يتخذه يصبح مشوهاً تماماً، وملوثاً أو دنساً، ولغواً باطلاً. وفي هذا التأليه العام لكل ما هو موجود ومتناه ـ وبالتالي انحطاط الإلهي ـ لا يكون تصور الإله الانسـان ، أو تجسد الإله ، فكرة ذات أهمية خاصة ، فالببغاء ، والبقرة ، والقرد . . الخ هي كذلك تجسيدات لله ، لكنها مع ذلك لا ترتفع فوق طبيعتها ، ولا يصبح الإلهي فرداً في صورة ذات أو روح عيني ، لكنه ينحطّ إلى حقارة وعبث ، ويعطينا ذلك فكرة عامة عن وضع وجهة النظر الهندية إلى الكون حيث تخلو الأشياء بالمثل من المعقولية ، أي تخلو من وجود للعلة والمعلول وجوداً متناهياً مترابطاً بمقدار ما يخلو الانسان من رسوخ الوجود الحر من أجل الذات ..Fursichsein ، ومن الشخصية والحرية .

وللهند ، من الناحية الخارجية ، علاقات تاريخية عالمية من بعض الجوانب فقد اكتشف في العصور الحديثة أن اللغة السنسكريتية تقف كأساس

لجميع التطورات الواسعة للغات أوربيـة مثل : اللغة اليونانية ، واللاتيـنية ، والألمانية . ولقد كانت الهند فضلاً عن ذلك نقطة الانطلاق لكل العالم الغربي . لكن هذه العلاقات التاريخية مع العالم الخارجي لا يُنظر إليها بالأحرى إلّا على أنها انتشار طبيعي للشعوب من هذه البقعة . وعلى الزغم من أننا نستطيع أن نجد أيضاً في الهند عناصر لتطورات أبعد وأن نجد أيضاً آثاراً انتقلت إلى الغرب ، فإن هذا الانتقال كان مجرداً جداً لدرجة أن ما قد يكون بالنسبة لنا موضع اهتمام لدى الشعوب المتأخرة لم يكن شيئاً مستمداً من الهند ، لكنه بالأحرى شيء عيني ، قاموا هم أنفسهم بتشكيله ، وبذلوا جهداً كبيراً لكي ينسوا العناصرالهندية . ولقد تمّ انتشار هذه العناصر الهندية قبل التاريخ لأن التاريخ ليس إلّا ذلك الذي يشكل حقبة جوهرية في تطور الروح . ولم يكن خروج الهند ، بصفة عامة إلّا انتشاراً أبكماً بغير تأثير . أعني أنه لا يمثل أي فعل سياسي ، فالشعب الهندي لم يقم بأية فتوحات خارجية لكنه هو نفسه كان ميداناً للغزو الخارجي باستمرار . ولمّا كانت الهند الشمالية بهذه الطريقة الصامتة نقطة انطلاق لانتشار طبيعي، فإن الهند بصفة عامة ، بوصفها أرضاً مرغوبة تشكل عنصراً جوهرياً في التاريخ كله . فمنذ أقدم العصور وجميع الأمم توجه رغباتها وتطلعاتها لتظفر بمنفذ إلى كنوز هذه البلاد ، التي هي بلاد العجائب ، تلك الكنوز التي هي أنفس ما أنجبت الأرض : كنوز الطبيعة واللآلىء ، والماس والعطور ، ورحيق الورود ، والأفيال ، والأسود . . الخ . وكنوز الحكمة أيضاً ـ ولقد كانت الطريقة التي انتقلت بها هذه الكنوز إلى الغرب ، في جميع العصور ، موضوعاً مرتبطاً بتاريخ العالم ، ومتشابكاً مع مصير الأمم ، ولقد نجحت الأمم أيضاً في الدخول إلى هذه البلاد، بلاد رغبتهم ، وتكاد ألّا تكون هناك أمة كبيرة من أمم الشرق أو من أمم الغرب الأوروبي الحديث لم تحصل هناك على رقعة من الأرض صغيرة كانت أم كبيرة . ولقد نجح الاسكندر الأكبر ، في العالم القديم ، أولاً في الزحف على الهند براً لكنه أيضاً لمسها فحسب .

ولقد استطاع الأوروبيون في العالم الحديث أن يدخلوا مع أرض

العجائب هذه في اتصال مباشر ، حيث أتوا إليها عن طريق خلفي وكان ذلك عن طريق البحر الذي هو ، كما سبق أن ذكرنا ، الرابط بصفة عامة بين البلدان(٣) . والانجليز ، أو بالأحرى شركة الهند الشرقية هم سادة البلاد ، لأن القدر المحتوم للامبراطوريات الآسيوية أن تخضع للأوروبيين . وسوف تضطر الصين ، في يوم من الأيام ، أن تستسلم لهذا المصير(٤) . وعدد السكان في الهند حوالي ٢٠٠ مليون نسمة يخضع منهم خضوعاً مباشراً للانجليز من ١٠٠ إلى ١١٢ مليون نسمة ، أمّا الأمراء الذين لا يخضعون للانجليز خضوعاً مباشراً فيوجد في بلادهم وكلاء أو وسطاء انجليز ، وقوات انجليزية في خدمتهم . ومنذ أن أخضع الانجليز بلاد المهراتا Mahrattas..(٥) لا تجد جزءاً منها مستقلاً عن سيطرتهم ، التي وجدت لها

---

(٣) قارن الجزء الأول من الترجمة العربية لمحاضرات هيجل في فلسفة التاريخ حيث يقول « لا شيء يربط ويوحّد كما يفعل الماء » ص ١٩٦ - ١٩٧ (المترجم) .

(٤) هكذا يعود هيجل إلى ترديد نفس النغمة الغريبة التي ذكرها فيما سبق (قارن ترجمتنا العربية للجزء الأول من هذه المحاضرات ص ٢٠١ وتعليقنا حاشية رقم (١) - فقد ذهب هناك إلى أن شمال أفريقيا لا بدّ أن يرتبط بأوروبا عموماً ، وبالفرنسيين على وجه الخصوص ، وهو هنا يذهب إلى أن القدر المحتوم : « قد فرض على الامبراطوريات الآسيوية أن تخضع للأوروبيين ، كما أنه يتنبأ بأن الصين سوف تضطر في المستقبل إلى أن تستسلم لنفس المصير » ولقد كذّب التاريخ المعاصر تنبؤات هذا المفكر العملاق فاستقلّت الصين وأصبحت تهدد الدول الأوروبية ، وذهبت الولايات المتحدة بكل جبروتها تطرق بابها بعد أن أعياها الصراع المضني في كوريا وفيتنام وغيرهما! ويمكن أن تُعدّ اليابان التي تحتل الساحل الشرقي لآسيا دليلاً آخر على كذب هذه التنبؤات التي تبعد بعداً تاماً عن الروح العلمية المنصفة . فحضارة اليابان قديماً ونهضتها حديثاً ، ثم عودتها إلى الساحة الدولية بعد هزيمة عنيفة في الحرب العالمية الثانية - والمنافسة الخطرة للصناعات اليابانية والتي اعترفت بها الولايات المتحدة ذاتها - كل ذلك دليل قوي وحاسم على قدرة الامبراطوريات الأسيوية على الاستقلال عن الأوروبيين ، بل والتقدم الذي يصل إلى حد المنافسة (المترجم) .

(٥) ..Mahrattas كلمة هندية تعني الفرد المولع بالحرب في الجنس الهندي أو العضو الحربي في الشعوب الهندية عموماً (المترجم) .

قدماً راسخة في الامبراطورية البورمانية ..Birman Empire ، وتجاوزت نهر بورهامبتر ..Burrampooter الذي يتاخم الهند من الشرق .

الهند الأصلية هي البلاد التي قسمها الانجليز قسمين كبيرين هما: **الدكن** - وهي شبه جزيرة كبيرة تضم خليج البنغال في الشرق ، والبحر الهندي في الغرب . **وهندوستان** التي شكّلها وادي نهر الكنج والتي تمتد في اتجاه فارس . ويحد هندوستان من الشمال الشرقي جبال الهملايا التي يعتبرها الأوروبيون أعلى سلسلة جبال في العالم(٦) . إذ يبلغ ارتفاع قممها حوالي ٢٦,٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، وينحدر مستوى الأرض في الجانب الآخر لهذه الجبال حيث تمتد سيطرة الصين حتى هذه البقعة . وعندما أراد الانجليز أن يصلوا إلى الدلاي لاما في «لهاسا» ..Lassa(٧) - منعهم الصينيون ، وينبع نهر السند من الجانب الغربي للهند حيث تتحد فيه الأنهار الخمسة ويطلق عليه اسم « البنجاب ..Pungab » وقد وصل إليها زحف الاسكندر الأكبر . ولا تمتد سيطرة الانجليز حتى نهر السند . وتعيش جماعة السيخ ..Sikhs(٨) ، في هذه المنطقة ، ولهم دستور ديمقراطي تماماً . وقد انفصلوا عن الديانتين

---

(٦) كلمة « همالايا » سنسكريتية تعني موطن الجليد . وهي سلسلة جبال تمتد في باكستان ، وكشمير ، والهند ، والتبت والصين ونيبال ، وهي تضم ثلاث سلاسل متوازية : همالايا الكبرى ، وبها جبل إفرست ، أعلى قمم العالم ، وهمالايا الصغرى ، ثم همالايا الخارجية (المترجم) .

(٧) مدينة « لها سا » عاصمة التبت ومقر اللامية منذ زمن بعيد حتى احتلتها الصين عام ١٩٥١ يقع بقربها بوتالا قصر الدالاي لاما . أطلق عليها إسم « المدينة المحرمة » لعزتها وعدم ترحيبها بالأجانب (المترجم) .

(٨) السيخ ..Sikhs جماعة دينية بالهند وباكستان تعدادها حوالي ٥٥٠٠٠٠٠ نسمة يقطن أكثرهم في البنجاب ، وقد أسس ناناك عام ١٤٦٩ ديانتهم التي نادت بالوحدانية والتقارب الأساسي بين جميع الأديان . ولقد عارض ناناك - الذي لقب بالمعلم الأول - الاحتفاظ بهيئة كهنوتية ، كما عارض نظام الطبقات المقفلة والمنفصلة على نحو ما كان سائداً في الهند (المترجم) .

الهندية والاسلامية على السواء ، ويتمسكون بموقف الوسط بينهما فلا يعترفون إلّا بموجود أسمى واحد . وهم أمّة قوية أخضعت « كابول » و « كشمير » . وبجانب هؤلاء القوم تعيش على طول نهر السند قبائل هندية أصيلة من طبقة المقاتلين . وتوجد سهول عظيمة بين نهر السند وشقيقه التوأم نهر الكنج . ومن ناحية أخرى فإن نهر الكنج يشكل حوله ممالك واسعة تطورت فيها العلوم تطوراً كبيراً جداً حتى أن البلدان الواقعة حول هذا النهر لا تزال تتمتع بشهرة أعظم من شهرة تلك البلدان الواقعة حول نهر السند. ولقد ازدهرت مملكة البنغال بصفة خاصة . ويشكل نهر نربادا ..Nerbuddah الحدود بين الدكن وهندوستان؛ وتمثل شبه جزيرة الدكن تنوعاً عظيماً أكثر بكثير من هندوستان ، وتكاد تتمتع أنهارها بقدسية تعادل القدسية العظيمة التي يتمتع بها نهرا السند والكنج، الذي أصبح الأخير اسماً عاماً يطلق على جميع الأنهار في الهند بوصفه النهر الذي يعتبر النموذج الأول أو المثال الأصلي . ونحن نطلق على سكان البلد العظيم الذي نتناوله الآن بالدرس اسم : **الهنود** **..Inder** . وهي كلمة مشتقة من نهر السند ..Indus (ويسميهم الانجليز بالهندوس ..Hindoos) أمّا هم أنفسهم فلم يطلقوا اسماً على الكل ، لأنهم لم يصبحوا أبداً امبراطورية واحدة ومع ذلك فنحن ندرسهم على أنهم كذلك .

أمّا فيما يتعلق بالحياة السياسية للهنود ، فلا بدّ أن ندرس أولاً التقدم الذي تمثله الهند في مقابل الصين . لقد سادت المساواة في الصين بين كل الأفراد (الذين تتألف منهم الامبراطورية) . وبالتالي كانت الحكومة كلها مستغرقة في مركز واحد هو الامبراطور حتى أن الأفراد لم يكن في استطاعتهم أن يبلغوا الاستقلال والحرية الذاتية . والدرجة التي تلي هذه الوحدة في مسار التقدم هي أن يتفوق الاختلاف ويصبح في خصوصيته مستقلاً في مواجهة الوحدة التي تسود الكل . إن الحياة العضوية تتطلب من ناحية نفساً واحدة ..Seele ، ومن ناحية أخرى تتطلب الانتشار إلى اختلافات تتفرّع وتتشكل في جزئيتها مكوّنة نسقاً مكتملاً ، على نحو يجعل نشاطها يعمل على تجديد هذه النفس الواحدة . ولم تكن حرية الانفصال هذه موجودة في

الصين ، فما كان ينقصهم هو أن الاختلافات لا تستطيع أن تبلغ مستوى الوجود المستقل .

ولقد كان التقدم الجوهري الذي أحرزته الهند ، من هذه الزاوية ، وأعني به : أن يتفرّع الأعضاء المستقلون عن وحدة الاستبداد . ومع ذلك فإن هذه التمييزات (التي تتضمنها) ترتدّ إلى الطبيعة فبدلاً من إثارة نشاط النفس بوصفها مركزاً لوحدة الأعضاء ، وبدلاً من أن يتم التمخض عن النفس في حرية ، كما هي الحال في الحياة العضوية فإن التمييزات تتحجر وتصبح صلبة وقد حكمت على الشعب الهندي بواسطة ثباتها ورسوخها ، بأحطّ مراتب القنانة للروح . والتمييزات التي نتحدث عنها هنا هي « الطبقات المقفلة »[٩] ، ففي كل دولة عقلانية توجد تمييزات لا بدّ أن تظهر ، ولا بدّ أن يصل الأفراد إلى الحرية الذاتية ، وأن يقوموا من ذاتهم بوضع هذه التمييزات . ولكن الأمر لم يصل في الهند بعد إلى الحديث عن حرية وأخلاقية باطنية ؛ فالتمييزات السائدة هي فقط تلك التمييزات الخاصة بالأعمال والطبقات فحسب . صحيح أن أمثال هذه التنوعات للطبقات الجزئية الخاصة تظهر في الدولة الحرة ، لكنها ترتبط ، مع ذلك ،

(٩) كان نظام الطبقات المقفلة أساسياً في الهند حتى أنه أصبح جزءاً من تكوين العقل الهندي - وهو يقسم المجتمع تقسيماً أفقياً معقداً إلى طبقات أو طوائف لا يستطيع أعضاؤها أن يأكلوا ولا أن يتزوجوا من أفراد طائفة منهم ، وإلّا أصبحوا من المنبوذين . وربما حُرم الأعضاء أيضاً من طائفتهم عقاباً لهم على أنواع شتى من إهمال الطقوس والدنس . وإذا فقد الرجل طائفته لم ينحط في طائفة أدنى منها بل يصبح طريداً منبوذاً . ويصبح المرء حسب مولده عضواً في طبقته . فالتقسيم هنا طبيعي والطوائف الرئيسية الأربع هي : البراهمة وهم الكهنة والمعلمون وأصحاب الامتيازات الكبرى على سائر الطوائف الأخرى . ثم طبقة « الكشاترية » وهم المحاربون وكان لهم سلطان على الميدان الفكري والسياسي في عهد بوذا . ثم طبقة الفيزيا وهم الرعاة، ثم هناك «الشودرا» وهي أدنى الطبقات لا تقل عنها سوى طبقة « الباريا » المنبوذين من خارج الطوائف الأخرى - راجع تعليقنا حاشية ص ١٥ من الجزء الأول « لفلسفة التاريخ » لهيجل (المترجم) .

لدرجة أن الأعضاء يستطيعون تأكيد فرديتهم . أمّا في الهند فلا يوجد سوى التقسيم إلى طبقات ، لكنه تقسيم يؤثر في الحياة السياسية كلها ، وفي الوعي الديني بأسره . والتمييزات الطبقية كتلك الوحدة (الصارمة) الموجودة في الصين ، تظل بالتالي على نفس المرتبة الأصلية من الجوهرية ، أعني أنها ليست نتيجة للذاتية الحرة للأفراد .

ولو أننا فحصنا مفهوم الدولة ووظائفها المختلفة ، فسوف نتبيّن أن الوظيفة الجوهرية الأولى هي تلك التي يكون غايتها هو الكلي العام (على نحو مطلق) الذي يعيه الانسان أولاً في الدين ثم بعدئذ في العلم . والله ، أو الإلهي ، هو الكلي العام على نحو مطلق ومن ثم فسوف تكون الطبقة الأولى هي تلك الطبقة التي يتمثل بواسطتها الإلهي ، ويظهر عن طريقها إلى الجماعة وأعني بها طبقة : البراهمة . وسوف يمثل العنصر الثاني أو الطبقة الثانية : القوة الذاتية والبسالة ، ولا بدّ أن تدعم تلك القوى نفسها لكي يستطيع الكل أن يحافظ على وجوده ، وتحتفظ بتكاملها في مواجهة التجمعات أو الدول الأخرى . وهذه الطبقة هي طبقة المحاربين والحكام أو طبقة « الكشاترية » رغم أن البراهمة أيضاً كثيراً ما يصلون إلى مناصب الحكومة . وفي الترتيب الثالث للمناصب تأتي الطبقة التي تُعنى بمسائل الحياة ـ واشباع الضروريات ، وتشمل الزراعة ، والحرف ، والتجارة ، وهي طبقة الفيزيا Vaisya.. وأخيراً فإن العنصر الرابع هو طبقة الخدمة ، وهي مجرد أداة لراحة الآخرين : فمهمتها العمل من أجل الآخرين ، وفي مقابل أجور تكفل لها عيشاً هزيلاً ، وتلك هي طبقة الشودرا Sudras.. (وهذه الطبقة الخادمة ، في حقيقة الأمر ، لا تُشكّل في الدولة طبقة عضوية خاصة لأن أعضاءها لا يخدمون سوى أفراد ومن ثمّ فأعمالهم تتبدد بينهم ، ويلحقون بالتالي بعمل الطوائف السابق ذكرها) .

وهناك فكرة Gedanke.. تُثار ضد مثل هذه الطبقات أو الطوائف بصفة عامة ، وقد ظهر هذا الاعتراض في العصور الحديثة بوجه خاص ، والاعتراض يتمثل في تأمل الدولة من الجانب القانوني المجرد ، وينتج من

ذلك أنه يجب ألّا يكون هناك اختلاف أو تمييز للطبقات . غير أن المساواة في الحياة المدنية (أي حياة الدولة) ، أمر مستحيل استحالة مطلقة ، لأن الفروق الفردية في الجنس والسن سوف تؤكد نفسها ، باستمرار ، فحتى لو قيل : ينبغي أن يكون لكل الأفراد نصيب متساو من المشاركة في الحكم ، فسوف يتخطى المرء النساء والأطفال الذين يظلون مستبعدين . كما أنه لا يمكن تجاهل التفرقة بين الغنى والفقر وتأثير المهارة والموهبة ، فهذه كلها تدحض تماماً تلك المزاعم المجردة . ولكن إذا ما قبلنا من خلال هذا المبدأ بتنوع الأعمال وما يتصل بذلك من الطبقات التي تقوم بها - فإننا نصطدم هنا في الهند بوضع خاص هو أن الفرد ينتمي إلى طبقة من الطبقات عن طريق الميلاد أساساً ويرتبط بها طوال حياته . وبذلك تغوص كل ألوان الحياة العينية التي تشق طريقها إلى الظهور عائدة إلى الموت والاصفاد تقيد الحياة في نفس اللحظة التي ترى فيها النور، وبذلك يتلاشى تماماً ما يبدو من تحقق للحرية في هذه التمييزات . وليس للاختيار التعسفي المحض الحق في أن يربط من جديد ما قد فصله الميلاد . ومن ثمّ فإن الطوائف التي تحتفظ بالتمييزات منذ بدايتها ذاتها ينبغي ألّا تختلط مع بعضها أو تتحد عن طريق الزواج . غير أن أريان Arrian (Ind. II) قد أحصى سبع طوائف ، وفي العصور المتأخرة وصل الاحصاء إلى أكثر من ثلاثين طائفة ، نشأت رغم جميع العقبات ، من الارتباط بين الطوائف المختلفة ، فتعدد الزوجات يؤدي إلى ذلك بالضرورة ، فالبرهمي - على سبيل المثال - يُسمح له بأن يبني بثلاث زوجات من الطوائف الثلاث الأخرى على شرط أن يكون قد تزوج قبل ذلك زوجة واحدة فقط من طائفته . ولم يكن النسل الذي يعقبه هذا الاختلاط ينتمي في الأصل إلى طائفة معينة ، لكن أحد الملوك ابتكر طريقة لتصنيف الأشخاص الذين لا طائفة لهم ، وكانت هذه الطريقة في الوقت نفسه بداية الفنون والحرف اليدوية ، إذ سُمح للأطفال (الذين نتحدث عنهم) بالالتحاق بصناعات معينة فأصبح منهم قطاع نسّاجين ، وقطاع آخر يعمل في صقل الحديد ، وهكذا نشأت طبقات مختلفة من هذه الحرف المختلفة .

وتتألف أعلى هذه الطوائف الممتزجة من أولئك الذين ولدوا من زواج البرهمي بزوجة من طبقة المحاربين . أمّا أدنى طبقة فهي طبقة الشاندالا ..Chandalas المكلفة بنقل الجثث ، وتنفيذ أحكام الاعدام في المجرمين ، والقيام بالأعمال الدنيئة بصفة عامة . وأعضاء هذه الطائفة معزولون ، وممقوتون ويلزمون بالعيش في عزلة بعيداً عن الآخرين. ويرغم: «الشاندالا» على افساح الطريق أمام الطبقات العليا ويحق للبرهمي أن يطرح أرضاً كل شخص يتوانى في افساح الطريق . ولو أن الفرد من طبقة « الشاندالا » شربَ من غدير فإنه ينجسه ويحتاج إلى أن يتطهر من جديد من الناحية الدينية .

علينا أن نتناول أولاً وضع هذه الطوائف ، فإذا سألنا عن أصل نشأتها فيجب أن نذكر كيف تحكي الأسطورة ذلك . تقول هذه الأسطورة : إن طائفة البراهمة خرجت من فم براهما ..Brahma . كما خرجت طبقة المقاتلين من ذراعيه . أمّا أصحاب الحرف فقد انحدرت من حقويه (أو خاصرته) ، والطائفة الخادمة من قدميه . ولقد افترض بعض المؤرخين أن طبقة البراهمة تشكل في الأصل شعباً من الكهنة ، وأن اختلاق هذه القصة مصدره ، بصفة خاصة ، البراهمة أنفسهم . والواقع أن القول بوجود شعب من الكهنة ليس سوى خرافة كبرى لأننا نعلم أولياً وقَبْلياً apriori أن التفرقة بين الطبقات لا توجد إلّا داخل شعب ما ، ولا بدّ أن توجد في كل أمة أعمال الحياة المختلفة ، فهي نفسها تعبر عن تموضع للروح ولا بدّ أن تفترض إحدى الطبقات طبقة أخرى بالضرورة . ونشأة الطوائف ، بصفة عامة ، ليس سوى نتيجة للمعاشرة والعيش معاً ، فلا يمكن لأمة من الكهنة أن توجد بدون الزراع والجنود . ولا يمكن للطبقات أن تتواجد من الخارج لكنها تتفرع من الداخل فحسب ، أعني أنها تظهر من الحياة الداخلية للأمة لا العكس . أمّا أن هذه التمييزات تُعزَى هنا إلى الطبيعة ، فتلك نتيجة ضرورية لمفهوم الفكرة التي يجسدها الشرق بصفة عامة . لأنه إذا كانت الذات ينبغي أن تكون حقاً مؤهلة لاختيار مهنتها وعملها ، فإنه في الشرق ، على العكس من ذلك ، لا يُعترف بَعْدُ بالذاتية الداخلية على أنها أمرٌ مستقل . وإذا كانت

التمييزات تجد طريقها للظهور ، فإن الاعتراف بها يصاحبه اعتقاد بأن الفرد لا يختارها لنفسه وبنفسه ، لكنه يتلقاها من الطبيعة . لقد كان الشعب في الصين ، بغير تمييز للطبقات ، يعتمد على القوانين والقرارات الأخلاقية للامبراطور ، وبالتالي على إرادة بشرية . كما جعل أفلاطون في جمهوريته التمييزات أو الفروق بالنسبة للوظائف والأعمال المختلفة تتم عن طريق اختيار الهيئة الحاكمة أو الرؤساء. ومن ثم فهنا أيضاً قوة روحية أخلاقية هي العامل الحاسم . أمّا في الهند فإن الطبيعة هي هذه القوة الحاكمة . لكن هذا التحديد الطبيعي لا يستدعي الوصول إلى تلك الدرجة من الانحطاط التي نلاحظها هنا لو كانت التمييزات قاصرة في تحديدها على العمل في جانبه الدنيوي ، وعلى تشكيل الروح الموضوعية . وكذلك كان الأفراد في النظام الاقطاعي في العصور الوسطى مرتبطين بطبقة معينة . لكن كان هناك فوق ذلك شيء أعلى بالنسبة للجميع ، وكان للجميع الحرية في الانتقال إلى الطبقة الروحية(١٠) . فالفارق الأعظم هو أن الدين هنا يتخذ موقفاً واحداً بالنسبة لكل الناس ، فعلى الرغم من أن ابن الصانع اليدوي ينشأ صانعاً يدوياً ، وابن الفلاح ينشأ فلاحاً ، والاختيار الحر تقيده ، في الأعم الأغلب ، بعض الظروف القاهرة ، فإن العنصر الديني يقف على علاقة واحدة مع الجميع ، ويضفي الدين على كل الناس قيمة مطلقة . أمّا في الهند فإن الوضع على العكس من ذلك تماماً . وهناك فارق آخر بين طبقات المجتمع على نحو ما توجد في العالم المسيحي ، وطوائف المجتمع الهندي ، وهو الكرامة الأخلاقية الموجودة في كل طبقة عندنا ، والتي تمثل ما ينبغي أن يمتلكه الانسان في داخله وبنفسه هو . ومن هذه الزاوية فإن الطبقات العليا تتساوى مع الطبقات الدنيا ، وعلى حين أن الدين هو المجال الأعلى الذي

---

(١٠) يقصد بالطبقة الروحية هنا طبقة رجال الدين في المسيحية من قسيسين ورهبان ـ الخ حيث الفرصة قائمة أمام كل فرد في الانتقال إلى هذه الطبقة ، وذلك على عكس ما كان معمولاً به في الهند ، حيث كانت الطبقة الروحية مقفلة على البراهمة فقط ، ولم يكن لغير البراهمة الحق في الانتقال إلى هذه الطبقة (المترجم) .

يستمتع فيه الكل بضوء الشمس ، فإن المساواة أمام القانون ، وحقوق الشخصية والملكية مكفولة لكل طبقة . لكن نظراً لأن الهند ، كما لاحظنا ، تمتد فيها الفروق لا لتشمل تموضع الروح فحسب بل كذلك ذاتيتها المطلقة ، فقد أدّى ذلك إلى أن تشمل جميع علاقاتها فلا وجود للأخلاق أو العدالة أو التدين .

ولكل طائفة واجباتها وحقوقها الخاصة ، ومن ثم فالواجبات والحقوق ليست للانسان بصفة عامة ولكنها تتعلق بطائفة معينة ، فإذا كنا نقول : « الشجاعة فضيلة » فإن الهنود يقولون ، على العكس ، « الشجاعة هي فضيلة طبقة الكشاترية » فخاصية الانسان بصفة عامة ، والواجب البشري ، والشعور البشري لا وجود لها عندهم فنحن لا نجد سوى واجبات الطائفة الخاصة وكل شيء يتجمد ويتحجر في هذه الفروق . وفوق هذا التحجر يسيطر المصير القلّب المتغير ، فالأخلاق والكرامة البشرية مجهولة عندهم وتلعب الأهواء الشريرة دورها كاملاً . وتهيم الروح في عالم الأحلام ، وأعلى حالة هي حالة الفناء أو الانعدام .

ولكي نحصل على فكرة أكثر دقة عن البراهمة وعن مكانتهم . فإن علينا أن ندرس الديانة الهندية وما تتضمنه من تصورات ، سنعود إليها فيما بعد ، لأن الحقوق المتعلقة بكل طائفة تستمد أساسها من العلاقة الدينية . براهما ..Brahma (المحايد) هو الموجود الأسمى في الدين . لكن هناك ، إلى جانبه ، ثلاثة آلهة ، براهما ..Brahma (المذكر) ، وفيشنو ..Vishnu أو كريشنا ..Krishna الذي يتجسّد في أشكال كثيرة لا نهاية لها ، وشيفا ..Siva ، وهم يشكلون ثالوثاً مرتبطاً . وبراهما هو الأعلى ، لكن فيشنو وكريشنا، وشيفا ، والشمس ، والهواء . . الخ - هي كذلك براهمة Brahm أعني وحدة جوهرية . ولا تُقدَّم قرابين لبراهمة نفسه فهو لا يُعبَد ، لكن الصلوات تؤدّى لجميع الآلهة الأخرى ، أمّا براهمة نفسه فهو الوحدة

الجوهرية للكل ، ومن ثم فأعلى وضع ديني للانسان هو ارتفاعه إلى براهمة . ولو سُئل الرجل البرهمي : مَنْ هو براهمة ، فسوف يجيب عندما أنسحب داخل ذاتي وأغلق جميع حواسي الخارجية ، وأقول لنفسي « أوم Om » فذلك هو براهمة ، فالوحدة المجردة مع الله تتحقق بهذا التجرّد من الجانب البشري وقد يترك التجرد (في بعض الأحيان) كل شيء آخر على حاله بغير تغيير على نحو ما يفعل الوجدان التعبدي لحظة وجيزة . لكنه يتخذ لدى الهنود موقفاً سلبياً تجاه كل ما هو عيني . ويفترض أن الحالة العليا هي هذا السمو الذي يرفع بواسطته الرجل الهندي نفسه إلى الألوهية . ويكتسب البراهمة صفة الاتصال بما هو إلهي بفضل مولدهم . ومن ثَمّ فإن التفرقة بين الطوائف تتضمن تفرقة بين الآلهة الموجودة وبين الناس المتناهين . صحيح أن الطوائف الأخرى قد تُشارك كذلك في الميلاد من جديد . لكنهم لا بدّ أن يأخذوا أنفسهم بألوان عظيمة من انكار الذات والتكفير ، والمعاناة . والسمة الرئيسية لهذا الزهد هي احتقار الحياة والبشر الأحياء . ويكافح قسم كبير من السكان غير البراهمة لبلوغ مرحلة الميلاد من جديد وهم يسمون بأهل اليوجا Yogis..[11] .

ولقد التقى أحد الانجليز الذي كان يقوم برحلة في التبت لزيارة «الدلاي لاما» - بأحد هؤلاء اليوجيين وهو يقدّم لنا الوصف التالي : كان « اليوجي » بالفعل في المرحلة الثانية من صعوده إلى مرتبة القوة (الباطنية) للبرهمي . ولقد قطع المرحلة الأولى بأنْ بقي طوال اثنتي عشرة سنة واقفاً على

---

(١١) يوجا ..Yoga كلمة سنسكريتية معناها « الاتحاد » وهي تُطلق على الحياة الصوفية في الهندوكية ، وهي حياة يُراد لها أن تخلّص الانسان من وهم العالم الحسي ليتحد بروح الكون . ويلجأ اتباع هذا المذهب إلى التدريب لتسهيل الاتحاد بالنفس الكلية عن طريق رياضة روحية وحسية وعن طريق تقديم القرابين . وتذهب اليوجا إلى أنه لا تكفي حياة واحدة لإدراك هذا الاتحاد لأنه بحسب مبدأ « الكرما » قد تتطلب أفعال العبد السيئة ولادات متتالية في صور إنسانية أو حيوانية كما أن الأفعال الحسنة قد تعجِّل بالاتحاد اللانهائي (المترجم) .

قدميه دون أن يجلس أو يرقد على الاطلاق وفي البداية كان يربط نفسه إلى جذع شجرة بحبل قوي حتى عوَّد نفسه على النوم وهو واقف . ولقد تطلبت منه المرحلة الثانية أن يضع يديه متشابكتين فوق رأسه اثنتي عشرة سنة متتالية . ولقد كادت أظافره أن تنمو في داخل يديه . أمّا المرحلة الثالثة فهي لا تتم دائماً بطريقة واحدة : فاليوجي عليه ، في العادة أن يقضي يوماً بين النيران الخمسة ، أعني بين النيران الأربع التي تشغل أركان السماء الأربعة ثم الشمس ؛ ولا بدّ له أن يتأرجح على النار جيئة وذهاباً ، ويستغرق ذلك ثلاث ساعات وثلاثة أرباع الساعة . ويقول الانجليز الذين حضروا ذات مرة مشهداً من هذا القبيل ، لقد ظلت الدماء تسيل بعد نصف ساعة من كل جزء من جسم ذلك الرجل الذي نذر نفسه للدين ، وقد أُخذ (بعيداً عن النار) ثم مات في الحال . ولكن لو اجتاز أحد هذه التجربة (الامتحان) بنجاح أيضاً، فإن هذا الطَمُوح يُدفن حياً في النهاية . وهذا يعني أنه يوضع في الأرض في وضع مستقيم ويُهال عليه التراب تماماً ، ثم يخرجونه بعد ثلاث ساعات وثلاثة أرباع الساعة ، فإنْ عاش فإنه يبلغ في النهاية درجة القوة الباطنية للبرهمي .

وعلى هذا النحو ، وحده ، وبمثل هذا السلب لوجوده ، يستطيع المرء أن يبلغ القوة البرهمية . ولكن هذا السلب يتمثل في أعلى درجاته في لون من الشعور المعتم ببلوغ الجمود الذهني الكامل - انعدام كل إحساس وكل إرادة - وهي حالة يُنظر إليها على أنها المرحلة العليا عند البوذيين أيضاً . وفضلاً عن ذلك فإنه بالغاً ما بلغ جبن الهنود وهزالهم ، فمن الواضح أنهم لا يترددون في أن يقدموا أنفسهم قرابين للأسمى ، أي للفناء . وهناك مثلاً عادة احراق الزوجات لأنفسهن عقب وفاة أزواجهن(١٢) . ولو أن امرأة خرجت عن هذه العادة المتوارثة لنبذها المجتمع وطردها لتعيش في عزلة .

---

(١٢) كانت تُسمى عادة « سوتي » وتقضي على الزوجة أن تحرق نفسها في جنازة زوجها . وظلت قائمة حتى منعها الانجليز بالقوة وعانوا كثيراً من معارضة الهنود إلى أن تمكنوا من ابطالها (المترجم) .

ويـروي أحد الانجليـز أيضاً أنـه رأى امرأة تحـرق نفسها لأنها فقـدت طفلهـا ولقد بـذل ما في وسعـه ليثنيها عن عـزمها حتى لجأ أخيراً إلى زوجهـا الذي كان يقف عـلى مقربـة منها لكن الزوج أبـدى عدم اكتـراث تام قـائلاً إن لديه زوجات أخريـات بالمنـزل . وأحيانـاً يشاهـد المرء عشـرين امرأة يلقـين بأنفسهن دفعة واحدة في نهر الكنج. ولقـد وجد رحّـالة انجليـزي فوق جبـال الهملايا ثلاث نسوة يبحثن عن منبـع نهر الكنج لكي يضعن حـداً لحياتهن في هذا النهر المقدس . وفي الاحتفالات الدينية في معبـد « يوجـرنو » الشهـير في أوريسه على خليج البنغال حيث يجتمـع ملايـين الهنود ، تـوضع صـورة الإله فيشنو على عربة في موكب تجرّهـا إحدى العـربات يـدفعها خمسمـائة رجـل ، وكثيرون يلقون بأنفسهم تحت العجلات لكي تسحقهم ، وقد أصبح شاطىء البحر كله مغطى بعظام الأشخاص الذين قدمـوا أنفسهم قرابـين . وكذلـك نجد أن عادة قتل الأطفال شائعة جداً في الهند ، فالأمهات يلقين بأطفالهن في نهر الكنج ، أو يتركن أطفالهن يموتون من العطش تحت أشعـة الشمس . فلا تـوجد الأخـلاق التي تتضمن احترام الحيـاة البشريـة بين الهنـود . وهناك إلى جانب الأمور التي ذكـرناهـا بالفعـل ، تعديـلات لا نهاية لهـا لهذا النمط من السلوك في الحياة وكلها تشير إلى الفناء . ويدخل في عـداد ذلك عـلى سبيل المثـال الزهّـاد الهنود أو الحكـماء العراة Phists Gymnoso كـما يسميهم الأغـريق. ويتجـول هؤلاء الفقـراء العـراة بـلا عمـل كـالـرهبـان المتسـولـين الكـاثـوليـك، ويعيشـون عـلى الصـدقـات التي يقـدمهـا لهم الآخـرون ، ويجعلون هـدفهم الوصول إلى الـدرجة القصـوى من التجرد ، والأمـانة الكـاملة للشعور . أي الوصول إلى تلك النقطة التي لا يكون الانتقال منها إلى المـوت الجسدي عـلى مسافة كبيرة .

هـذاالسمـو الـذي لا يبلغـه الآخـرون إلّا بشق الأنفس ، كـما ذكـرنـا يكتسبه البراهمة بحق المولد . ومن ثمّ فلا بدّ للرجل الهنـدي الذي ينتمي إلى الطوائف الأخرى أن يحترم الرجل البرهمي وأن يبجله كـإله ، وأن يخـرّ راكعاً أمـامه وهـو يقول : « أنت الله » . لكن هـذا التقـديـر لا يمكن أن يتمثـل في

أعمال أخلاقية ، وإنما يتمثل بالأحرى ، نظراً لانعدام كل أخلاق باطنية ، في خليط من العادات التي تقوم أيضاً بالتحكم في الأفعال السطحية التافهة . والحياة البشرية ، كما يُقال ، ينبغي أن تكون عبادة دائمة لله . ويتضح مدى سطحية أمثال هذه القواعد العامة عندما نتأمل الأشكال العينية التي تتخذها فهي تتطلب ، حتى يكون لها معنى ، مواصفات أخرى أبعد من ذلك . فالبراهمة هم الإله الحاضر لكن روحانيتهم لم تنعكس بعد داخلياً لتعارض الطبيعة . وهكذا فإن ما ليس له أهمية يُعامل على أنه ذو أهمية مطلقة . وتنحصر وظيفة البراهمة أساساً في قراءة الفيدا Vedas فهم وحدهم الذين يحق لهم قراءتها . ولو شوهد واحد من أبناء الشودرا Sudra يقرأ الفيدا أو يستمع إلى قراءتها فلا بدّ أن يُعاقب بقسوة ، وأن يُصبَّ الزيت المغلي في أذنيه . وعدد الطقوس الخارجية التي ترتبط بطائفة البراهمة هائل جداً . وتتناولها قوانين المانو ..Manu على أنها أعظم جوانب القانون في الأهمية فعلى البرهمي أن يستند إلى قدم معينة وهو ينهض ثم يغتسل في أحد الأنهار . ولا بدّ أن يقص شعره وأظافره في شكل مستدير ولا بدّ أن يطهِّر جسده كله ، وأن يكون ثوبه أبيض اللون ، وأن يمسك في يده عصا من نوع معين ، وأن يضع في أذنه قرطاً ذهبياً ، ولو أن البرهمي التقى في طريقه برجل من طائفة دنيا فلا بدّ أن يعود أدراجه ليطهِّر نفسه . وعليه أيضاً أن يقرأ « الفيدا » بطرق مختلفة . كل كلمة منفصلة ، أو أن يضاعف الكلمات بالتناوب أو باتجاه عكسي . ولا يجوز له أن ينظر إلى شروق الشمس أو غروبها ، أو حين تتلبد بالغيوم ، أو حين ينعكس ضوؤها على صفحة الماء . وحُرِّم عليه أن يخطو فوق حبل مَربوط فيه عجل ، أو أن يسير في الطريق والسماء تمطر ، أو أن ينظر إلى زوجته وهي تأكل أو تعطس أو تتثاءب أو تجلس في وضع مريح ، ولا يجوز له أن يرتدي إلاّ ثوباً واحداً فقط عند تناول طعام الغداء ، وعند الاستحمام لا يجوز له أبداً أن يكون عرياناً تماماً . أمّا مدى ما تذهب إليه هذه التعليمات ، فهذا يمكن الحكم عليه بوجه خاص من التوجيهات التي يجب على البراهميين مراعاتها عند القيام بتلبية نداء الطبيعة . فمحرم

عليهم ممارسة ذلك في الطريق العام ، أو فوق رماد ، أو في أرض محروثة ، أو فوق جبل أو عش نمل أبيض ، أو فوق خشب مخصص للوقود أو فوق قبر ، أو ماشياً أو واقفاً ، أو على ضفة نهر . . الخ . وينبغي عليهم ، حين يقومون بمثل هذا العمل ، ألّا ينظروا إلى الشمس ، أو إلى الماء ، أو إلى الحيوانات . وينبغي عليهم بصفة عامة أن يولوا وجوههم أثناء النهار ، شطر الشمال أمّا أثناء الليل فيتجهون نحو الجنوب . ويُسمَح لهم ، في الظل فحسب ، أن يلتفتوا أية ناحية كما شاؤوا . ومحرَّم على أي فرد يرغب في حياة طويلة أن يخطو فوق كسرة من إناء خزفي ، أو بذور القطن ، أو فوق رماد ، أو حزمة قمح ، أو فوق بوله . ونجد قصة نالا Nala في ملحمة مهاباراتا ..Mahabharata[١٣] تروي قصة عذراء عمرها إحدى وعشرون سنة ، وهو العمر الذي يكون فيه للعذارى أنفسهن الحق في اختيار الزوج ـ تختار زوجاً من بين طلابها . كان أمامها خمسة منهم لكن العذراء (البكر) لاحظت أن أربعة منهم لا يقفون على أقدامهم وقفة ثابتة ، ومن ثم استنتجت ، وكانت على حق أنهم آلهة ولهذا اختارت الخامس الذي كان انساناً حقيقياً . وكان هناك الهان خبيثان فاتتهما فرصة الاختيار فضلاً عن الآلهة الأربعة الذين رفضتهم ولذلك أراد هذان الالهان أن يثأرا لنفسيهما ، ولهذا السبب راقبا زوج محبوبتهما مراقبة دقيقة ورصدا كل خطوة يخطوها ، وكل سلوك في حياته ، بقصد إيذائه إنْ هو أخطأ في أي شيء . لكن الزوج المضطهد لم يرتكب شيئاً يمكن أن يؤخذ عليه ، حتى جاءت أخيراً لحظة لم ينتبه فيها ،

---

(١٣) ملحمة هندية سنسكريتية عظيمة يقال إنها أُلفت فيما بين ٢٠٠ ق . م و ٢٠٠ بعد الميلاد ألفها جملة شعراء جوّالين ثم راجعها مؤلفون فلاسفة ونقلوا ما فيها من مناظر وحشية ونغمة همجية مؤلفة في مائة وعشرة آلاف بيت مزدوج . تقص صراع فرعين من الأسرة المالكة في مملكة هستينابور إذ يقتتل خمسة أخوة مع أبناء عمومتهم الثلاثة الخائنين حول العرش ، وتغلب أسرة الخمسة ويتولى أكبرهم الملك ، ولكنه يحزن من مظاهر العظمة الأرضية فينزل عن العرش ويرحل رحلته السماوية إلى الجنة حيث يستقبل النعيم الأبدي (المترجم) .

وخطا فوق بوله ، عندئذ حق للإله الخبيث أو الجني أن يتلبّسه فابتلاه بادمان اللهو واللعب ، ودفعه بالتالي نحو الهاوية .

وعلى حين أن البراهمة يخضعون ، من ناحية ، لهذه الحدود والقواعد الدقيقة فإن حياتهم ، من ناحية أخرى ، مقدسة فهي ليست مسؤولة عن الجرائم من أي نوع ، كما أن ممتلكاتهم مصونة من أن تُصادر . وأقصى عقوبة يمكن أن ينزلها الحاكم بهم لا تكون أكثر من النفي أو الطرد ، ولقد أراد الانجليز ادخال نظام المحاكمة عن طريق المُحلّفين في الهند ـ على أن يكون نصف المُحلّفين من الأوروبيين ونصفهم الآخر من الهنود ، وعرضوا على الهنود ، الذين كان عليهم أن يقدموا تقريراً حول تلك التفويضات أو السلطات التي يجب أن تُعطى للمتحلفين . ولقد تقدم الهنود بعدد من القيود والاستثناءات فقد قالوا ، بين أشياء أخرى ، إنهم لا يستطيعون أن يوافقوا على أن يُحكَم بالموت أو الاعدام على الرجل البرهمي . دعْ عنك الاعتراضات الأخرى مثل من المستحيل النظر إلى الجثة ، وفحصها . وعلى الرغم من أن نسبة الفوائد ترتفع في حالة الفرد من طبقة المحاربين ، إلى ثلاثة بالمئة ، وفي حالة الفرد من طبقة الفيزيا ..Vaisya إلى أربعة بالمئة ، فإن الفرد من طائفة البراهمة لا يطالب أبداً بأن يدفع أكثر من اثنين بالمائة ، فالبرهمي يملك تلك القوة التي تجعل برق السماء يصعق الملك الذي يخاطر وينالـه أو يمس ممتلكاته . لأن أقل برهمي يسمو على الملك ويعلو عليه لدرجة أنه يدنس الحديث معه ، ويلوّث سمعته لو أن إحدى بناته اختارت الزواج من أمير . ولقد جاء في تشريع مانو : « لو أن أحداً تجرأ وحاول أن يُعلّم البرهمي واجباته ، فلا بدّ للملك أن يأمر بصبٍّ زيت مغلي في أذني مثل ذلك المعلم وفمه . ولو أن شخصاً ، من الذين ولدوا مرة واحدة فحسب ، أثخن بالملام شخصاً ولد مرتين ، فإنه ينبغي أن ينغرز في فمه قضيب من الحديد المحمى المتوهج طوله عشر بوصات . ومن ناحية أخرى فإنه يُحكَم على الفرد من طائفة « الشودرا » بأن ينغرز فيه من الخلف حديد ساخن متوهج لو أنه جلس على كرسي البرهمي ، وتقطع قدمه أو يده لو أنه دفع أحد البراهمة بيديه أو

برجليه . كما يسمح بالادلاء بالشهادة الزور أو بالكذب أمام المحكمة لـو كان ذلك يؤدي إلى إفلات البزهمي من الادانة .

لمّا كان البـراهمة يتمتعـون بمزايـا على الـطوائف الأخـرى ، فـإن هـذه الأخيرة بدورها تتمتع بمزايا طبقاً لأسبقية الصدارة على الـطوائف الأدنى . فلو أن فرداً من طائفة « الشودرا ..Sudra » تلوّث (أو دنس) بمـلامسته لشخص من طائفة البرايا Pariah فإن له الحق في أن يطرحه أرضـاً في الحال . فـالمحبة الانسانية من جانب الطائفة الأعلى تجاه الطائفة الأدنى ممنوعة تماماً ، ولا يمكن للبرهمي على الاطلاق أن يفكر في مساعدة عضـو من طائفـة أخرى حتى ولـو كان في خطر . وتعتبر الطوائف الأخرى اتخاذ البـرهمي زوجات لـه من بناتهم شرفاً عظيماً وهي مسألة لا يُسمَح له بها ، كما سبق أن ذكرنا ، إلاّ إذا كان قد اتخذ له بـالفعل زوجـة من طائفتـه هو . ثم تـظهر بعـدئذ حـرية البـراهمة في الاستمتاع بزوجات أخريـات . وهم يسيرون بـين الناس في الأعيـاد الدينيـة الكبيرة ويختارون من النساء ما يحلو لهم ، لكنهم أيضاً ينبذونهن متى شاؤ وا . ولو أن الرجـل البرهمي أو أي عضـو من أية طـائفة أخـرى خرق القـوانين ، والتعليمات التي أشير إليهـا فيما سبق فـإنه هـو نفسه يُعتبـر نفسه مـطروداً من طـائفته ، ولا بـدّ لكي تقبله هذه الـطائفة مـرة أخرى أن يمـرّ خـطاف ليثقب حقويه ويتـأرجح جيئـة وذهابـاً في الهواء عـدة مرات . وهنـاك أيضاً أشكـال أخرى من عملية استعادة الوضع السابق (للعضـو المطرود في طـائفته) فقـد أرسل أمير هنـدي ..Rajah[١٤] اعتقد أن الحـاكم الانجليزي أهـانه ـ أرسـل اثنين من البراهمة إلى انجلترا ليعرضا شكواه . لكن الهنود ممنـوعين من عبـور البحـر . ولهذا فقـد أعلن عقب عودة هـذين الـرسـولـين أنهما قـد طـردا من طائفتهما ولكي يستعيدا وضعهما السابق عليهما أن يـولدا من جـديد من بقـرة

---

(١٤) كلمة سنسكريتيـة تعني الملك أو الأمير ، وهي مشتقـة من الفعل Raj بمعنى يحكم أو يملك زمام الأمور ، ثم أصبحت لقباً يطلق على رفعة الشـأن وسمو المنـزلة في الهنـد . (المترجم) .

ذهبية . ولقد خفف هذا المطلب على شرط أن تكون الأجزاء التي سيزحفان منها من داخل البقرة هي وحدها الذهبية ويمكن أن تكون الأجزاء الأخرى من الخشب . وهذه العادات المتنوعة والطقوس الدينية التي تخضع لها كل طبقة أحدثت للانجليز عناء عظيماً خصوصاً لدى استخدامهم للجنود المتطوعين . فقد جُنِّد هؤلاء أولاً من طائفة الشودرا ..Sudra التي لا تخضع لمثل هذا العدد الكبير من المراسيم أو الطقوس . ولكنهم كانوا غير أكفّاء على الاطلاق ، ولذلك فقد تحولوا (أي الانجليز) في استخدامهم للجنود إلى طبقة الكشاترية ..Cshatriya وكان لهذه الطبقة عدد لا نهاية له من الأمور التي لا بدّ من مراعاتها فلا يجوز لهم أن يأكلوا اللحم ، أو يلمسوا جسداً ميتاً ، أو يشربوا من غدير شرب منه قطيع من الماشية أو يشرب منه الأوروبيون ، ولا يأكلون طعاماً طبخه الآخرون . . الخ . وكل مواطن هندي يقوم بعمل واحد فقط مما يضطر المرء أن يكون لديه عدد لا نهاية له من الخدم ـ ولهذا كان لدى الملازم ثلاثين خادماً ، وعند الرائد ستين . وهكذا نجد أن لكل طائفة واجباتها الخاصة ، وكلما كانت الطبقة أدنى قلّت الطقوس التي ينبغي عليها مراعاتها . ولّما كان وضع كل فرد يتحدد بميلاده فإن كل شيء عدا هذا الوضع المحدد الثابت ـ تحكمه القوة والهوى وتتناسب زيادة العقوبات في « تشريع مانو » مع ازدياد دونية الطائفة ، فضلاً عن التمييز في جوانب أخرى . فلو أن رجلاً من طائفة أعلى اتهم شخصاً من طبقة دنيا بلا دليل فإن الأول لا يعاقب لكن لو حدث العكس لكان العقاب قاسياً جداً . وحالات السرقة وحدها تُعدّ استثناء نادراً ، وفي هذه الحالة فإنه كلما ارتفعت الطائفة كانت العقوبة أقسى .

أمّا فيما يتعلق بالملكية الخاصة فإن للبراهمة ميزة كبرى هي أنهم يدفعون ضرائب ويحصل الأمير على نصف دخل أرض الآخرين والنصف الباقي عليه أن يكفي تكاليف الزراعة ومؤونة العاملين فيها . والمشكلة البالغة الأهمية هي ما إذا كانت الأرض الزراعية في الهند تُعتبر ملكاً للزراع أو ملكاً لِمَنْ يُسمَى بمالك المزرعة (أو العزبة) . ولقد صادف الانجليز أنفسهم

مشكلة كبرى في الحصول على فهم واضح لهذا الموضوع . لأنهم عندما فتحوا البنغال كان من الأهمية البالغة بالنسبة لهم أن يحددوا الطريقة التي تُفـرَض بها الضرائب على الأملاك . وكان لا بدّ لهم أن يعرفوا ما إذا كانت هذه الضرائب سوف تُفرض على الزراع المستأجرين أم على مالك الأرض . وقد فرضوها على الأخير ، لكن كانت النتيجة أن الملاك تصرفوا بطريقة بالغة التعسف : فاقصوا الزراع المستأجرين ، وأعلنوا أن هذه القطعة من الأرض أو تلك ليست صالحة للزراعة فظفروا باعفاءات ضريبية .. ثم أعادوا بعد ذلك الزراع المطرودين كعمال باليومية ، وبأجور منخفضة وزرعوا الأرض لصالحهم . ويُقسَّم الدخل الذي يدخل لأية قرية كله ، كما سبق أن ذكرنا ، قسمين أحدهما يخصص للأمير الهندي ..Râja والقسم الآخر للمزارع . كما أن هناك أيضاً أنصبة متناسبة توزع على عمدة المكان ..Provost ، والقاضي ، ومراقب الماء ، والبراهمي الذي يشرف على شؤون العبادة ، والمنجِّم (الذي هو كذلك أحد أفراد البراهمة وهو يعلن عن أيام السعد وأيام النحس) والحداد ، والنجار ، والخزّاف (صانع الفخّار) والرجل الذي يجمع الملابس لغسلها ، والحلاق ، والطبيب ، والراقصات من الفتيات ، والموسيقيّ والشاعر . وهذا الترتيب ثابت لا يتغير ، ولا يخضع لمشيئة أحد . ولهذا فإن جميع الثورات السياسية تمر على الهندي العادي بلا مبالاة لأن مصيره لا يتغير .

وهذا العرض للأوضاع الطبقية بين الطوائف يؤدِّي مباشرة إلى تأمل الدين ، لأن قيود الطبقة ليست كما لاحظنا من قبل ، دنيوية فحسب ، لكنها دينية أساساً ، فالبراهمة بمنزلتهم الرفيعة هم الآلهة نفسها في حاضر جسدي . ولقد جاء في قوانين مانو : « فليحذرْ الملك ، حتى في حالة الضرورة القصوى ، من إثارة البراهمة ضده ، إذْ في استطاعتهم تدميره بقوتهم - فهم الذين خلقوا النار ، والشمس ، والقمر . . الخ » وهم ليسوا خدماً لا لله ولا لشعبه لكنهم الإله ذاته بالنسبة للطوائف الأخرى - وهذا الأمر هو الذي يتسبب في الوضع المعكوس للروح الهندي فالوحدة الحالمة للروح والطبيعة ،

التي تجلب معها دوراً هائلاً في كل الأشكال والعلاقات قد سبق لنا أن تعرّفنا عليها بوصفها مبدأ الروح الهندي . ومن ثمّ فليست الميثولوجيا (الأساطير) الهندية سوى غلو في الخيال الجامح الذي لا يكون لشيء فيه شكل ثابت مستقر ، والذي يأخذنا على نحو مفاجىء من أكثر الأشياء وضاعة إلى أكثرها سمواً ، ومن أكثر الأشياء جلالاً إلى أكثرها فظاعة ونفوراً . وعلى ذلك فمن الصعب أيضاً أن نكتشف ما الذي يفهمه الهنود من براهمة . وفي استطاعتنا أن نأتي بتصور عن **الإله الأسمى** ، والواحد ، وخالق السماء والأرض ونطبقها على براهمة الهندي . ويختلف براهما ..Brahma عن براهمه ..Brahm ـ فالأول يؤلف شخصية واحدة إزاء فيشنو ..Vishnu وشيفا ..Siva ومن ثمَّ فكثيرون يطلقون على الموجود الأسمى الذي يعلو هذه الثلاثة ، لفظ **براهما الأعلى** **..Payabrahma** ولقد بذل الانجليز جهداً كبيراً للكشف عمّا يكون براهمه ..Brahm في حقيقة الأمر . فقد زعم ولفورد ..Wilford أن تصورات الهنود أدركت لونين من السماء : الأول هو الجنة الأرضية ، والثاني : السماء بالمعنى الروحي . وهناك طريقان مختلفان من طرق العبادة مطلوبان لبلوغ هذين اللونين . يتضمن أحدهما طقوساً خارجية وعبادة أوثان : أمّا الآخر فهو يتطلّب عبادة الموجود أو الكائن الأسمى بالروح ، فليس ثمة حاجة ، (في هذا الطريق) إلى تقديم القرابين أو التطهّر ، أو الحج إلى الأماكن المقدسة . ولا يوجد سوى فئة قليلة من الهنود لديها الاستعداد للأخذ بالطريقة الثانية لأنهم لا يستطيعون أن يفهموا ما هي متعة أو بهجة السماء الثانية ، ولو سُئل الهندوس ..Hindu عمّا إذا كان يعبد الأصنام أو الأوثان فسوف يجيب كل واحد منهم : « نعم ! » لكنه سيجيب « لا » ، إذا ما سُئل : « هل تعبد الموجود الأسمى ؟ » ولو سئل أكثر من ذلك : « ماذا تفعلون إذنْ ، ماذا يعني ذلك التأمل الصامت الذي يتحدث عنه بعض العلماء عندكم ؟ » فسوف يجيب : عندما أصلي لمجد أحد الآلهة أجلس على الأرض وقدم كل ساق على فخذ الأخرى ، ناظراً إلى السماء ، مرتفعاً بأفكاري في سكون ، وأشبك يدي مع بعضهما في صمت ، ثم أقول أنا براهمه الموجود الأسمى . فنحن لا نعرف

عن وعي أننا براهمه بسبب المايا Maya (أو الوهم الذي يحدثه العالم الخارجي) وممنوع أن نصل له ، وأن نقدم له القرابين لأن ذلك يعني أننا نعبد أنفسنا . ومن ثمّ فنحن في كل حالة لا نتضرّع إلاّ إلى فيوضات براهمه . ولو أننا ترجمنا هذه الأفكار بطريقتنا الخاصة في التفكير لقلنا إذنْ أن براهمة هو الوحدة الخالصة للفكر ذاته ـ أو أنه في ذاته هو الله في وجوده البسيط . فهو لا يعبد ولا تخصص له معابد . وبالمثل في الديانة الكاثوليكية نجد أن الكنائس لا تُنسَب إلى الله بل للقديسين ولقد اعتقد بعض الانجليز الآخرين من الذين كرّسوا أنفسهم لدراسة تصور « براهمه » أن براهمه وصف بغير معنى يطبق على جميع الآلهة حتى أن فيشنو يقول « أنا براهمه » والشمس والهواء ، والبحار تُسمى أيضاً براهمه . وعلى هذا الأساس فإن براهمه هو الجوهر البسيط الذي يتفرّع حسب طبيعته ذاتها إلى تنوعٍ لا حدٍ له من الظواهر المتعددة . لأن هذا التجريد ، هذه الوحدة الخالصة ، هي ما يكمن في أساس الكل ـ هي أصل الوجود المتعين كله . وفي العلم بهذه الوحدة تزول كل موضوعية للأشياء ، لأن المجرد هو العلم ذاته في أعظم خواءٍ له .

ولكي نبلغ موت الحياة أثناء الحياة ذاتها ، ولكي نصنع هذا التجريد ، فإن ذلك يتطلب اختفاء كل نشاط أخلاقي ، وكل إرادة أخلاقية ، واختفاء كل علم أيضاً ، كما هي الحال في ديانة « فو ..Fo » ، ولبلوغ ذلك يقوم المرء بالتكفير أو التوبة التي سبق أن تحدثنا عنها .

ولا بدّ أن نبحث في المضمون العيني الذي يخص تجريد براهمة ، لأن مبدأ الديانة الهندية هو « ظهور الفروق أو التمييزات » (في تجسّد الآلهة) ، وهذه إذنْ تقع خارج تلك الوحدة المجردة للفكر ، وهي بوصفها منحرفة عنها تشكل فروقاً أو تمييزات حسية ، أو تمييزات في الفكر في صورة حسية مباشرة . وبهذه الطريقة فإن المضمون ..Inhalt يكون مضموناً بلا روح ومتفرقاً في غير انتظام بدون أن يعود إلى المثالية الخالصة لبراهمة . ومن هنا كانت الآلهة الأخرى أشياء حسية : كالجبال والأنهار ، والحيوانات ، والشمس ، والقمر ، ونهر الكنج . **والمرحلة الثانية** : هي تركيز هذا التنوع

المضطرب في فروق جوهرية ، وادراكها بوصفها ذوات إلهية ، وبهذه الطريقة يتميز « فيشنو » ، و« شيفا » ، و« مهاديفا » ..Mahadeva عن « براهما » ..Brahma . وتظهر في صورة « فيشنو » تلك التجسيدات التي يظهر فيها الله بوصفه انساناً ، وهذه الصيرورة إلى البشر تتمثل في شخصيات تاريخية تحدث التغييرات وتؤسس عهوداً جديدة . وقوة الاخصاب أو الانجاب هي بدورها صورة أو شكل جوهري . ويوجد في الباغودات الهندية ..Pagodas(١٥) رمزاً للقضيب المقدس (عند الإله شيفا) يشير إلى قوة الإخصاب عند الذكر ، كما أن زهرة اللوتس Lotus كانت ترمز لقوة الانجاب عند الأنثى Vis Procreandi.. .

وتتفق هذه الثنائية المتمثلة في الوحدة المجردة من ناحية والخاصية الحسية المجردة من ناحية أخرى ـ مع صورة مزدوجة من صورة العبادة ، أي في علاقة الذات البشرية بالله ، ويتمثل أحد جوانب هذه العبادة في تجريد الغاء الذات الغاء خالصاً ، أي في القضاء على الوعي الذاتي الحقيقي ، وهذه سلبية تتجلّى إذنْ في الغيبة المتبلدة عن الوعي من ناحية ، وفي الانتحار ، والقضاء على الحياة بواسطة انزال ألوان العذاب بالنفس ، من ناحية أخرى . ويتمثل الجانب الآخر من العبادة في الانغماس المسرف في المجون ، وفي اختفاء كل احساس بالفردية من الوعي بواسطة الاغراق فيما هو طبيعي ، والذي تضعه الذات على هذا النحو في هوية واحدة معها مدمّرة وعيها بتميزها عن الطبيعة . ولهذا فإنك تجد في كل الباغودات (أي المعابد) الهندية الفتيات العاهرات والراقصات اللاتي يعلمهن البراهمة بعناية فائقة كيفية الرقص في أوضاع جميلة وحركات جذّابة ، واللاتي يجب عليهن الإذعان لرغبات الوافدين جميعاً لقاء أجر معلوم معين . ولا يمكن هنا أن يكون هناك مجال اطلاقاً للحديث عن نظرية بصدد علاقة الدين بالأخلاق ، فخيال

---

(١٥) هيكل هندي مخصص للعبادة يتألف من عدة أدوار ، وهو منتشر أيضاً في الصين وفي جزر اليابان (المترجم) .

الرجل الهندي يتصور من ناحية ، الحب ، والسماء ، وكل ما هو روحي ، لكن تصوراته تتجسّد ، من ناحية أخرى ، على نحو حسي واقعي ، فهو ينغمس عن طريق السكر الشهواني فيما هو طبيعي محض . وعلى ذلك فالأشياء أو الأدوات الدينية هي إمّا أشكال قبيحة مقززة ينتجها الفن ، وإمّا أشياء طبيعية . فكل طائر وكل فرد هو الإله الحاضر ، أي موجود عام تماماً .

ويعجز الرجل الهندي عن أن يعي موضوعاً ما في تحديدات عقلية خاصة ، لأن ذلك يحتاج إلى تفكير تأملي ، في حين أن العام يتحول على نحو خاطىء إلى تموضع حسي ، والأخير أيضاً يُنتزع من طابعه المعين إلى الكلية ـ عملية يفقد بواسطتها أساسه ويمتد إلى اللاتعين .

لو واصلنا السير لنسأل إلى أي حد يدع الدين لأخلاق الهنود فرصة للظهور ، فلا بدّ أن يكون الجواب أن الأول (أي الدين) مقطوع الصلة بالأخير (أي الأخلاق) مثلما هو الحال في بعد براهمة عن مضمونه العيني (الذي هو ماهيته) ، ومن ثم فهو جوهر المعرفة والارادة ، وهذه تحصل على التحديد الذي ينبغي أن يكون مرآة لهذا الجوهر الأساسي . لكن ذلك يتطلّب أن تكون هذه الماهية نفسها ذاتاً لها غايات إلهية ، يمكن أن تصبح مضموناً للسلوك البشري . ولكن مثل هذه الفكرة عن علاقة ماهية الله بوصفها جوهراً عاماً للسلوك البشري ـ ومثل هذه الأخلاق لا يمكن أن توجد بين الهنود : لأن الروحي لا يشكل عندهم مضمون وعيهم ، وتتمثل فضيلتهم من ناحية في التجرد من كل نشاط ـ الحالة التي يسمونها « وجود براهمة » . وكل فعل عندهم من ناحية أخرى هو عادة خارجية مفروضة ، وليس نشاطاً حراً نتيجة لشخصية باطنية . وهكذا يتبين الوضع الأخلاقي عند الهنود كما سبق القول ـ على أنه أكثر الأوضاع انحطاطاً أو فساداً . ويتفق الأنجليز جميعاً على ذلك . وحكمنا على أخلاقيات الهنود قد يتأثر بسهولة عن طريق أوصاف اللطف والرقة ، والخيال الجميل المفعم بالأحاسيس ، لكن لا بدّ أن نضع في اعتبارنا أنه توجد جوانب في شخصية الأمم المنهارة تماماً يمكن أن نقول عنها إنها رقيقة ونبيلة . وعندنا قصائد صينية توصف فيها أرق

علاقات الحب ، وتصور العاطفة العميقة ، والتواضع ، والحياد والأدب والاحتشام ويمكن أن نقارنها بأروع ما تشتمل عليه الآداب الأوروبية . ونلتقي بهذه الخصائص نفسها في كثير من الأعمال الأدبية الهندية . غير أن الاستقامة والأخلاق وحرية الروح ، والوعي بالحق الفردي ، هي أمور مختلفة عن ذلك أتم الاختلاف . فالقضاء على الوجود الروحي والمادي ليس فيه شيء عيني في ذاته والاستغراق في الكلي المجرد لا صلة له بالواقع . والخداع والمكر هما الخاصيتان الأساسيتان للرجل الهندي ، فالغش ، والسرقة والسلب ، والاغتيال هي بالنسبة له أمور عادية مألوفة تكمن في عاداته وأعرافه . وهو يحني رأسه في مذلة ومهانة أمام المنتصر وأمام السيد ، وهو متوحش قاس تماماً لا يبالي شيئاً إزاء المغلوب وإزاء مَنْ هو أدنى منه . وصفة الانسانية عند الرجل الهندي تتلخص في أنه لا يقتل الحيوان الأعجم ويؤسس ويدعم المستشفيات الفخمة للدواب لا سيما للمسن من البقر والقردة ـ لكنك لو جُبت البلاد طولاً وعرضاً لما وجدت مؤسسة واحدة للموجودات البشرية المريضة أو العاجزة بسبب الشيخوخة . والهنود لا يدوسون فوق النمل لكنهم لا يكترثون بتاتاً عندما يموت الفقراء المتجولون جوعاً أو عطشاً والبراهمة بلا أخلاق على وجه الخصوص(١٦) . وطبقاً للتقارير الانجليزية فهم لا يفعلون شيئاً سوى الأكل والنوم ، وفي الأمور التي لا تحرِّمها عليهم قواعد النظام الموروث فإنهم يستسلمون تماماً لدوافعهم الطبيعية . ويبدون ، إذا ما احتكوا بأي جانب من جوانب الحياة العملية ـ طمّاعون ، مخادعون ، شهوانيون ، أمّا بالنسبة لأولئك الذين يكون لديهم ما

---

(١٦) والأوربيون ، والأمريكيون على وجه الخصوص ، أيضاً ! فهم في القرن العشرين يقتلون آلاف البشر وملايينهم في كوريا وفيتنام ويحيكون المؤامرات والدسائس في الهند وباكستان والشرق الأوسط ويحاولون الوصول إلى أهدافهم بأحط السبل ، في الوقت الذي يدللون فيه القطط والكلاب وينشئون لها المستشفيات والملاجيء ويورثونها ويقفون عليها الأملاك ويتركون مناطق كثيرة من العالم ، أو الموجودات البشرية على حد تعبير هيجل ـ تتضوَّر جوعاً . . ! (المترجم) .

يبرر الخوف منهم ، فإنهم يبدون متواضعين بما فيه الكفاية ، لأنهم ينتقمون لأنفسهم من التابعين لهم . ويقول أحد الانجليز : « إنني لم أجد بينهم رجلاً شريفاً فالأطفال عندهم لا يحترمون آباءهم ، والأبناء يسيئون معاملة أمهاتهم » .

ولو أننا تحدثنا هنا بالتفصيل عن الفن الهندي والعلم الهندي فسوف يبعدنا ذلك جداً عن سياقنا ، لكن في استطاعتنا أن نسوق ملاحظة عامة وهي أن المعرفة الدقيقة لقيمة كل منهما قد قلّلت تقليلاً هاماً من الحديث الكثير عن الحكمة الهندية . وطبقاً للمبدأ الهندي للمثالية الخالصة التي تنكر الذات تماماً ، وطبقاً للمبدأ الهندي للتمييزات التي هي حسية يتبين كيف يمكن أن يتكون فكر مجرد فحسب وخيال . وهكذا تقدمت ، على سبيل المثال ، قواعد النحو عندهم إلى درجة عالية من التنظيم المتسق ، لكن من العبث البحث هنا عن المضمون الجوهري للعلوم والأعمال الفنية . وعندما سيطر الانجليز على البلاد بدأت مهمة اكتشاف الحضارة الهندية . وكان وليم جونز ..W. Jones أول مَنْ قام بالبحث عن قصائد العصر الذهبي . ولقد عرض الانجليز بعض المسرحيات في كلكتا ، وقد أدّى ذلك إلى عرض البراهمة أيضاً مسرحيات درامية مثل قصة « شاكوتنالا » التي كتبها الشاعر الهندي كاليداسا ..Calidasa(١٧) . . الخ .

ولقد كان هناك حماس جارف عند اكتشاف الحضارة الهندية أدّى إلى المبالغة الشديدة في سموها ، وكالعادة عندما يكتشف المرء ألواناً جديدة من الكنوز فإنه ينظر باحتقار إلى الألوان القديمة التي يملكها ولقد كانت تلك هي

---

(١٧) شاعر ومؤلف مسرحي هندي ، يُعدّ أهم شخصية في الأدب السنسكريتي الكلاسيكي . بقيت من آثاره ثلاث مسرحيات أشهرها شاكوتنالا ، وله ملحمتان يتغنى فيهما بجمال الطبيعة ، ممزوجاً ببعض مناظر القتال ، وله شعر غنائي قصير كثير . أشهر قصائده السحابة والرسول « وريتو سمهارا » ويصف فيها فصول السنة الستة ، حسبما كان الهنود قديماً يقسمون عامهم (المترجم) .

الحال فقد قوبل فن الشعر الهندي والفلسفة الهندية باطراء بالغ رفعهما فوق الشعر والفلسفة اليونانية ، وأكثر الوثائق أهمية بالنسبة لنا هي الكتب الدينية الأساسية والقديمة للهنود ولا سيما أسفار الفيدا ..Vèdas وهي تشتمل على أقسام كثيرة ، والقسم الرابع منها أكثر حداثة من غيره وهو يتألف من ناحية من الصلوات الدينية ، ومن ناحية أخرى من الطقوس التي يجب على الناس مراعاتها . ولقد انتقلت بعض المخطوطات من أسفار الفيدا إلى أوروبا رغم أنه يندر جداً أن تكون في صورة كاملة . وهي مكتوبة على سعف النخيل ومحفورة بابرة . لكن من الصعب جداً فهم الفيدا حيث أنها مكتوبة في عهود موغلة في القدم ، ولغتها هي لغة سنسكريتية قديمة جداً . ولقد ترجم كولبروك ..Colebrocke جزءاً منها ، لكن ربما اعتبر هذا الجزء نفسه مستمداً من شروح وهذه الشروح موجودة بكثرة(*) . ولقد وصلت إلى أوروبا أيضاً قصيدتان غنائيتان عظيمتان هما « رامايانا » ..Ramayana و « مهابهاراتا » ..Mahabharata(**) . وطبعت ثلاثة مجلدات من قطع الربع والمجلد الثاني نادر للغاية. وبالاضافة إلى هذه الكتب لا بدّ من الاشارة بوجه خاص إلى كتب الهندوس الدينية « بوراناس ..Puranas »(١٨) . وهي تحتوي على تاريخ إله أو معبد وهي خيالية تماماً . وهناك كتاب كلاسيكي هندي آخر هو تشريع مانو ..Manu ولقد قورن هذا المشرِّع الهندي بـ « مينوس الكريتي » وهو اسم يتردد أيضاً بين المصريين ، ولا شك أن ظهور هذا الاسم نفسه وانتشاره له أهميته

(*) لقد بذل بروفسور روزن ..Rosen ، المقيم في لندن ، منذ وقت حديث فقط غاية جهده في هذا الموضوع وقدّم لنا نماذج من النص مع ترجمة لها وذلك في كتابه « نماذج من الرج فيدا » نشرها روزن في لندن عام ١٨٣٠ ، ثم نشرت الرج فيدا كلها بعد ذلك في لندن عام ١٨٣٩ من المخطوطات التي خلّفها روزن بعد وفاته . (من هوامش الطبعة الألمانية) .

(**) نشر أ . ف . ف . شليجل المجلد الأول والثاني . ومعظم أحداث المهابهاراتا وأكثرها أهمية قدّمها د . بوب للرأي العام ، ثم ظهرت الطبعة الكاملة في كلكتا (ناشر الطبعة الألمانية) .

(١٨) بوراناس هي الكتب الدينية للهندوس من القرون الأولى بعد المسيح . (المترجم) .

فلا يمكن أن يُعزى للصدفة . ويشكل تشريع مانو للأخلاق (وقد نشره سير وليم جونز ..Sir W. Jones مع ترجمة انجليزية في كلكتا) أساساً للتشريع الهندي ، وهو يبدأ ببحثٍ عن أصل الآلهة لا يختلف اختلافاً كبيراً عن التصورات الميثولوجية عند الشعوب الأخرى فحسب كما هو متوقع ، لكنه أيضاً ينحرف انحرافاً أساسياً عن التراث الهندي نفسه . لأنه هنا أيضاً (أي في التراث الهندي) لا يوجد سوى بعض السمات الرئيسية التي تنتشر في الكل ، أمّا كل شيء عدا ذلك فهو متروك للصدفة والنزوة والهوى ولهذا يجد المرء دائماً وباستمرار التقاليد والتراث والأشكال والأسماء في صور متباينة أعظم التباين . ومن الأمور المجهولة وغير المحدودة أيضاً على نحو تام الزمن الذي أُلِّف فيه تشريع مانو . أمّا تراثهم فهو يجاوز ثلاثة وعشرين قرناً قبل ميلاد المسيح : وهو يذكر أسرة مالكة من أبناء الشمس يليها أسرة مالكة من أبناء القمر . وهكذا يتأكد أن التشريع الذي نتحدث عنه بالغ القدم ، ولقد كانت معرفته على أعظم قدر من الأهمية للانجليز لأن معرفتهم للقانون الهندي تعتمد على معرفة هذا التشريع .

بعد أن أشرنا إلى المبدأ الهندي في التمييز بين الطوائف ، في الدين والأدب ، لا بدّ أن نشير أيضاً إلى نمط وشكل وجودهم السياسي ، أعني مبدأ الدولة الهندية . فالدولة هي تحقق فعلي للروح ، يتمثل في أن يتحقق للروح الوجود الواعي لذاته أي تتحقق حرية الارادة بالفعل بوصفها قانوناً . وهذا يفترض مقدماً ، بالضرورة ، الوعي بالارادة الحرة . لقد كانت الارادة الأخلاقية للإمبراطور هي القانون في الدولة الصينية : لكن الحرية الذاتية ، الباطنية كانت بذلك مكبوتة ، وقانون الحرية لا يحكم الأفراد (في الصين) إلّا من خارج الأفراد .

أمّا في الهند فهناك مرحلة أولية لباطنية الخيال أي وحدة ما هو طبيعي وما هو روحي والطبيعة في هذه الوحدة لا تتمثل بوصفها عالماً معقولاً ، كما لا تتمثل الروح كوعي ذاتي في مقابل الطبيعة . فلا وجود هنا للتناقض في المبدأ (المذكور آنفاً) . كذلك فإن الحرية بوصفها إرادة مجردة بذاتها وبوصفها

حرية ذاتية في آن معاً لا وجود لها . وبذلك فإن الأساس الحقيقي للدولة أي مبدأ الحرية لا وجود له على الإطلاق . ومن ثمّ فلا يمكن أن يكون هناك دولة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . وهذه أول نقطة (ينبغي أن نلاحظها) وإذا كان لا يمكن النظر إلى الصين إلاَّ على أنها دولة ، فإن الوجود السياسي الهندي يجعلنا نلتقي بشعب فحسب . لكننا لا نلتقي بدولة . ثانياً : على حين أننا نجد في الصين استبداداً أخلاقياً فإن هذا الذي يمكن أن يُسمى بالحياة السياسية في الهند ، هو استبداد بغير مبدأ وبلا قاعدة من الأخلاق والدين : لأن الأخلاق والدين بمقدار ما يتعلق الأخير بالسلوك البشري يتطلبان باطلاق وجود حرية الارادة كأساس وقاعدة أو شرط لهما . ومن ثم يوجد في الهند أكثر ألوان الاستبداد تعسفاً وفساداً وانحطاطاً . والصين ، وفارس ، وتركيا ، وآسيا بصفة عامة ، هي مسرح للاستبداد والطغيان بمعناه السيىء . لكنه يُنظَر إليه على أنه مضاد للنظام السليم للأشياء ويستهجنه الدين والوعي الأخلاقي عند الأفراد .

ويثير الطغيان في تلك البلدان امتعاض الناس فهم يمقتونه ويئنون تحته بوصفه عبئاً ، فهو بالنسبة لهم ليس ضرورة لكنه صدفة عارضة وشذوذاً ، وينبغي ألاّ يكون . لكنه في الهند شيء عادي لأنه لا يوجد هنا أي احساس ذاتي بالاستقلال الشخصي يمكن أن يقارن بينه وبين الاستبداد ، والذي من شأنه أن يثير في النفس تمرداً ، وليس هناك ما يتضمن احساساً سلبياً مضاداً سوى الألم الجسدي ، وألم الحرمان من الحاجات الضرورية ومن المتعة والبهجة .

ولهذا ففي حالة مثل هذا الشعب ينبغي ألاّ نبحث عمّا نسميه تاريخاً بمعنى مزدوج ، وهاهنا يتجلّى الفارق بين الصين والهند أوضح ما يكون، فعند الصينيين أعظم قدر من الدقة لتاريخ بلادهم ولقد سبق أن ذكرنا المؤسسات والتنظيمات التي اتخذت في الصين بحيث يقيد كل شيء بدقة في حولياتهم وكتب تاريخهم . أمّا في الهند فإن ما يحدث هو عكس ذلك تماماً ، على الرغم من أن المكتشفات الحديثة لكنوز الآداب الهندية قد كشفت عن السمعة التي

اكتسبها الهنود في الهندسة وعلم الفلك ، وعلم الجبر - وأنهم أحرزوا خطوات متقدمة في الفلسفة وأن علم النحو ارتقى عندهم لدرجة أنك لا تجد لغة قد تطورت تطوراً أكمل من اللغة السنسكريتية ؛ فإننا نجد جانب التاريخ قد أهمل تماماً أو بالأحرى لا وجود له ، لأن التاريخ يتطلّب الفهم ، أي القدرة على النظر إلى الموضوع لذاته في ضوء موضوعي مستقل ، وفهمه فهماً شاملاً في صلته العقلية بالموضوعات الأخرى ، ولذلك فالشعوب القادرة على أن يكون لها تاريخ ، وعلى أن يكون لها أدب ..Prosa واقع بصفة عامة ، هي وحدها تلك الشعوب التي وصلت إلى تلك المرحلة من التطور (ويستطيعون جعلها نقطة بداية لهم) التي يستطيع الأفراد عندها أن يفهموا وجودهم الخاص لذاته فهماً شاملاً بوصفه وجوداً مستقلاً بحيث يكون للأفراد وعي ذاتي .

ينبغي علينا أن نقدّر الصينيين حسب المستوى الذي وصلوا إليه وما قاموا به بأنفسهم في مجموع دولتهم وقد بلغوا بذلك على هذا النحو مستوى الوجود المستقل من الطبيعة ، والنظر أيضاً إلى الموجودات أو الأشياء على أنها متميزة عنهم ، وادراكها على نحو ما هي بالفعل في تعيّنها وفي علاقاتها . أمّا الهنود فهم ، على العكس من ذلك ، يستسلمون بالميلاد لمصير قد حُدِّد لهم تحديداً جوهرياً ، في حين ترتفع روحهم في نفس الوقت إلى المثالية ..Ideality لدرجة أنهم يمثلون التناقض حيث يذيبون التحديد أو التعين العقلي الثابت في مثاليتهم ..Ideality ومن ناحية أخرى ينحدرون بهذه المثالية إلى أشكال من التمييزات الحسية ، ولقد جعلهم ذلك عاجزين عن كتابة التاريخ ، فكل ما يحدث يتبدد في أذهانهم إلى أحلام غامضة . وما نسميه بالحقيقة التاريخية - وبالصدق التاريخي ، والفهم العقلي الشامل للأحداث فهماً له معنى ومدلول ولأمانة العرض كل هذا لا مجال للبحث عنه لدى الهنود . وقد يُفسر هذا النقص ، من ناحية بهياج الأعصاب وضعفها عندهم فذلك يمنعهم من الاحتفاظ بموضوع ما في أذهانهم وفهمه فهماً راسخاً ، إذْ يوجد في طريقتهم في فهمه تحوّله إلى حلم محموم بسبب حساسيتهم ، وخيالهم ، ومن ناحية

وفتح البلاد كلها تقريباً[٢٢] . وجعل مركز إقامة مملكته غرب كابول ..Cabul وفي بلاطه عاش الشاعر الفردوسي[٢٣] وسرعان ما أبيدت الأسرة الغزنوية الحاكمة تماماً ، عن طريق الأفغان ثم فيما بعد عن طريق المغول . وفي العصور الحديثة خضعت الهند كلها تقريباً للأوروبيين . ومن ثمّ فما هو معروف عن التاريخ الهندي قد أصبح معروفاً في الأعم الأغلب خلال قنوات أجنبية . فلا يقدم لنا الأدب القومي سوى معطيات غير متميزة ، ويؤكد لنا الأوروبيون استحالة الخوض في وحل الأخبار الهندية ـ ويمكن الحصول على معلومات محددة أكثر من ذلك من الآثار والوثائق لا سيما من الاهداءات المكتوبة الخاصة بقطعة من الأرض للباغودات والآلهة ، لكن مثل هذا اللون من المعلومات لا يزودنا أيضاً إلا بمجرد الأسماء .

---

(٢٢) محمود الغزنوي (٩٧١ ـ ١٠٣٠) فاتح أفغان تقوم شهرته على غزواته المتكررة للهند ، ورث قوته العسكرية عن أبيه سبكتكين . كان أبوه مملوكاً تركياً لدى ألب تكين، الذي كان حاكماً على خُراسان، ثم قبض على زمام الأمور في غزنة، وأسس لنفسه حكماً فيها. وفي عام ٩٧٧ (٣٦٦ هـ) حكم سبكتكين غزنة بعد أن تزوج ابنة ألب تكين وجعل نفسه سيداً على كل منطقة أفغانستان والبنجاب، وكان يرافقه في حروبه ابنه محمود. وفي عام ٩٩٤ أصبح محمود حاكماً على خراسان، وبعد ذلك بعامين مات أبوه في بلخ ، وكان قد أعلن أن يخلفه ابنه الثاني اسماعيل الذي كان معه آنذاك ، لكن محموداً طلب إلى أخيه أن يقتسما ممتلكات أبيهما فرفض فهاجمه محمود وهزمه ، وأصبح محمود حاكماً على خراسان وغزنة (٩٧٧) . بلغت الدولة الغزنوية في عصره أقصى اتساعها إذ غزا الهند ، واستولى على مناطق واسعة بها ، أهمها البنجاب . نشر الاسلام ، وكان مشجعاً للآداب والفنون ، خلفه ابنه مسعود ، الذي حارب السلاجقة ولكنهم هزموه (١٠٤٠) . وأخذت دولة الغزنويين في التقلص حتى انحسر نفوذها عن إيران . (المترجم) .

(٢٣) هو أبو القاسم الفردوسي (٩٣٢ـ١٠٢٠) أشهر شعراء إيران ، مؤلف « الشاهنامة » الملحمة التي سجلت أمجاد ملوك الفرس في حوالي ٦٠ ألف بيت وهي تحوي قسماً جغرافياً يتناول القصص الشعبي وقسماً تاريخياً يتناول الدولة الساسانية ، حرص على تجنب استخدام الكلمات العربية فيها وأتمها أيام السلطان محمود الغزنوي ، والشاهنامة مترجمة إلى كثير من اللغات منها العربية ـ ونظم الفردوسي أيضاً « يوسف وزليخة » في ١٨ ألف بيت (المترجم) .

وهناك مصدر آخر للمعلومات هو الكتابات الفلكية وهو مصدر قديم جداً ، ولقد درس كولبروك ..Colebrooke بعناية واتقان هذه الكتابات ولكنه يصعب جداً الحصول على المخطوطات لأن البراهمة يعتبرونها سرية للغاية ، وفضلاً عن ذلك فقد حرفت المخطوطات عن طريق اضافات كبيرة . وقد نتج عن ذلك أن البيانات المتعلقة بأوضاع النجوم غالباً ما تتناقض مع بعضها ، وأن البراهمة حرّفوا هذه الأعمال القديمة بأنْ أدخلوا فيها أحداثاً ترجع إلى عصرهم هم . صحيح أن الهنود لديهم قوائم واحصاءات بملوكهم لكن حتى هذه أيضاً يتجلّى فيها أكبر قدر من العشوائية ، لأننا كثيراً ما نجد قائمة تضم عشرين ملكاً أكثر من قائمة أخرى ، وحتى في حالة ما إذا كانت هذه القوائم صحيحة فإنها لا تستطيع أن تشكل تاريخاً . فليس لدى البراهمة ضمير اطلاقاً فيما يتعلق بالحقيقة ، ولقد حصل كابتن ولفورد ..Wilford على مخطوطات من جميع الأماكن بتكاليف كثيرة وجهد كبير وجمع عدداً كبيراً من البراهمة وكلّفهم بكتابة مقتطفات من هذه الأعمال والقيام بأبحاث حول أحداث مشهورة معينة ، عن آدم وحواء ، وعن الطوفان . . الخ ؛ ولكي يرضي البراهمة مستخدمهم كتبوا كلاماً من النوع المطلوب دون أن يكون هناك شيء من هذا القبيل في المخطوطات ، ولقد كتب « ولفورد » عدداً كبيراً من البحوث حول هذا الموضوع حتى اكتشف أخيراً أنه خُدع وأن مجهوده كان عبثاً لا طائل تحته . صحيح أن للهنود عصراً محدداً وهم يحسبونه ابتداء من فكراميدتيا ..Vicramàditya الذي عاش في بلاطه الرائع الشاعر كاليداسا ..Calidasa مؤلف شاكونتالا ..Sacontala . وعاش في ذلك العصر بصفة عامة أعظم الشعراء نبوغاً وتفوقاً . «كانت هناك تسع لآلىء»[٢٤] في بلاط فكراميدتيا ..Vicramàditya كما يقول البراهمة : لكننا لا نستطيع تفحص زمن وجود هذه الأبهة والروعة . فآراء مختلفة تؤكد أنه كان في عام ١٤٩١ ق . م . وآراء أخرى تذهب إلى أنه كان في عام ٥٠ ق . م . وهذا

---

(٢٤) هذه اللآلىء التسع يقصد بها هنا تسعة من أنبغ الشعراء . (المترجم) .

أخرى فإن الصدق هو الضد المباشر لطبيعتهم ، فهم يكذبون عن علم وعن عمد حيث لا يكون الأمر متعلقاً بسوء الفهم . وكما أن الروح الهندي عبارة عن حالة ذهنية حالمة وتصور خيالي ، أي وجود ذائب عارض عن الذات ، فإن الموجودات تنحلُّ أمامه أيضاً إلى صور غير حقيقية وإلى أمور لا حدود لها . وهذه السمة تميزه تمييزاً مطلقاً . وذلك هو وحده الذي يمكننا من أن ندرك الروح الهندي في تعينه وأن نستنبط منه كل ما سبق أن ذكرناه(١٩) .

لكن التاريخ هو باستمرار على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لأي شعب من الشعوب فبواسطته يصل إلى الوعي بطريق روحه الخالص والذي يُعبِّر عن نفسه في القوانين ، والعادات والعرف ، والأعمال . والقوانين بوصفها عادات ومؤسسات هي بالطبيعة العنصر الدائم بصفة عامة . لكن التاريخ يعطي للشعب صورته (أي صورة هذا الشعب) في حالة من الحالات التي تصبح بذلك موضوعية بالنسبة للشعب . وبدون التاريخ سيكون وجود هذا الشعب في الزمان ليس سوى وجود هو في ذاته وجود أعمى ، ولعبة متكررة للارادة العشوائية في أشكال متعددة . كما أن التاريخ يثبّت ويضفي اتساقاً على هذا المجرى العفوي للأحداث ويعطيه صورة الكلية ، وهو بذلك يضع القاعدة لهذه الأحداث العفوية أو ضدها . والتاريخ حلقة وسطى جوهرية في تطور الدستور وتحديده ـ أعني الوضع السياسي العقلي ، لأنه المنهج التجريبي لانتاج الكلي ، ولأنه يضع ما هو ثابت أمام التصور . ولمّا كان الهنود ليس لهم تاريخ في صورة حوليات (تاريخ للأحداث Historia) فهم لذلك ليس لديهم تاريخ بوصفه أعمالاً

---

(١٩) واضح أن هيجل يتحامل تحاملاً كبيراً على الروح الهندي لكي يصل في النهاية إلى أنه « ضد » الروح الصيني ، فإذا كانت الصين تمثل : الوحدة ، والدقة ، والنظام ، في تسيير أمور الدولة . . الخ . فإن الهند تمثل التفكك والانحلال . . الخ . لكن التحامل يصل إلى أقصاه حين يجعل قول الصدق « ضد طبيعتهم » لأنهم يكذبون عن علم وعن عمد فهم قوم كذّابون بطبيعتهم . وذلك كله حتى يتسق سير التاريخ مع فكرته ! (المترجم) .

Ves gestae.. أعني أنـه ليس هنـاك نمـو يمتـد ويتحـول إلى وضـع سيـاسي حقيقي .

الفترات الزمانية مذكورة في الكتـابات الهنـدية ، وكـذلك أعـداد كبيرة غالباً يكون لها معنى فلكـيّ، لكنها وضعت في الأعم الأغلب بـطريقة تعسفيـة تماماً ، ومن ذلك أنهم يروون عن بعض الملوك أنهم حكمـوا ٧٠ ألف سنة أو أكثر . ويُقال إن بـراهما ..Brahma الـذي هو أول شخصيـة في نشأة الكـون والذي أنتج نفسه قد عاش ٢٠ ألف سنة . . الخ . وتُذكَر أسماء لا حصر لها لملوك من بينهم تجسيـدات فيشنو ..Vishnu . ولا بـدّ أن يكون أمـراً مضحكاً أن ننظر إلى مثل هذه الأحداث على أنها شيء تاريخي ، وكثيراً ما يتحدثون في قصائدهم عن الملوك : وقد يكون هؤلاء شخصيات تاريخية لكنها تختفي تماماً في حكايات خرافية ، فهم ـ على سبيل المثال ـ قد انعزلوا تمـاماً عن العـالم ثم ظهروا مرة أخرى بعد أن قضـوا عشرة آلاف سنـة في العزلـة . ومن هنا فـإن الأرقام المذكورة ليس لها القيمة ولا المعنى العقلي اللذان لهما لدينا .

ومن هنا فإن أقـدم وأوثق المصادر في التـاريخ الهنـدي هي ملاحـظات المؤرخين اليونانيين بعد أن فتح الاسكندر الأكبر الطريق إلى الهند فقد عرفنـا من هذه المصادر أن كل المؤسسات كانت في ذلك التـاريخ المبكـر قائمـة على نحو ما هي عليـه الآن ، وقد خص بـالذكـر سانـدركيتس (Chandragupta) ..Santaracottus[٢٠] بوصفه الحاكم الممتاز في الجزء الشمالي من الهنـد الذي امتدت إليه مملكة بقطرية ..Bactrian[٢١] . ويزودنا مـؤرخو المسلمين بمصدر آخر للمعلومات ، لأن المسلمين بدأوا فتوحاتهم في القرن العاشر . ولقد كان الجد الأول للغزنويين ، عبداً تركياً . وشقّ ابنه محمود الطريق إلى هنـدوستان

---

(٢٠) ساندركيتس أو شاندرا جـوبتا ـ حـاكم هندي في القـرن الرابـع قبل الميـلاد من أسرة جوبتا ..Gupta (المترجم) .

(٢١) بقطرية : مملكة اغريقية بوسط آسيا شمال أفغـانستان قـرب إيران الآن . عـاصمتها باكترا (بلخ الحديثة) ـ (المترجم) .

هو الرأي المعتاد أمّا أبحاث بنتلي ..Bentley الأخيرة فقد وضعت فكرامديتا في القرن الثاني عشر قبل الميلاد . لكن اكتشف أخيراً أن هناك خمسة ، أو حتى ثمانية أو تسعة ملوك يحملون نفس هذا الاسم في الهند ، لدرجة أن المرء هنا أيضاً يعود مرة أخرى إلى شك مطبق .

وعندما عرف الأوروبيون الهند وجدوا عدداً وافراً من الممالك الصغيرة على رأسها أمراء مسلمون وهنود في هذه الامارات يكاد يقترب تماماً من النظام الاقطاعي . وكانت هذه الممالك تنقسم إلى مقاطعات يتولّى زمام الأمور فيها حكام مسلمون أو من طائفة المحاربين في الهند . وتتمثل مهمة هؤلاء الحكام في جباية الضرائب ، وشن الحروب وهم بذلك يشكلون لوناً من الأرستقراطية فهم المجلس الاستشاري للأمير في الدولة . لكنهم لا يكون لديهم أية قوة إلّا إذا كان أمراؤهم مرهوبي الجانب أو يثيرون الخوف . ولا طاعة لهم إلّا بالقوة . وطالما أن الأمير يحتاج إلى مال فلديه جنوده وإذا كان الأمراء المجاورون له أقل منه قوة فإنه يرغمهم ، في الغالب ، على دفع الضرائب ، وهم لا يذعنون لدفعها إلّا كرهاً . ومن ثمّ فإن وضع الأمور في البلاد كلها ليس وضعاً مستقراً ولكنه صراع متصل في الوقت الذي لا يتطور فيه شيء ولا يتقدم شيء ، وإنما صراع الارادة النشطة من جانب هذا الأمير وذاك ضد أمير أضعف منه . أمّا التاريخ فهو تاريخ الأسر الحاكمة وليس تاريخاً للشعوب ، وهو سلسلة من المؤامرات والمكايد المختلفة والمستمرة ، وليس تمرداً من المحكومين ضد حكامهم ، ولكنك تجد مثلاً تمرد الأمير الابن ضد والده ، أو نزاع الأخوة والأعمام ، وأبناء الأخ بعضهم مع بعض ، أو الموظفين مع رئيسهم . ويمكن أن يظن المرء أنه على الرغم من أن الأوروبيين وجدوا الحال على هذا النحو ، فإنه كان نتيجة لتفكك التنظيمات السابقة التي كانت على نحو أفضل ، ويمكن أن يفترض مثلاً أن فترة سيادة المغول كانت فترة سعادة وإشراق ووضع سياسي لم تكن الهند فيه ممزقة أو مشتتة أو مقهورة دينياً وسياسياً بواسطة الغزاة الأجانب ، لكن السمات والآثار التاريخية التي ظهرت عَرَضاً في الأساطير والقصائد الشعرية (والتي وضعت بصماتها على

هذه الفترة) ، تشير باستمرار إلى نفس هذه الحالة المقسمة ـ نتيجة للحرب وعدم استقرار العلاقات السياسية . في حين أن عكس ذلك يمكن بسهولة التعرّف عليه بوصفه حلماً وخيالاً فارغاً . وهذا الوضع هو النتيجة الطبيعية لتصور الحياة الهندية الذي سبق أن عرضناه وللظروف الضرورية التي تتطلبها . والحروب بين الطوائف الدينية : طوائف البراهمة والبوذية ، وأتباع فيشنو ..Vishnu ، وأتباع شيفا ..Siva ـ تسهم أيضاً بنصيب في هذا الخلط . صحيح أن هناك طابعاً عاماً ينتشر في الهند كلها : لكن بجانب ذلك يقوم أعظم قدر من الاختلاف لدول الهند المتعددة لدرجة أننا نلتقي في إحدى الدول الهندية بأعظم قدر من الليونة والضعف ، في حين نلتقي على العكس ، في دولة أخرى بقوة هائلة ووحشية بربرية .

لو أننا في النهاية أخذنا مرة أخرى فكرة عامة عن المقارنة بين الهند والصين[٢٥] ، لرأينا أن الصين كانت تتميز بفهم غير خيالي تماماً ، حياة واقعية في حقيقة واقعية محددة تحديداً ثابتاً : في حين أننا لا نجد في العالم الهندي شيئاً يمكن أن نقول عنه ، إنْ صحَّ التعبير ، أنه موضوع يكون حقيقياً أو محدداً على نحو ثابت ـ ويكون بعيداً عمّا تفعله قوة الخيال التي تحوّله إلى الضد تماماً لما يمثله أمام الوعي العاقل . لقد كانت الأخلاق هي التي تشكل مضمون القوانين في الصين ، وتتجسّد في علاقات خارجية محددة على نحو دقيق : وكل شيء ترفرف عليه الرعاية الأبوية للامبراطور الذي يسهر ، كما يفعل الأب ، على رعاية مصالح رعاياه بغير تحيز . والأمر على العكس من ذلك بين الهنود ، فبدلاً من هذه الوحدة نجد أن السمة عندهم هي الاختلاف أو التنوع ، فكل شيء مقسم : الدين ، والحرية ، والحرف ، والمهن ، نعم ، حتى أتفه الأعمال مقسَّمة إلى أجزاء منفصلة انفصالاً حاداً ـ

(٢٥) لاحظ في هذه المقارنة التضاد بين الوضع في الصين والوضع في الهند ، والتناقض الذي يكشف عنه سير الروح في التاريخ وتلك هي الفكرة التي يريد هيجل أن يبرزها هنا (المترجم) .

مكوّنة جوهر ما يندرج تحتها من إرادة فردية . ويرتبط بـذلك خيـال هائـل لا معقـول يضع القيمـة (الأخلاقيـة) وسلوك النـاس في كثـرة لا نهايـة لهـا من الأعمال الخالية من العقل والوجدان في آن معاً . ويضع جانباً كل مراعاة لخير الانسان . بل ويجعـل أقسى وأعنف انتهاك لهـذا الخير من الأمـور الواجبـة . وإذا ما تأكدت هذه التمييـزات بحدة فـلا شيء يبقى للارادة العـامة للدولـة سوى النزوة أو العشوائية الخالصة التي لا يواجهها ولا يصلح للحماية منها إلاّ القوة الشاملة لجـوهريـة التمييزات الـطائفية المقفلة . لقـد كان الصينيـون في عقلانيتهم الواقعية لا يجلّون أو يقدِّسـون سوى السيـد الأعلى المجـرد بوصفـه **الموجود الأسمى** ، أو **السيد الأعلى** ، ولديهم **خرافات مزريـة** بالنسبـة لما هـو مُتعينّ وثابت ، ولن تجد مثل هذه الخرافة بين الهنود بوصفهـا الشيء المناقض للفهم ، فحياتهم كلها وتصوراتهم هي بالأحرى ، ليست سوى خرافة . لأن كل شيء عندهم أحلام وعبودية لهذه الأحـلام ، فحالـة الفناء ، أي التخـلّي عن كـل عقل وكـل أخلاق وكـل ذاتية ، لا يمكن أن تـأتي إلى شعـور إيجـابي ووعي بذاتها إلاّ بواسطة الغلو في خيال جامـح لا حدَّ له[٢٦] ، حيث لا تجد راحة أو استقراراً ، مثل الروح الفقر ، ولا تستطيع أن تدرك نفسها ، ولكنها لا تجد المتعة إلاّ على هذا النحو ـ وذلك مثل انسان منحط تمـاماً جسـماً وروحاً يصبح وجوده غامضاً ويجد وجوده كله مملاً لا يُطاق فينساق عن طريق الأفيون فقط إلى خلق عالم من الأحلام ، وإلى خلق النعيم الهذياني .

---

(٢٦) عبارة « الوعي بذاتها » تعود على حالة الفناء فالمقصود هو أن تعي هـذه الحالـة نفسها (المترجم) .

القسم الثاني -

« الهند - البوذية »(*)

آنَ الأوان لأن نتركِ الصورة الحالمة للروح الهندي ، التي تتقلب في جنون معربد إلى أقصى حد في جميع الأشكال الطبيعية والروحية والتي تجمع بين الشهوانية في أشد ألوانها وتوقعات الأفكار في أعمق أشكالها . ولهذا الاعتبار نفسه ، بقدر ما يتعلق الأمر بالواقع العقلي والحر - تقع في أقصى حالات العبودية اغتراباً ويأساً - عبودية تصبح فيها الصور المجردة التي فيها تتميز الحياة البشرية العينية ثابتة وراسخة ، وتصبح الحقوق (البشرية) والحضارة معتمدة اعتماداً مطلقاً على هذه التمييزات . وفي مقابل حياة الأحلام الثملة هذه التي هي في مجال الواقع مُصفَّدة بقوة في الأغلال ، هناك حياة الأحلام الخالية من القسر ، التي هي من ناحية أكثر بدائية وغلظة (من الحياة السابقة) ، ولم تتقدم إلى الحد الكافي الذي يجعلها تبرز هذه التمييزات لأنماط الحياة - لكنها لنفس السبب لم تغرق أيضاً في العبودية التي يستلزمها

(*) نظراً لأن الانتقال منَ المذهب البرهمي الهندي إلى البوذية ، على نحو ما كان الأمر في خطة هيجل الأصلية وفي المحاضرة الأولى ، يوجد على نحو ما هو معروض هنا ، ولما كان وضع الفصل الخاص بالبوذية يتفق أكثر مع البحوث الحديثة ، فإن نقل التذييل أو الملحق التالي (أي الفصل الخاص بالبوذية) من المكان الذي كان مخصصاً له من قبل وذكره هنا يكون له ما يبرره تماماً . (الناشر الألماني) .

ذلك ، فحفظت نفسها راسخة في ذاتها في شكل أكثر حرية وأكثر استقلالاً ، ولهذا أجملُ أيضاً عالم تصوراتها في نقاط أكثر بساطة .

الروح الخاصة بالطور الذي ذكرناه تواً ، متضمنة في نفس المبدأ الأساسي للتصورات الهندية : لكنها مركزة أكثر في ذاتها ، ديانتها أكثر بساطة ووضعها السياسي (المصاحب) أكثر هدوءاً وأكثر استقراراً ، ويشمل هذا الطور شعوباً وبلداناً من طبيعة متباينة أشد ما يكون التباين . ونحن ننظر إليه على أنه يضم : سيلان والهند الخلفية ، مع امبراطورية بيرما ..Birma ، وسيام ، وأنام ..Annam وفي شمالها التبت ، والمرتفعات الصينية بسكانها المتنوعين من مغول وتتار . ولن ندرس هنا الفرديات أو الهويات الخاصة لهذه الشعوب لكنا سوف نكتفي فقط بتحديد ديانتها باختصار ، تلك التي تشكل أكثر الجوانب أهمية في وجودها . وديانة هذه الشعوب هي البوذية التي هي أوسع الديانات انتشاراً في الكرة الأرضية . ويعبد بوذا ..Buddha في الصين باسم فو Foo وفي سيلان باسم جواتاما ..Gautama وفي التبت وبين المغول تتخذ ديانتهم شكل اللامية ..Lamaismus ، وفي الصين حيث امتدت ديانة « فو » في مرحلة مبكرة امتداداً واسعاً وأدخلت حياة الرهبنة - فإن هذه الديانة تشغل مركز العنصر المتكامل للمبدأ الصيني . ومثلما كانت الروح الجوهرية في الصين تطور نفسها فقط إلى وحدة للحياة القومية الدنيوية التي تجعل الأفراد في حالة تبعية مستمرة ، فإن الدين يظل أيضاً عند التبعية إذْ ينقصه عنصر التحرر لأن موضوعه هو مبدأ الطبيعة بصفة عامة : السماء ، المادة العامة . لكن الحقيقة لهذه الصورة المغتربة للروح (الطبيعة تشغل مكان الروح المطلق) هي الوحدة المثالية ، أي الارتفاع فوق تناهي الطبيعة والوجود بصفة عامة وعودة الوعي إلى الباطن . هذا العنصر المتضمن في البوذية قد شَقَّ طريقه في الصين إلى الحد الذي أصبح فيه الصينيون يحسون بعدم روحانية وضعهم ، وبانعدام حرية وعيهم . في هذا الدين الذي يمكن

أن يوصف بصفة عامة بأنه الدين المستغرق في ذاته ..Insichsein(*) (ديانة الوحدة غير المنظورة) ـ يتم ارتفاع مثل هذا الوضع غير الروحي إلى الباطن بطريقة مزدوجة ، إحداهما من النوع السلبي والثانية من النوع الايجابي .

أمّا الصورة السلبية لهذا الارتفاع فهي تركيز الروح إلى اللامتناهي ولا بدّ أن يحدث أولاً في تحديدات دينية . وهي متضمنة في المعتقد الرئيسي القائل بأن العدم هو مبدأ الأشياء جميعاً ـ وأن كل شيء يخرج من العدم ويعود إليه أيضاً . والصور المختلفة التي توجد في العالم ليست سوى تعديلات في السير أو الانبثاق . ولو حاول أحد تحليل أو تفكيك هذه الصور المختلفة فلا بدّ أن تفقد كيفيتها ، لأن جميع الأشياء في ذاتها واحدة لا تتجزأ وهي هي من حيث جوهرها الأساسي ، وهذا الجوهر هو : العدم . ويمكن أن نوضّح الصلة بين هذه الفكرة وبين فكرة تناسخ الأرواح على النحو التالي : كل شيء (نراه) ليس سوى تغير في الصورة . واللاتناهي للروح في ذاتها ، أي الاستقلال العيني اللامتناهي أمر بعيد عن ذلك بعداً تاماً ، والعدم المجرد هو بالضبط الجانب الآخر للوجود المتناهي ـ والذي يمكن أن نسميه بالوجود الأسمى . ويُقال إن هذا المبدأ الحقيقي (للكون) هو في سكون أبدي وهو في ذاته لا يمكن أن يتغير . وتتمثل ماهيته في انعدام النشاط والارادة . لأن العدم هو الوحدة المجردة مع نفسها . ومن ثم فلكي يصل الانسان إلى السعادة فلا بدّ له أن يسعى إلى أن يتمثل في نفسه هذا المبدأ بالانتصارات المستمرة على نفسه . ومن أجل ذلك فلا يعمل شيئاً ولا يريد شيئاً ولا يطلب شيئاً ، ومن أجل ذلك فإنه في مثل هذه الظروف للسعادة لا يمكن أن يكون هناك حديث لا عن الرذيلة ولا عن الفضيلة ، لأن السعادة الحقيقية هي الاتحاد مع العدم ، وكلما زاد تحرر الانسان من كل خواص الوجود زاد اقترابه من الكمال وهو يبلغ مرتبة التشبه الكامل بـ « فو Foo » بانعدام كل نشاط ،

(*) قارن محاضرات في فلسفة الدين ـ الطبعة الثانية ـ القسم الأول ص ٣٨٤ (الناشر الألماني) .

أو في السلبية الخالصة ، والوحدة الخالية أو الفارغة (التي نتحدث عنها) ليست مجرد أحداث للمستقبل (الحياة بعد الموت) أي المجال الروحي الذي يوجد فينا وراء مجالنا ، وإنما هي أيضاً ما هو مرتبط بالحاضر . إنها الحقيقة بالنسبة للانسان ، والتي ينبغي أن تتحقق بداخله . ففي سيلان ، وامبراطورية برمان حيث تضرب العقيدة البوذية بجذورها ، تسود فكرة مفادها أن الانسان يمكن أن يبلغ عن طريق التأمل الافلات من الخضوع للمرض ، والشيخوخة والموت .

لكن في حين أن تلك هي الصورة السلبية لارتفاع الروح من خارجيتها ..Ausserlichkeit إلى مرتبة التحقق الذاتي للنفس فإن هذا الدين يتقدم كذلك إلى الوعي بالصورة الايجابية فالمطلق هو الروح . ومع ذلك فمن الأهمية بمكان أن نعرف ما هي الصورة المحددة التي تتصور فيها الروح أثناء ادراكنا لها . عندما نتحدث عن الروح بوصفها الكلي ، فإننا نعرف أنها لا توجد بالنسبة لنا إلّا في التصور الباطني فحسب ، لكن لكي نبلغ هذه الوجهة من النظر ـ لامتلاك الروح في الذاتية الخالصة أو العمق الباطني للفكر والتصور ـ فإن هذا نفسه قد حدث ابتداء نتيجة لطريق أطول في مسار الحضارة . إن صورة الروح هي الصورة المباشرة في تلك المرحلة من التاريخ التي نقف فيها الآن . (ففكرتها لم تُصَفَّ بعد عن طريق الفكر والتجريد) فالله يُتصوَّر في صورة مباشرة بوصفه موضوعاً ، وليس في صورة الفكر . لكن هذه الصورة المباشرة هي الصورة البشرية فالشمس والنجوم ليست هي الروح لكن الانسان هو الروح . وهو يتخذ في صورة بوذا ، وجواتاما ، وفو ، صورة المعلم الراحل (الميت) أمّا في صورته الحية فهو لاما الكبير الذي يُعبَد ويُقدَّس بوصفه إلهاً . ويتجه الفهم المجرد في العادة ضد مثل هذا التصور للإله ـ الانسان الذي يكون وجه القصور فيه هو أن صورة الروح صورة مباشرة (غير مصفاة وغير منعكسة) وهي الانسان بما هو كذلك . وهنا ترتبط شخصية الشعب كله بالنظرة الدينية التي أشرنا إليها الآن توّاً . فالمغول الذين انتشروا في كل وسط آسيا حتى سيبريا حيث خضعوا للروس ـ يعبدون

اللاما ..Lama ويرتبط بهذه الصورة من صور العبادة وضع سياسي بسيط ، أي حياة أبوية (متحدة اتحاداً وثيقاً) لأنهم شعب من البدو أصلاً . ونادراً ما تقوم بينهم الاضطرابات السياسية ، أي نادراً ما يخرجون عن طورهم ويحدثون انفجارات وهياج بين الشعوب الأخرى . وهناك ، بصفة عامة ثلاثة من اللاما ..Lama أشهرهم « الدلاي لاما » الذي اتخذ من لهاسا في مملكة التبت مقراً له . والثاني هو : « التشو - لاما » ..Teshoo - Lama الذي جعل مقره تشو - لومبو ..Teshoo - Lomboo تحت اسم بانتشن رينبوتشي Bant-shen Rinbotshee.. وهناك لاما ثالث في جنوب سيبيريا ، ويرأس اللاما الأول والثاني نِحْلتين متميزتين . يضع كهنة إحداهما فوق رؤوسهم قلنسوات أو قبعات صفراء بينما يضع الآخرون قبعات حمراء . والفريق الذي يرتدي القبعات الصفراء والذي يرأسه الدلاي لاما ، ومن أتباعه امبراطور الصين ، أدخل ، هذا الفريق ، نظام العزوبية بين الكهنة ، في حين أن النِّحلة ذات القبعات الحمراء قد سمحت بزواجهم . ولقد أصبح الانجليز على معرفة وثيقة « بالتشو لاما » وقدموا لنا أوصافاً كثيرة عنه .

والصورة العامة التي يفترضها روح التطور اللامي للبوذية هي صورة الموجود البشري الحاضر أو الحي في حين أنه كان في البوذية الأصلية شخصاً ميتاً . والصورتان تشتركان معاً في وجود العلاقة بانسان ما بصفة عامة : إن فكرة الانسان الذي يُعبد كإله ، لا سيما الانسان الحي ، تحمل في جوفها شيئاً من المفارقة والتناقض . لكن لا بدّ من فحص الاعتبارات الآتية قبل أن ننطق بحكم عليها . إن مفهوم الروح يتضمن أنها شيء عام في ذاته ، ولا بدّ من ملاحظة هذا الشرط بوجه خاص ، كما أنه لا بدّ أن يتبين في نظرة الشعوب وتصوراتها أن هذه العمومية تطوف بأذهانها ، فما يُحترم أو يُعبد ليس هو فردية الذات وإنما هو الجانب الكلي فيها ، والذي يُنظر إليه بين أهل التبت والهنود وأهل آسيا بصفة عامة بوصفه (الماهية) المتغلغلة في كل شيء . وهذه الوحدة الجوهرية للروح تتحقق بالفعل في اللاما ، الذي ليس شيئاً آخر سوى الشكل الذي تتجلى فيه الروح . وهذه الماهية الروحية ليست ملكاً

خاصاً لـلّاما لكن يُقال إنه يشارك فيها فقط ، ويبرزها أو يعرضها أمام الآخرين لعلهم يصلوا إلى تصور للروحية وينساقوا إلى التقوى والسعادة والفردية بما هي كذلك ، أي الفردية الوحيدة هي من ثم تابعة هنا بصفة عامة لتلك (الماهية) الجوهرية . والنقطة الثانية التي تشكل سمة جوهرية في هذا التصور (تصور اللاما) هي التميز عن الطبيعة . ولقد كان الامبراطور الصيني قوة فوق قوى الطبيعة ، يسود هذه القوى ، في حين أن القوة الروحية هنا تتميز عن القوة الطبيعية ..Naturmacht . ولم تخطر فكرة أن يظهر اللاما نفسه ويتجلّى كسيد للطبيعة على أذهان مَنْ يعبدون اللاما بحيث يمارس السحر ويقوم بعمل المعجزات لأنهم لا يريدون ممَّنْ يسمونه بالإله إلّا النشاط الروحي ومنح العطايا الروحية . وأيضاً فإن « بوذا » يُسمى « مخلِّص النفوس » ، و« بحر الفضيلة » ، و« المعلم العظيم » ، وأولئك الذين يعرفون التشو ـ لاما ..Teshoo - Lama يصفونه بأنه رجل ممتاز للغاية هادىء إلى أقصى حد يكرِّس نفسه تماماً للتأمل .

وعلى هذا النحو أيضاً يصف مَنْ يعبدون اللاما سيدهم ، فهم يرون فيه رجلاً مشغولاً دائماً بالدين ، وعندما يوجه انتباهه إلى ما هو بشري فإنه لا يفعل ذلك إلّا ليهب السلوى ، والارتفاع عن طريق بركته وعن طريق ممارسة الغفران والرحمة . ويعيش اللاميون حياة العزلة تماماً كما يقومون بتدريبات وثقافة نسائية أكثر منها رجالية . ولقد كان اللاما في طفولته طفلاً جميلاً حسن الصورة عندما انتزع من ذراع والديه . ولقد ربي في عزلة وهدوء كاملين أشبه ما يكون بشكل من أشكال السجن ، يُغذَّى تغذية جيدة ، وقد ظل بغير حركة أو ألعاب طفولية ولذلك فليس ثمة ما يدهش إذا ما وجدنا أن الاتجاه الأنثوي المتقبل الهادىء يتغلغل في شخصيته . وكبار اللاميين يندرج تحتهم لاميون أدنى منهم بوصفهم رؤساء لجمعيات أخوية عظيمة . ويلزم كل أب لديه أربعة أبناء في التبت بأن يهب واحداً منهم لحياة الرهبنة . أمّا المغول الذين اتجهوا إلى اللامية بصفة رئيسية ـ وهي صورة معدّلة من البوذية ـ فإنهم يحترمون كل ما فيه حياة احتراماً عظيماً ، ويعيشون أساساً على الخضروات ،

ويمتنعون عن قتل الحيوان حتى ولو كان قملة . ولقد استأصلت عبادة اللاما هذه الشامانية[1] ، أي ديانة السحر والشعوذة ، وحلّت محلها . أمّا الشامانيون أو كهنة هذه الديانة فإنهم يسكرون أنفسهم بشراب قوي ورقص عنيف ، ويقومون ، وهم في تلك الحال بأعمال السحر ، ثم يسقطون على الأرض من الإعياء وهم يتفوهون بكلمات تؤخذ على أنها تنبؤات . ومنذ أن حلّت البوذية واللامية محل الديانة الشامانية أصبحت حياة المغول بسيطة عادية أبوية . وحينما وجدناهم يسهمون في التاريخ بأي دور فإننا نجد أنهم لم يحدثوا إلّا دوافع بسيطة تاريخية . ومن ثم فليس ثمة سوى القليل جداً مما يمكن أن يُقال عن إدارة اللاميين لشؤون الدولة السياسية . فهناك وزير مسؤول عن المسائل الدنيوية وهو يقدم تقاريره عن كل شيء إلى اللاما ، أمّا الحكومة فهي بسيطة متساهلة . أمّا التبجيل الذي يبديه المغول إلى اللاما فهو يتجلّى بصورة رئيسية في طلبهم النصيحة منه في الشؤون السياسية .

---

(١) الشامانية ..Shamanism ديانة بدائية انتشرت في آسيا ، لا سيما في الأجزاء الشمالية . وهي تتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب خاف عن الأعين هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف . ويؤمن أتباع هذه الديانة بأن هذا العالم السفلي الخفي لا يستجيب إلّا للشامان وهو كاهن هذه الديانة الذي يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبأ والمستور والسيطرة على الأحداث بما يملك من قوة (المترجم) .

« القسم الثالث »

فارس

تنقسم آسيا قسمين : آسيا القريبة وآسيا البعيدة : ويختلف كل منهما عن الآخر اختلافاً جوهرياً ، وعلى حين أن الصينيين والهنود ، الأمتان العظيمتان في آسيا البعيدة واللتان درسناهما بالفعل ، ينتميان إلى الجنس الآسيوي الأصيل وأعني به الجنس المغولي ، وبالتالي فإن لهما طابعاً خاصاً تماماً يختلف عن الطابع الذي يميزنا[1] ، فإن شعوب آسيا القريبة تنتمي إلى الجنس القوقازي أعني إلى العرق الأوروبي وهم يرتبطون بالغرب في حين أن شعوب آسيا البعيدة تنفرد بذاتها تماماً .. ولهذا فإن الرجل الأوروبي الذي ينتقل من فارس إلى الهند يلاحظ تبايناً مذهلاً . فبينما يجد أنه في فارس لا يزال في بيته إلى حد ما ، وأنه يلتقي بأمزجة أوروبية وفضائل وعواطف انسانية ، فإنه بمجرد ما يعبر نهر الهند Indus (أعني إلى منطقة آسيا البعيدة) يلتقي هناك بأعظم أشكال التناقض التي تتغلغل عبر كل السمات الفردية .

ندخل لأول مرة ، مع الامبراطورية الفارسية ، ميدان الارتباط أو الصلة بالتاريخ ، فالفرس هم أول شعب ـ تاريخي ، وفارس هي أول امبراطورية زالت . فبينما بقيت الصين والهند ثابتة ساكنة تديم الوجود

---

(١) يقصد الجنس الجرماني بصفة عامة (المترجم) .

الطبيعي الخامل حتى إلى عصرنا الحاضر ، خضعت بلاد فارس لتلك التطورات والثورات التي تعبر هي وحدها عن أوضاع تاريخية . وإذا كانت الامبراطوريتان الصينية والهندية تستطيعان الوصول إلى الارتباط أو الصلة بالتاريخ من زاويتها الخاصة فحسب وبالنسبة لنا (لا بالنسبة للجيران والأسلاف) فإننا نجد أنه هنا في فارس يظهر لأول مرة ذلك النور الذي يشرق لذاته ويضيء ما حوله لأن نور زرادشت ينتمي إلى عالم الوعي - إلى الروح كعلاقة بشيء متميز عن ذاتها ، فنحن نجد في العالم الفارسي وحدة خالصة سامية كالجوهر يترك ألوان الوجود الخاصة فيه حرة - كالضوء الذي يبرز فقط ما هي عليه الأجسام لذاتها . وحدة لا تسود الأفراد إلّا لكي تستثيرهم حتى يصيروا أقوياء لأنفسهم ، وليطوّروا جزئيتهم أو فرديتهم ويؤكدوها . وليس في النور تمييزات : فالشمس تشرق على الصالحين والظالمين ، على المرتفع والمنخفض ، وتغمر الجميع بنفس النعم وبنفس الازدهار . ولا ينشط النور ويحيا إلّا إذا سقط على شيء متميز عن ذاته فيؤثر فيه ويطوره . وهو يقف من الظلمة موقف النقيض . وتظهر علاقة التناقض هذه مبدأ النشاط والحياة . أمّا مبدأ التطور فهو يبدأ بتاريخ فارس ومن ثمّ فإن ذلك يشكل ، البداية الحقيقية لتاريخ العالم ، لأن الاهتمام العام للروح في التاريخ هو بلوغ المحايثة ..Insichrein اللامتناهية للذاتية ووصول النقيض المطلق إلى التوافق أو الانسجام الكامل(*) .

وهكذا فإن الانتقال الذي يجب أن نقوم به هو انتقال فقط في مجال الفكرة الشاملة ..Begriff وليس في سياق الأحداث التاريخية الخارجية . ومبدأ

(*) في المراحل الأولى من سير التقدم تظهر تبديات الروح (القانون السياسي والاجتماعي) كما لو كانت آتية من قوة غريبة عن الروح ، وكما لو كانت ضرباً من قسر الطبيعة المحض . لكن بالتدريج نرى أن هذه الصورة الغريبة ليست حقيقة ونتعرف على هذه التبديات ذاتها ، ونأخذ بها بوصفها قانوناً للحرية وهكذا يتضح أنها تعارض بوضوح ضدها المنطقي ألا وهو : الطبيعة . (الناشر الألماني) .

هذا الانتقال هو أن الماهيـة الكلية ..Das Allgemeine التي تعـرفنا عليهـا في صورة براهمة ..Brahm تصبح الآن ملموسة للوعي وتصير موضـوعاً وتكتسب فحوى إيجابياً بالنسبة للانسان، فبراهمـة لا يُعبد من جـانب الهنود ، وإنمـا هو فقط حالة للفرد أي شعور ديني ، وليس وجوداً موضـوعياً . وهـو علاقـة هي بالنسبة للحيوية العينية علاقـة فناء فحسب . لكن هـذه الماهيـة الكلية حـين تصبح موضوعية فإنها تكتسب طبيعة إيجابية : يُصبح الانسان حراً ، وبذلـك يشغـل مركـزاً يقف وجهاً لـوجه أمـام الوجـود الأسمى ، فقد أصبـح الأخير موضوعاً بالنسبة له . وصورة الكلية هذه نجدها عند الفرس متضمنة انفصال الانسان عن الماهيـة الكلية ، في حـين أن الفرد في الـوقت نفسه يتعـرّف على ذاته بوصفه متحداً مع هذه الماهية (ومشـاركاً فيهـا) . ولم يكن هذا التمييـز قـائـماً في المبـدأ الصيني أو في المبدأ الهنـدي . فلم يكن هنـاك سـوى وحـدة للروحي والـطبيعي . لكن الروح التي لا تـزال متضمنة في الـطبيعي ، عليها أن تحرر نفسها من هذا الأخير . لقد كانت الحقوق والواجبات في الهند ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالطبقات المختلفة ، ومن ثم فلم تكن سوى شيئاً جزئيـاً ينتمي للانسان عن طريق الطبيعة . وفي الصين كانت هذه الوحدة قائمة في الصورة الأبوية . ولم يكن الانسان حراً هناك فلم يكن يمتلك عنصراً أخـلاقياً مـا دام متحداً مع الأمر الخارجي (الطاعة طبيعـة خالصـة كما هي الحـال في العلاقـة البنوية ـ وليست نتيجة تفكير ومبدأ) . أمّا في المبدأ الفارسي فإن الوحدة تبرز أول مـا تبرز إلى درجـة أنها تتميز عن مجـرد مـا هـو طبيعي وهـو (أي المبـدأ الفـارسي) سلب لتلك العلاقـة المباشـرة (غير المنعكسـة التي لا توسّط فيهـا للارادة ، أي التي لا تسمح بأي إعمال للذهن يتوسط بين الأمر وتبني الارادة له) . وتتجلّى هذه الوحدة في المبدأ الفارسي على أنها النور الذي هـو في هذه الحالة ليس مجرد نور بسيط بما هو كذلك أي هذا النور الفيـزيقي الكلي وإنمـا هو في الوقت ذاته أيضاً نقـاء الروح ، أي هـو الخير . وبـالتالي تلغى الصفـة المميـزة وهي الوجـود المـرتبط بـطبيعـة محـدودة . ومن ثم فـإن النـور بـالمعنى الفيزيقي والروحي يوحي بالارتفـاع ، وبالتحـرر مما هـو طبيعي . وللانسـان علاقة بالنور أي بالخير المجرد ، بوصفه شيئاً موضوعياً يقبله بإرادته ، ويحترمه

ويعمل به . ولو أننا نظرنا إلى الخلف مرة أخرى ، ولن يكـون في استطاعتنـا أن نكرر ذلك كثيراً ، في المراحل التي اجتزناها حتى وصلنا إلى هذه النقـطة ؛ لرأينا في الصين شمول الكل الأخلاقي لكن مع استبعاد للذاتية ـ وهذا الكل الشامل ينقسم إلى أقسام لكن بدون استقلال لأجزائه المختلفة : فلا نجد إلّا تنظيماً خارجياً لهـذه الوحـدة ، أمّا في الهنـد فعلى العكس يتجـلّى الانفصال ، وإنْ كان هذا الفصل ذاته ، ليس روحياً وإنه يتجـلى بوصفـه ذاتية أوليـة مع التحديد بـأن التمييز ذاتـه لا يمكن التغلب عليه وأن الـروح تبقى مرتبـطة في تحديدات الطبيعى وهي من ثم قلب لذاتها ، فطهارة النور ونقاؤه التي تجدها عند الفرس تعلو انفصال الطوائف فالنور هو ذلك الخير المجرد الـذي يستطيع الكل على قدم المساواة الاقتـراب منه ، والـذي يمكن أن يصل فيـه الكل إلى مرتبة القداسة ، ومن ثمّ فإن الوحـدة التي تصل إليهـا الآن لأول مرة تصبـح مبـدأ وليست رابطة خـارجية لنـظام بغير روح . وبمـا أن كل انسـان يشـارك بنصيب في هذا المبدأ فإنه يحقق للمرء قيمة لذاته .

أمّا بالنسبة للموقـع الجغرافي فقـد رأينا في الصـين والهند نتـاجاً للروح معتماً قليل الـوعي في سهول خصبـة تنفصل عن منـطقة الجبـال العاليـة ومَنْ يعيش فيهـا من قبائـل البدو الـرحل . فسكـان المناطق المـرتفعة لم يغيـروا في غزواتهم من روح السهول ولكنهم يتشربونها هم أنفسهم ، أمّا في فارس فـإن المبدأين يصبحان متحـدين مع الاحتفـاظ باختـلافهما ويصبـح سكان الجبـال بمبـدئهم العنصر المسيـطر والغالب . وأمّـا القسمان الـرئيسيـان اللذان ينبغي علينا هنا ذكرهما فهما : المرتفعات الفارسية ذاتها ثم سهول الوديان التي تخضع لسيطرة سكان الأراضي المرتفعة . وتحـد الأراضي المرتفعـة من الشرق جبـال سليمـان التي يكملها في اتجـاه الشمـال جبـال هنـدوكـوش ..HindooCoosh وجبـال بيلور تـاج ..Belurtag . وسلسلة الجبـال الأخيـرة تفصـل المنـطقـة السـابقة ، بكتـريانـا ..Bactriana وسـوجـديـانـا ..Sogdiana في سهـول نهر جيحـون (أوكـزيس) ..Oxus عن الأراضي المـرتفعة في الصين التي تمتـد حتى كـاشجار ..Cashgar ويقـع سهل أوكزيس هـذا نفسـه شمـال الأراضي

الفارسية المرتفعة التي تنحدر في الجنوب نحو الخليج الفارسي . وهذا هو الموقع الجغرافي لإيران. وفي منحدر إيران الغربي تقع فارس (فارسيستان Farsisten..) وإلى أعلى ناحية الشمال تقع كوردستان ثم أرمينيا ..Armenia ومن هناك في اتجاه جنوبي غربي تمتد مناطق نهر دجلة والفرات . وعناصر الامبراطورية الفارسية هم شعب الزند[٢]، أي البارسيين ..Parsees القدماء[٣] ثم تأتي بعد ذلك امبراطورية الأشوريين ، وامبراطورية الميديين والامبراطورية البابلية في نفس هذه المنطقة . لكن الامبراطورية الفارسية تشمل كذلك آسيا الصغرى ، ومصر وسوريا بشريطها الساحلي وهكذا تضم الأراضي المرتفعة ، وسهول الوادي ، ومنطقة الشاطىء .

(٢) أو الشعب الزرادشتي ، وكلمة « زند » فارسية تعني الشروح وهي مشتقة من كتابهم الديني الرئيسي وهو زند أفستا ..Zend - Avesta أي الشروح على المتن أو تفسير النص (المترجم) .

(٣) البارسي أو الزرادشتي الأصل هو المنحدر من أصلاب اللاجئين الفرس المقيمين في بومباي وغيرها، والبارسية هي اللهجة الإيرانية القديمة (المترجم) .

الفصل الأول

شعب الزند Zend

استمد شعب الزند اسمه من لغتـه التي كُتبت بها « كتب الـزند » أعني الكتب الدينية التي قـامت عليها ديـانة البـارسيين القـدماء . ومـا تزال بعض الآثـار باقيـة لهذه الـديانـة البارسيـة أو لعَبَدة النـار . فهناك مستعمـرة لهم في بومباي ، وبعض العائلات المبعثرة على شـاطىء بحر قـزوين لا تزال تمـارس هـذه العبادة . ولقـد قضى المسلمـون تقـريبـاً عليهم . ولقـد كتب زرادشت Zerdusht.. يسميه الأغريق ..Zoraastra، كتبه الدينية باللغة الزندية . ولقـد ظـل الأوروبيون حتى نهايـة الثلث الأخير من القـرن الثـامن عشـر تقـريبـاً ، يجهلون هـذه اللغة وجميـع الكتب التي كُتبت بها عنـدما كشف لنـا الفـرنسي الشهـير انكتي دي بيـرون ..Anquetil de Perron النقـاب عن هـذه الكنـوز الغنية . ولقد تطوّع هذا الفرنسي في القوات الفرنسية التي كانت على وشـك أن تُبحر إلى الهند ، بعد أن امتلأ بالحماس للعالم الشرقي الـذي لم يسمح لـه فقـره أن يرتـوي منه . وهكـذا وصل إلى بـومبـاي حيث التقى بـالبـارسيـين Parsees.. وبدأ يدرس أفكارهم الدينية . ولقد نجـح بصعوبـة لا توصف في الحصول على كتبهم الدينية ، ثم شقّ طـريقه إلى دراسـة آدابهم وفتح ميـداناً للبحث واسعـاً وجديـداً تمامـاً . لكن هـذا المجـال لا يـزال ، نـظراً لقصـور « انكتي دي بيرون » في معرفة اللغة ، ينتظر دراسة عميقة .

من الصعب أن نحدد أين عاش شعب الزند الـذي تحدثت عنـه كتب

زرادشت الدينية ، فقد كانت الديانة الزرادشية سائدة في منطقة ميديا Media.. ، وفي فارس ، ويروي اكسانوفون ..Xenophion أن الملك قورش اعتنقها ، لكن ، لم تكن واحدة من هذه البلدان الموطن الأصلي لشعب الزند ، فزرادشت نفسه يقول إنهم آريون خُلّص[٤] : ونجد نفس هذه التسمية عند هيرودت الذي يقول إن الميديين كانوا فيما سبق يسمون بالآريين Ariion.. وهو اسم يرتبط بتسمية إيران . وتمتد جنوب نهر جيحون (أوكزيس ..Oxus)[٥] سلسلة من الجبال في بقطرية ..Bactriana[٦] القديمة التي تبدأ منها السهول المرتفعة التي كان يسكنها الميديون والبارثيون Parthians.. والهركانيون ..Hyrcanians . ويُقال إن بكترا ..Bactra ، ومن المحتمل أن تكون هي بلخ ..Balk الحديثة ، كانت تقع في المنطقة التي يرويها نهر جيحون (أوكزيس) عند بداية مجراه . ولم تكن « كابول » وكشمير تبعدان عنها إلّا مسيرة ثمانية أيام فحسب . هاهنا في بقطرية استقر فيما يبدو شعب الزند ، ونحن نجد في عصر الملك قورش أن العقيدة الأصيلة الخالصة ، وكذلك الأحوال أو الأوضاع القديمة التي وصفت في كتب الزند ـ لم تعد في نقائها الكامل . وهكذا يبدو من المؤكد أن لغة الزند التي ارتبطت باللغة السنسكريتية كانت لغة الفرس والميديين ، والبقطريين . وتشهد قوانين هذا الشعب ومؤسساته ـ كما وردت في كتب الزند ـ أنها كانت على قدر عظيم من البساطة ، وتذكر أربع طبقات : الكهنة والمحاربون والزرّاع والحرفيون (الصنّاع) ، أمّا التجارة فهي وحدها التي لم يرد لها ذكر ، ولا بدّ أن يعني

---

(٤) يسمي الزرادشتيون وطنهم الأول : ايريانافيجو أي « موطن الآريين » (المترجم) .

(٥) نهر في وسط آسيا اسمه القديم أوكروس وعرفه العرب باسم جيحون (ويطلق عليه اسم أموداريا ..Amu - darja) يصب في بحر آرال . (المترجم) .

(٦) مملكة قديمة في اقليم بختر (وهي كلمة فارسية قديمة تعني الشرفة) ويسميها الفرنجة باكتريانا ـ وتقع في الجزء الشمالي الشرقي من إيران وقد أسست فيه بعض القبائل الإيرانية القديمة مملكة عظيمة جعلوا عاصمتها بلخ وقد تداول حكمها على التوالي : الفرس فالعرب فالأتراك فالمنغوليون ، ومنذ عام ١٨٤١ تابعة لأفغانستان (المترجم) .

ذلك أن الشعب كان لا يـزال في حالـة عزلـة . ويرد ذكـر رؤساء المنـاطق ، والمدن ، والطرق ، بحيث أن كل شيء كان لا يزال متعلقاً بالقوانـين المدنيـة وليس بالقوانين السياسية ، وأنه لم يكن هناك شيء يشير إلى وجود صلة بدول أخرى . ومن المهم أن نلاحظ أننا لا نجد هنا أية طبقـات مغلقة ، بـل هناك طبقات مفتوحة ، فلم تكن هناك قيود على الزواج بين الطبقات المختلفـة وإنْ كانت كتابات الزند تذكر قوانين وعقوبات مدنيـة إلى جانب السنن والشـرائع الدينية .

النقـطة الرئيسيـة التي تهمنا هنـا بصفة خـاصة هي تعـاليم زرادشت . ففي مقابل التبلّد البائس للروح الذي وجدناه عند الهنود ، نلتقي مع التصور الفارسي ، بأحد الأنفاس الصافية ونفحة من نفحات الروح . فها هنـا تنبثق الروح من تلك الوحـدة الجوهـرية للطبيعـة ، ذلك الخلو التـام من المضمون الذي لم يحدث فيه الانفصال بعد ، حيث لا نجد للروح بعد وجوداً مستقـلاً لذاته يتخذ وضع المقابلة للموضوع . هذا الشعب بلغ مـرحلة الوعي ، فـلا بدّ أن تتخذ الحقيقة المطلقة شكل الكلية أعني شكل الوحدة . وهـذه الماهيـة الكلية الأبدية اللامتناهية لا تتضمن في البداية أية تحديـدات ـ إنها هويـة غير محدودة . وحقيقة الأمر أن ذلك كان أيضاً الطابع الخـاص ببراهمـة ..Brahm (وقد سبق أن ذكرنا ذلك مراراً) غير أن هذا الوجود الكلي قد أصبح بالنسبة للفرس موضوعاً ، وأصبح روحهم هو الوعي بماهية هذا الوجود الكـلي . في حين أن هذه الموضوعيـة لم تكن عند الهنـود سوى مـوضوعيـة طبيعية فحسب للبراهمة . ولا يُنظَر إليها على أنها كلية خالصة إلاّ في تـدمير الـوعي بها . أمّـا بين الفرس فإننا نجد أن هذا السلوك السلبي يصبح إيجابيـاً ويكون لـلانسان عـلاقة بـالوجـود الكـلي من ذلـك النـوع الـذي يجعله يبقى إيجـابيـاً في هـذه العلاقة . صحيح أن هذا الواحد ، أو الـوجود الكـلي ، لم يتم التعرّف عليـه حتى الآن بوصفه الوحدة الحرة للفكر ، ولم يُعبد بعد « بالروح ، وبـالحقيقة » لكنه لا يزال متخذاً شكل النور ..Light . غير أن النور ليس هو الـلاما ، أو براهما كـما أنه ليس جبـلاً ولا حيوانـاً ـ ولا هو هـذا الموجـود الجزئي أو ذاك ـ

وإنما هو الكلية الحسية ذاتها ، هو هذا التبدي البسيط . ومن ثمّ فإن الديانة الفارسية ليست عبادة أوثان ، فهي لا تعبد موضوعات طبيعية فردية وإنما تعبد الكلي ذاته . وفي الوقت نفسه فإن النور له مغزى روحي ، إنه صورة الخير والحق ، وهو جوهر المعرفة والارادة كما أنه أيضاً جوهر الأشياء الطبيعية كلها . إن النور يضع الانسان في مركز يكون فيه قادراً على ممارسة الاختيار ، وهو لا يستطيع أن يمارس الاختيار إلّا إذا خرج من حالة الاستغراق . لكن النور يتضمن مباشرة ضده وهو الظلام ، مثلما أن الشر هو نقيض الخير ، وكما أن الانسان لا يستطيع تقدير الخير ما لم يكن هناك شر ، وكما أنه لا يمكن أن يكون خيّراً حقاً إلّا إذا عرف الشر ـ فكذلك النور لا يمكن أن يكون له وجود بدون الظلام . ويمثل « أهورامزدا » و« أهرمان »(٧) عند الفرس الضدان اللذان نتحدث عنهما : فأهورامزدا هو إله مملكة النور أي مملكة الخير . أمّا أهرمان فهو إله مملكة الظلام أي مملكة الشر . لكن يظل هناك وجود أعلى منهما صدرا عنه ـ وهو الوجود الكلي الذي يخلو من التضاد ويُسمّى .. Zeraune - Akerene أي الكل اللامحدود . والكل هو شيء مجرد ، فهو لا يوجد لذاته ، وقد ظهر منه أهورامزدا وأهرمان . وتعد هذه الثنائية عادة على أنها نقص أو عيب في الفكر الشرقي ، وفيما يتصل بذلك فإن المرء إذا ظل متمسكاً بأن التناقضات مطلقة فإن هذا الفهم الذي يتمسك بذلك هو فهم لا ديني . غير أن طبيعة الروح نفسها تتطلب التناقض ، ومن ثمّ فإن مبدأ الثنائية ينتمي إلى فكرة الروح وهذه الروح تتميز في صورتها العينية عن ماهيتها . لقد أصبح الصفاء واللاصفاء معاً موضوعين للوعي عند الفرس ، وأصبح من الضروري بالنسبة للروح لكي تدرك ذاتها أن تضع الوجود الجزئي الخاص والسلبي في حالة تعارض مع الوجود الكلي والايجابي . وابتداء عن طريق التغلب على هذا

(٧) كلمة « أهورامزدا » مركبة من ثلاث كلمات هي : « أهو » ـ « را » ـ « مزدا » ومعناها على التوالي « أنا ـ الوجود ـ خالق » ـ أو أنا خالق الكون ولقد أطلق الله على نفسه في سفر الخروج اسم الوجود أيضاً اصحاح ٣ : ١٤ ـ أمّا أهرمان فهي تعني الخبيث أو القوى الخبثية (المترجم) .

التعارض تكون الروح قد ولدت مرتين . وقصور المبدأ الفارسي يكمن فقط في عدم التعرّف بشكل تام على وحدة التعارض . لأنه في ذلك التصور اللامتعين للكل غير المخلوق ، الذي ظهر منه « أهورامزدا » و « أهرمان » تكون الوحدة هي الوجود الأول فقط على نحو مطلق ، ولا ترد هذه الوحدة التمييز إلى ذاتها . فأهورامزدا يخلق بإرادته الخاصة الحرة ، لكن هذا الخلق يتم كذلك وفقاً لمشيئة الكل اللامحدود Zeruane - Akerene (فالعرض هنا متأرجح)[٨] ولا يوجد تصالح أو توفيق بين التناقضات إلّا في الصراع الذي ينشب بين « أهورامزدا » و « أهرمان » والذي ينتهي بانتصار أهورامزدا : فهو إله النور وهو الذي يخلق كل ما هو جميل ونبيل في العالم وهي الأمور التي تؤلف مملكة الشمس . وهو يمثل العنصر الممتاز والخيّر ، والايجابي في كل من الوجود الطبيعي والروحي على حد سواء . والنور هو جسد « أهورامزدا » ومن هنا جاءت عبادة النار ، لأنه حاضر في كل ضوء . لكنه ليس الشمس أو القمر ذاته ، إذْ لا يُقدِّس الفرس في هذين الجرمين سوى النور وحده الذي هو أهورامزدا . ولقد سأل زرادشت أهورامزدا : مَنْ هو؟ فأجاب : « اسمي هو أساس الموجودات كلها ومركزها ، هو العلم والحكمة العليا ، هو مدمر أمراض العالم كلها ـ وهو حافظ الكون ، وهو الارادة الخالصة الممتلئة بالغبطة . . الخ » . وما يصدر عن أهورامزدا يكون حياً ومستقلاً دائماً ، وتشهد الكلمة بذلك ، والصلوات هي آثاره . أمّا الظلام فهو ، على العكس ، جسد أهرمان . وإنْ كانت النار الدائمة تطرده من المعابد . والغاية الرئيسية لوجود كل انسان أن يحافظ على نفسه نقياً وأن ينشر هذا النقاء من حوله . وقواعد الطهر هنا تسهب جداً في شرح هذه الغاية . أمّا المطالب الأخلاقية فتتسم بالرحمة والتسامح ، فهي تقول لو أن شخصاً صبّ عليك سيلاً غامراً من الاهانات والشتائم لكنه ندم وتضرع إليك بعد ذلك فسمه صديقك . ونحن نقرأ في الونديدات Vindidad..[٩] أن القرابين تتألف

---

(٨) ما بين الأقواس من كلام هيجل (المترجم) .

(٩) الونديداد Vindidad.. حرفيا القانون المضاد للشياطين وهو يشبه سفر اللاويين في

أساساً من لحم حيوانات طاهرة ، ومن الزهور ، والفاكهة ، والروائح العطرية . وجاء في هذا السفر « لمّا كان الانسان قد خلق طاهراً جديراً بالسماء ، فإنه يصبح طاهراً مرة أخرى عن طريق شريعة سدنة أهورامزدا التي هي الطهارة ذاتها . إذا ما طهر الانسان نفسه عن طريق تقديس الفكر ، والكلمة ، والعمل ، فما هي الفكرة الطاهرة ؟ هي التي تصعد إلى بداية الأشياء . وما هي الكلمة الطاهرة ؟ إنها كلمة أهورامزدا[10] (والكلمة بهذا الشكل قد تشخّصت وهي تعني الروح الحي لوحي أهورامزدا كله) . وما هو « العمل الطاهر ؟ هو العبادة الخاشعة لملائكة السماء الذين خلقوا مع بداية خلق الأشياء » . وذلك يعني أن الانسان ينبغي عليه أن يكون فاضلاً ، كما أنه يفترض مقدماً حريته الذاتية وأن له إرادة خاصة ، ولا يتحدد أهورامزدا في صورة من الصور الجزئية للوجود . إن الشمس ، والقمر ، وخمسة أجرام سماوية أخرى تذكرنا بالكواكب السيارة المتلألئة ، والمنيرة التي هي أولاً الصور المعبودة لأهورامزدا ، وهي أول أبنائه المسماة « أميشا أسبنتا » ..Amshaspand ويرد من بين هؤلاء الأبناء ذكر اسم ميترا ..Mitra لكنا نحتار في تحديد النجم الذي يشير إليه هذا الاسم نفس الحيرة بصدد النجوم الأخرى . ويرد اسم « مترا » في كتب الزند بين النجوم الأخرى ولكن بدون أية مزية . ومع ذلك فإن نظام العقوبات يذكر الخطايا الأخلاقية بوصفها « خطايا مترا »[11] ، مثل عدم الوفاء بالوعد الذي يستوجب عقوبة ٣٠٠

= التوراة من حيث أنه يوضح التعاليم التي يخضع لها رجال الكهنوت من الزرادشتيين ، كما يتضمن وجهة نظر الزرادشتية في الموت والزواج وغيرها من المشكلات الاجتماعية (المترجم) .

(١٠) كان لأهورامزدا كما وصفه زرادشت سبعة مظاهر أو سبع صفحات هي : النور والعقل الطيب ، والحق ، والسلطان والتقوى والخير والخلود . ولمّا كان أتباعه قد اعتادوا أن يعبدو أرباباً فقد فسّروا هذه الصفات على أنها أشخاص سموهم اميشا اسبنتا أو القديسين الخالدين الذين خلقوا العالم ويسيطرون عليه باشراف أهورامزدا وإرشاده . (المترجم) .

(١١) في الترجمة الفرنسية : « خطايا ضد مترا » ص ١٣٩ .
وفي الأصل الألماني « خطايا مترا » : ..Mitrasünden (المترجم) .

جلدة . أمّا في حالة السرقة فهي تستوجب ، بالاضافة إلى ذلك ، ٣٠٠ سنة عقاب في جهنم . ويبدو « مترا » هنا بوصفه مدير أو رئيس الحياة الداخلية العليا للانسان . ثم تُعزَى أهمية كبرى إلى مترا ، فيما بعد ، بوصفه الوسيط بين أهورامزدا والناس . وحتى هيرودت يذكر عبادة « مترا » وقد انتشرت هذه العبادة في روما ، في عصر متأخر ، كلون من العبادة السرية . وفي استطاعتنا أن نتعقب آثارها حتى فترة بعيدة في العصور الوسطى . وهناك أيضاً ، بالاضافة إلى ما ذكرناه ، أرواح حارسة أخرى توضع في مرتبة أدنى من « أميشا اسبنتا » الذين هم أعلى مرتبة ، فهم حكّام العالم وحافظوه . ومجلس الرجال السبع العظام الذي أقامه ، ملك الفرس من حوله كان تقليداً للخواص المقربين من أهورامزدا . ويتميز « الفرافاشي » ..Fervers[١٢] - نوع من عالم الأرواح - عن مخلوقات العالم الأرضي ، وهم ليسوا أرواحاً على نحو ما نفهم نحن كلمة « روح » لأنها موجودة في كل جسم سواء أكان : ناراً ، أم ماء ، أم تراباً ، ووجودها يتلازم مع أصل الأشياء . وهي موجودة في كل مكان ، في الطرق العامة ، في المدن . . الخ وهي مستعدة لتقديم المساعدة لكل مَنْ يناديها . وهي تسكن الجوردمان ..Gorodman أو مقر « الصالحين » ، فوق قبة السماء الصلبة . ومن بين أبناء أهورامزدا نجد اسم شمشيد ..Dshemshid ويبدو أنه هو نفسه ما يسميه اليونان اشامينس الذي يطلق على نسله اسم ..Pishdadians وهي سلالة ينتمي إليها أيضاً قورش . ويبدو أن الفرس ، في فترة متأخرة ، كان يطلق عليهم الرومان اسم « الأكامينين » (القصائد الغنائية لهوراس ..Horace Odes III, i, 44) -

(١٢) الفرافاشي أرواح مرشدة نقية تقود الانسان في الحياة الدنيا ثم ترشد الميت إلى مستقره الأخير . ولقد جاء في الافستا (أو الابستاق كما كان يسميه العرب وهو كتاب زرادشت المقدس) أن هناك فرافاشي لجميع الأشياء الطبيعية ولكن لا يوجد للأشياء المصنوعة من الأشياء الطبيعية ، فمثلاً يوجد للأشجار « فرافاشي » ولكن ليس للكرسي أو المنضدة المصنوعين من خشب الشجر . وقد خلق الله فرافاشي ، تلك الأشياء الطبيعية منذ بدء الخليقة . وقبل خلق المادة يكون « فرافاشي » تلك المادة موجوداً كاملاً وصحيحاً . (المترجم) .

ويُقال أن شمشيد « ثقب الأرض بخنجر ذهبي » ، وهو قول لا يعني أكثر من أنه هو الذي أدخل الزراعة . وقيل أيضاً أنه بعد ذلك اجتاز البلدان المختلفة وأقام الأنهار وينابيع الماء ، وبذلك أخصب مناطق محددة من الأرض ، وجعل الوديان تعج بالحيوانات . . . الخ . ويتردد في « الزند أبستاق » Zend - Avesta.. كثيراً اسم « جوستاسب » Gustasp.. الذي يميل كثير من الباحثين المحدثين إلى الربط بينه وبين داراهستاسبوس ـ لكنه ربط لا يمكن الأخذ به على الاطلاق . لأن جوستاسب Gustasp.. هذا ينتمي ، بلا شك ، إلى شعب الزند القديم ـ وبالتالي إلى فترة سابقة على قورش . ولقد ورد كذلك في كتب الزند Zend.. اسم الطورانيين Turanians..(١٣) أو قبائل بدو الشمال كما ورد اسم الهنود رغم أنه لا يمكن ، من الناحية التاريخية ، إثبات شيء من ذلك .

وتشير الطقوس في ديانة أهورامزدا إلى أن الناس ينبغي عليهم أن يسلكوا في حياتهم طبقاً لمملكة النور .

ومن ثم فإن الوصية العامة الكبرى هي ـ كما سبق أن قلنا ـ الطهر الجسدي والروحي الذي يعتمد على كثير من الصلوات التي توجه إلى أهورامزدا . ولقد كان ملزماً للفرس بصفة خاصة أن يحافظوا على الكائنات الحية ، وأن يغرسوا الأشجار ويحفروا الآبار ، ويخصبوا الصحراء . حتى تتسع الحياة ، والإنجاب ، والطهر وتمتد مملكة أهورامزدا في كل الجهات . ويدنس الطهر الخارجي عند ملامسة حيوان ميت ، وهناك عدة توجيهات يحافظ بواسطتها المرء على طهره من مثل هذا التلوث . ويروي هيرودت عن « قورش » أنه عندما تقدم نحو بابل وابتلع نهر جندز Gyndes.. أحد خيول

---

(١٣) كان الطورانيون سكان طورانيا يحارون الايرانيين من الجهة الشمالية الشرقية . والطورانيون فريق من التتار أو الأتراك كانوا يقيمون بالاقليم المعروف الآن بالتركستان ، وكانوا الد أعداء الايرانيين . وكثيراً ما قامت بين الفريقين حروب دامية وبخاصة في عهد الملك كشتاسب الذي ظهر في عهده زرادشت (المترجم) .

عربة الشمس ظل مشغولاً بمعاقبته لمدة عام ، وذلك بتحويل مجراه إلى قنوات صغيرة حتى يحرمه من قوّته . وهكذا فعل الملك أخشربرش ..Xerxes عندما حطّم البحر جسوره فقيده بالسلاسل والأصفاد بوصفه الموجود الخبيث الشرير ـ أهرمان ..Ahriman .

الفصل الثاني

الأشوريون ، والبابليون ، والميديون ، والفرس

كما أن شعب الزند كان هو العنصر الروحي الأعلى في الامبراطورية الفارسية ، فكذلك نجد لدينا في أشور وبابل العنصر الخارجي : عنصر الثروة ، والترف والتجارة . وتنحدر الأساطير المتعلقة بهما إلى فترات تاريخية موغلة في القدم ، لكنها في حقيقة الأمر أساطير غامضة ومتناقضة إلى حد ما ، وليس من السهل توضيح هذا التناقض ما داموا لا يملكون كتباً تشريعية ولا أعمالاً محلية . ولقد قيل إن المؤرخ اليوناني اكتسياس ..Ctesias(١٤) قد استقى معلوماته من سجلات ملوك فارس . غير أنه لم يبق لدينا سوى شذرات قليلة فقط . ويقدم لنا هيرودت المعلومات الأوفر ، كما أن الروايات التي جاءت في الكتاب المقدس على جانب كبير جداً من الأهمية والتقدير ، لأن العبرانيين كانوا يرتبطون ارتباطاً مباشراً بالبابليين . أمّا بالنسبة للفرس فيمكن الاشارة هنا بصفة خاصة إلى الملحمة الغنائية المسماة « الشاهنامة » التي كتبها الفردوسي(١٥) . وهي ملحمة غنائية تقع في ٦٠,٠٠٠ بيت في

---

(١٤) يقول عنه ديورانت أنه مؤرخ مولع بايراد كل ما هو غريب ، وقد لا تكون إلّا اسطورة من الأساطير ، قصة الحضارة حـ ٢ ص ٢٩٨ من ترجمة الأستاذ محمد بدران . (المترجم) .

(١٥) ترجمت إلى كثير من اللغات الأوروبية ، ولها ترجمة ملخصة بالعربية أعدّها البنداري في القرن السابع الهجري ونشرها عبد الوهاب عزام مع مدخل قيّم عام ١٩٣١ (المترجم) .

مقطوعة شعرية . ولقد أعطانا جورس ..Gorres ملخصاً وافياً لها . وقد عاش الفردوسي في بداية القرن الحادي عشر بعد الميلاد في بلاد (السلطان) محمود العظيم في غزنة ..Ghasna شرق كابول ، وكاندهار ..Candahar . وتحتوي الملحمة الشهيرة التي ذكرناها الآن على التراث البطولي القديم لإيران (أعني لغرب فارس) لكن ليس لها قيمة كمصدر تاريخي ما دامت محتوياتها شعرية ومؤلفها مسلم(١٦) . وتصف هذه الملحمة البطولية قصة النزاع بين إيران وطوران ..Turan . فايران هي فارس الأصيلة ـ الأرض الجبلية جنوبي نهر جيحون ، أمّا طوران فتطلق على سهول جيحون ..Oxus وعلى السهول الممتدة بينه وبين نهر سيحون القديم ، (ياكسارتس ..Jaxartes) . ويلعب أحد الأبطال وهو روستان ..Rustan الدور الرئيسي في هذه العقيدة . غير أن حكاياتها إمّا أنها خرافية تماماً أو مشوّهة تماماً . ففيها يُذكَر الاسكندر ويُسمى اشكاندر ..Ishkander أو سكندر الروم . وكلمة الروم وإنْ كانت تعني الامبراطورية التركية (ولا يزال حتى الآن يطلق على أحد أقاليمها اسم روميلين ..Rumelien)فإنها تشير كذلك إلى الرومان ، وتُسمى امبراطورية الاسكندر في هذه القصيدة أيضاً بامبراطورية الروم . والخلط من هذا القبيل يتفق تماماً مع آراء المسلمين ونظراتهم(١٧) . ويروى في القصيدة أن ملك إيران شنَّ حرباً على « فيلب » وهزمه ثم طلب الملك أن يتزوج من ابنة « فيلب » ، لكنه بعد أن عاش معها فترة طويلة هجرها لأن رائحة نَفَسها

(١٦) من الغريب أن هيجل رغم ثقافته الموسوعية لم يكن يعلم عن الاسلام إلاّ ما يقوله المبشرون ، وربما كان هذا هو السبب في أحكامه الضحلة عنه . ويقول ستيس في هذا المعنى « مما يدعو إلى الدهشة الغريبة أن نرى هيجل يحذف الدين الاسلامي : صحيح أنه أشار إليه اشارات كثيرة متناثرة إلاّ أنه لم يخصص له مكاناً معيناً في تخطيطه للديانات . . » قارن « فلسفة الروح » ص من ترجمتنا العربية لكتاب ستيس ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٢ (المترجم) .

(١٧) نفس النظرة الضيقة التي عبّر عنها المستشرقون في عصر هيجل وتنمُّ عن جهل بالحضارة الاسلامية بقدر ما تكشف عن تعصب لحضارة الغرب (المترجم) .

كـريهة . وعنـدما عـادت إلى أبيها أنجبت ابنـاً هو شكنـدر ..Skander الذي هرع إلى إيران ليستولي على العرش بعد موت أبيه . فإذا اضفنا إلى ذلـك أنه لا توجد في القصيـدة كلها شخصيـة أو رواية تـرتبط بالملك قـورش فإن هـذا وحده يكفي للدلالة على أن هذه القصيدة ليس لها قيمة تاريخيـة . ومع ذلـك فللقصيـدة قيمـة من حيث أن الفـردوسي يعـرض علينـا فيهـا روح عصـره وخصائص واهتمامات التصورات الفارسية الحديثة .

أمّـا فيها يتعلق بـأشور فـإن علينا أن نـلاحظ أنـه بـالأحـرى اسم غـير محدد ، وأشور الأصلية هي جزء من بلاد ما بين النهرين شمال بابل ، ويذكر من المـدن الرئيسيـة في هذه الامبـراطوريـة أثور أو أشـور على نهر دجلة وهي الأصل المتأخر لمدينة نينوى ..Nineueh التي قيـل إن نينوس ..Ninus مؤسس الامبراطورية الآشوريـة هو الـذي أسسها . ولقـد كان يكفي في تلك الأيـام لمدينة واحدة أن تشكل امبراطوريـة بأسـرها . وذلـك مثل نينـوى ، وكذلـك اكباتانا ..Ecbatana(١٨) في ميديا التي قيل إنـه كان لهـا سبعة أسـوار ، وتقوم الـزراعة فيـها بين أسيـاجها ، ويقبـع داخل سـورها الأوسط قصـر الحـاكم . وهكـذا كـانت مسـاحـة نينـوى طبقـاً لـما يقـولـه ديـدور ..Didorus(١٩) . ٤٨٠ استـديـوم (حـوالي ١٢ ميـل ألمـاني ـ أو ٥٥ ميـل انجـليـزي). وكـان يـوجـد فـوق الأسـوار التي بلغ ارتفـاعهـا ١٠٠ قـدم ، مـا يقـرب من ألف وخمسمائة برج يقيم فيها مجموعة كبيرة من البشر . وكانت بابـل تشمل قـدراً مساوياً من السكان . ولقد نشأت هذه المدن لحاجة مزدوجة ، من ناحية حتى

---

(١٨) مدينة فارسية قديمة كانت تقع مكان مدينة همذان الحالية ـ و« اكباتانا » تعني « ملتقى الطرق الكثيرة » لوقوعهـا في واد جميل المنـظر أخصبته الميـاه الذائبـة من الثلوج ، وقد اتخذ منها الملك ديوسيس أول عاصمة لملكه وزينها بقصر ملكي يشـرف عليها ويغـطي ثلثي ميل مربع من الأرض (المترجم) .

(١٩) الاستديوم ..Stadium كلمة يونانية قديمة كانت تعني وحدة قياس طولية تتراوح بـين ٦٠٧ و٧٣٨ قدماً انجليزياً (المترجم) .

يتخلص السكان من حياة البدو وليعملوا بالزراعة والحرف اليدوية والتجارة في أماكن ثابتة . ولكي يظفروا من ناحية أخرى بالحماية ضد الشعوب الجبلية الجوّالة ، والأعراب اللصوص . وتشير أقدم الأساطير إلى أن منطقة الوادي هذه كلها ، اجتازتها قبائل البدو ، وأن هذا النمط من الحياة قد توقف عن الوجود بعد أن طغت عليه حياة المدن . ولهذا فقد كان « إبراهيم »[٢٠] ، يطوف بأسرته من بلاد ما بين النهرين ويتقدم غرباً إلى المناطق الجبلية في فلسطين . وعلى هذا النحو عاشت قبائل البدو الجوّالة ، حتى اليوم ، في المناطق الواقعة حول بغداد . ويُقال إن « نينوى » بُنيت عام ٢٠٥٠ ق . م . وبالتالي فإن تأسيس مملكة آشور لا يكون في وقت متأخر عن ذلك . ولقد أخضع نينوس ..Ninus لسيطرته أيضاً : بابل وميديا ، وبقطرية . ولقد كان فتح هذه المنطقة الأخيرة بصفة خاصة يُعدُّ تعبيراً عن أعظم قدر من الجهد فالمؤرخ اكتسياتس ..Ctesias يقدر عدد جنود المشاة الذين صاحبوا الملك بمليون وسبعمائة ألف ١,٧٠٠,٠٠٠ جندي ومثلهم من الفرسان . ولقد حوصرت مدينة بكتريا ..Bactra (بلخ) لفترة طويلة ، ويُنسب فتحها إلى الملكة سميراميس ..Semiramis[٢١] التي قيل إنها مع مجموعة من الجنود البواسل تسلقوا منحدراً شاهقاً لأحد الجبال . وتتأرجح شخصية سميراميس بين الروايات التاريخية والأسطورية : فإليها يُنسَب أيضاً بناء برج بابل الذي لدينا عنه في الكتاب المقدس أسطورة من أقدم الأساطير[٢٢] .

(٢٠) قارن سفر التكوين الاصحاح الثاني عشر (المترجم) .

(٢١) الملكة سميراميس في الأساطير الآشورية هي ابنة إلهة السمك ، ولقد تزوج منها القائد الأشوري « أونس » ثم أحبها الملك الأشوري « نينوس » وتزوجها بعد انتحار « أونس » ـ حكمت ٤٢ سنة بعد موت نينوس . وتروي الأساطير أنها هزمت بلاد فارس وأسست بابل ونينوى وشيّدت كثيراً من الآثار . تركت المملكة لابنها نينياس . أصبحت بعد موتها حمامة يعبدها الناس . وربما كانت الملكة سمورامات التي حكمت آشور (٨١٠ ـ ٨٠٥ ق.م.) هي الشخصية التاريخية التي تكمن خلف هذه الأسطورة . (المترجم) .

(٢٢) جاء في سفر التكوين أن أبناء البشر من نسل آدم : « قالوا هلمّ نبنِ لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء » الاصحاح الحادي عشر : ٤ . وكانوا يتكلمون لغة واحدة . =

وتقع بابل جنوبي نهر الفرات في سهل على درجة عالية من الخصوبة وصالح جداً للزراعة . ولقد كانت هناك حركة ملاحة ملحوظة في نهري دجلة والفرات فالسفن تأتي إلى بابل ، أحياناً من أرمنية ..Armenia وأحياناً من الجنوب بقدر هائل من الثروة المادية . أمّا الأرض المحيطة ببابل فتقطعها العديد من القنوات لخدمة أغراض الزراعة ، فتروي التربة وتمنع غرقها بالفيضانات أكثر من كونها تخدم أغراض الملاحة . ومباني سميراميس الفخمة في بابل نفسها شهيرة رغم أننا لا نستطيع أن نقطع بتحديد عدد المباني التي تُعزى للزمن القديم . لقد قيل إن بابل كانت على شكل مربع يشطره نهر الفرات وقد أُقيم على إحدى ضفتي النهر معبد الإله بعل ..Bel ، وعلى الضفة الأخرى القصور العظيمة للملوك . وتشتهر المدينة بأن لها مائة بوابة نحاسية وترتفع أسوارها ١٠٠ قدم ، سميكة نسبياً ، وكانت مزودة بمائتين وخمسين من الأبراج . أمّا الطرق الرئيسية في المدينة المؤدية إلى النهر فتغلق كل ليلة بواسطة أبواب نحاسية . ولقد قطع الرحّالة الانجليزي كير بورتر Ker Porter.. منذ حوالي ١٢ سنة البلاد التي كانت تقع فيها بابل القديمة (واستغرقت رحلته من ١٨١٧ حتى عام ١٨٢٠) . واعتقد أنه اكتشف فوق أحد المرتفعات البقايا المتبقية من برج بابل القديم ، وزعم أنه عثر على آثار لطرق عدة كانت تحيط بالبرج ، حيث كان يُقام في أعلاه تمثال لبعل وهناك إلى جانب ذلك تلال كثيرة مع بقايا من المباني القديمة . ومجموعة من الحجارة تظهر هكذا متطابقة مع تطابق الوصف الذي جاء في الكتاب المقدس عن بناء البرج[٢٣] . فقد غطى حشد هائل من هذه الحجارة ، أحد السهول

لكن الرب قال : « هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم ، حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض . فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض . فكفوا عن بنيان المدينة . لذلك دعي اسمها بابل ، لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض . . » سفر التكوين الاصحاح الحادي عشر : ٦ ـ ٩ . وهم بذلك يفسّرون تعدد اللغات البشرية من ناحية وتسمية بابل من ناحية أخرى (المترجم) .

(٢٣) جاء في الكتاب المقدس : « ارتحل الاسرائيليون شرقاً إلى أرض شنعار بالعراق لبناء =

الفسيحة ، على الرغم من أنه قد جلب الكثير منها منذ عدة آلاف من السنين ، وأن مدينة هيلا ..Hila كلها التي تقع بالقرب من مدينة بابل القديمة قد شيدت من هذه الحجارة . ويروي هيرودت بعض الوقائع ذات المغزى في عادات البابليين ، يبدو منها أنهم كانوا شعباً مسالماً يتصف أفراده بحسن الجوار فيما بينهم . فعندما يسقط البابلي مريضاً يأخذونه إلى مكان عام حتى تُتاح لكل عابر سبيل الفرصة لكي يقدم له نصيحته . أمّا البنات اللائي يبلغن سن الزواج فيُبَعن في مزاد علني وأعلى ثمن يُقدَّم للفتاة الجميلة يُخصَص كمهر لأختها القبيحة . ولا يظن ظان أن مثل هذا النظام يتعارض مع الالزام الذي يلزم كل امرأة أن تجعل من نفسها بغياً مرة واحدة في حياتها في معبد ميلتا ..Mylitla أمّا كيف يرتبط ذلك بمفاهيم الدين فهذا أمر من الصعب التعرّف عليه . وطبقاً لرواية هيرودت فإن هذه اللاأخلاقية العجيبة لم تغز بابل إلّا في الفترة المتأخرة عندما ازداد فقر الناس . وتبدو الواقعة التي رواها عن أن الفتيات الجميلات يقدمن مهوراً لأخواتهن الأقل جمالاً ، مؤكدة لروايته أنه كانت هناك رعاية اجتماعية حكيمة للجميع . كما يشير أخذ المريض إلى الأماكن العامة إلى شعور التضامن .

لا بدّ لنا هنا أن نذكر الميديين : فهم مثل الفرس شعب جبال حيث كان السكان يعيشون في جنوب ، وجنوب غرب بحر قزوين ، وينتشرون حتى أرمينيا . وتذكر قبيلة المجوس ..Magi بين الميديين ، بوصفها إحدى القبائل الست التي شكلت شعب الميديين . وكان من خصاله : القسوة والتوحش والبسالة في القتال . وقد أنشأ ديوسيس ..Degoces (أول ملوكهم) عاصمته الأولى في اكباتانا ..Ecbatana (همذان الحالية) . ويقال أنه وحّد تحت حكمه الملكي قبائل الميديين ، بعد أن حرروا أنفسهم للمرة الثانية من سيطرة الآشوريين ، ودفعهم لأن يقيموا له قصراً محصناً يليق

= مدينة ، فعملوا الطوب النيء ولم يكتفوا بذلك بل حوّلوه إلى طوب أحمر بحرقه فكانت أول مدينة قوية تُبنى » . سفر التكوين الاصحاح الحادي عشر (المترجم) .

بمكانته . أمّا بالنسبة لديانة الميديين ، فإن اليونان يطلقون على جميع الكهنة الشرقيين اسم المجوس ..Magi[٢٤] ومن هنا فإن هذه الكلمة غير محددة تماماً . لكن جميع المعطيات تشير إلى حقيقة أن علينا أن نبحث بين المجوس على رابطة وثيقة مع ديانة الزند . وعلى الرغم من أن المجوس احتفظوا بها ووسعوا فيها ، فإنهم أدخلوا عليها الكثير من التعديلات عندما نقلوها إلى الشعوب المختلفة التي اعتنقتها . ويقول اكسانوفون ..Xenophon أن الملك قورش كان أول مَنْ قدّم القرابين إلى الإله طبقاً لشعائر المجوس ، ومن هنا عمل الميديون كوسيط يذيع ديانة الزند وينشرها .

يُقال إن وجود الامبراطورية الآشورية البابلية التي أخضعت لامرتها كثيراً من الشعوب ، استمر زهاء ألف عام ، أو ألف وخمسمائة عام . وكان آخر حكامها هو سردنابالوس ..Sardanapalus[٢٥] الشهواني كما تقول الروايات التي وصلت لنا عنه . ولقد حرّض أرباكوس ..Arbaces « سترب الميدي »[٢٦] (أي حاكم ميديا) حكام الولايات الأخرى ضد سردنابالوس (أشور بانيبال) ـ وقاد الفرق التي كانت تتجمع كل عام في نينوى لغرض احصاء أعدادها . وعلى الرغم من أن سردنابالوس أحرز انتصارات عدة فإنه اضطر أخيراً إلى التسليم أمام القوى الهائلة ، وأغلق على نفسه مدينة

---

(٢٤) الكلمة أصلاً يونانية ..Magos أي مَنْ يقوم بأعمال خارقة ، ومنها جاء في الانجليزية والفرنسية كلمة السحر والشعوذة ..Magic, Nagique وقد أطلقها اليونانيون على أتباع الديانة الزرادشتية عندما فتح الاسكندر المقدوني بلاد فارس ثم عممت على رجال الدين الشرقيين فيما بعد (المترجم) .

(٢٥) هو أشور بانيبال ويسميه اليونان « سردنابالوس » وكان ملكاً على آشور حوالي عام ٦٦٩ حتى ٦٣٣ ق.م. وصلت البلاد في عهده إلى قمة مجدها وثروتها . لكنه كان قاسياً « بل أشد قسوة من الوحوش » كما يروي التاريخ (المترجم) .

(٢٦) كانت الامبراطورية مقسمة إلى ستربيات أي ولايات لتسهيل إدارتها وكان في كل ولاية نائب « لملك الملوك » قد يكون أميراً خاضعاً لسلطانه ولكنه في العادة « سترب » (أي حاكم) يعينه الملك ويبقى في منصبه ما دام حائزاً لرضا البلاط الملكي (المترجم) .

نينوى ، لكنه عندما شعر أخيراً أنه لن يستطيع المقاومة أشعل النار في قصره فهلك ، مع كل كنوزه ، وسط اللهب(٢٧) .

ولقد وقع ذلك ـ طبقاً لما يورده بعض المؤرخين ـ عام ٨٨٨ ق . م . أو في نهاية القرن السابع قبل الميلاد كما يقول مؤرخون آخرون . وتحطمت الامبراطورية تماماً بعد هذه الكارثة وانقسمت إلى امبراطورية آشورية ، وامبراطورية ميدية ، وامبراطورية بابلية ينتمي إليها الكلدانيون Chaldeans.. كذلك ، وهم شعب في الشمال من سكان الجبال اختلط بالبابليين . وكان لهذه الامبراطوريات المتعددة بدورها مصادرها المختلفة ، ولكننا نلتقي هنا بألوان من الخلط والاضطراب في الروايات التاريخية لم يقدّر له أن يتضح أبداً . وفي هذه العصور بدأت الاتصالات باليهود والمصريين . فقد خضعت مملكة اليهود للقوة الغالبة ، وسيق اليهود أسرى إلى بابل . وجاءت عن طريقهم ما لدينا من معلومات دقيقة عن حالة هذه الامبراطورية. وطبقاً لأقوال النبي دانيال ..Daniel(٢٨) ، فقد كان هناك في بابل تنظيم محدد بعناية شديدة لأعمال الحكومة . وهو يتحدث عن المجوس الذين كانوا يتميزون عن شرّاح الكتب المقدسة ، والعرّافين ، والمنجمين ، والعلماء ، والقلدانيين الذين يفسّرون الأحلام . ولقد تحدث الأنبياء ، عموماً ، كثيراً عن تجارة بابل العظيمة لكنهم يرسمون كذلك صورة مرعبة لانتشار الانحراف الأخلاقي .

أمّا الذروة الحقيقية التي بلغتها الامبراطورية الفارسية فينبغي علينا أن نبحث عنها عند الشعب الفارسي ، الحقيقي الذي ضم إليه آسيا الأمامية أو

---

(٢٧) هذه هي رواية المؤرخ اليوناني اكتسياس المولع بإيراد كل ما هو غريب ولهذا يتشكك فيها كثير من المؤرخين ويرى ديورنت أنها « قد لا تكون إلّا أسطورة من الأساطير » ولسنا نعرف كيف قضى آشور بانيبال نحبه على وجه الدقة ـ قارن قصة الحضارة جـ ٢ ص ٢٩٨ (المترجم) .

(٢٨) قارن مثلاً سفر دانيال الاصحاح السادس حيث يتحدث عن تنظيم المملكة وتقسيمها إلى مئة وعشرين مزرباناً (أي حاكماً) وعلى هؤلاء ثلاثة وزراء . . (المترجم) .

القريبة(٢٩) وكان على صلة باليونان ، كما كان الفرس على اتصال وثيق جداً بالميديين منذ فترة مبكرة ، ولم يغيّر انتقال السيادة إلى الفرس من الأمر شيئاً ، لأن قورش ، نفسه كان له صلة قرابة بملك الميديين . ومن هنا امتزجت أسماء الفرس والميديين ، ولقد شنّ رئيس الفرس والميديين ـ الملك قورش ـ الحرب على ليديا وملكها كروسس ..Croesus (قارون) ـ ويروي هيرودت أنه كانت هناك حروب قبل ذلك الوقت بين « ليديا » و « ميديا » حسمها تدخل ملك بابل . ونجد أمامنا هنا مجموعة من الدول تتألف من ليديا ، وميديا ، وبابل حيث سادت الأخيرة ، وامتدت سيطرتها حتى البحر الأبيض . وامتدت ليديا نحو الشرق في اتجاه هاليس ..Halys وحدود الشاطىء الغربي لآسيا الصغرى . وخضعت لها المستعمرات اليونانية الجميلة .

وهكذا كانت بالفعل درجة عالية من الثقافة في الامبراطورية الليدية ، وازدهر فيها الفن والشعر عن طريق اليونان . كما خضعت هذه المستعمرات أيضاً للفرس . ولقد نصحها الحكماء من أمثال بياس ..Bias ومن قبله « طاليس » بأن تتحد في حلف قوي ، أو أن تتحرك مدنها وممتلكاتها ، وأن تبحث لنفسها عن أماكن أخرى تسكن فيها (وكان بياس يقصد سردينيا ..Sardinia) غير أن مثل هذا الاتحاد لم يكن من الممكن أن يتحقق بين مدن كانت تشتعل الغيرة المرّة بينها وتعيش في نزاع متصل : وفي غمرة الترف والثراء لم يكونوا قادرين على أن يتخذوا قراراً بطولياً بالرحيل عن أوطانهم في سبيل الحرية . ولم يحدث أن تخلّت بعض المدن عن ممتلكاتها في سبيل التطلع لخير أعلى : الحرية إلّا عندما أوشكت على الخضوع للفرس . ويقول هيرودت عن الحرب ضد « الليديين » أنها مكّنت الفرس ـ الذين كانوا من قبل فقراء يتصفون بالخشونة من أن يتعرّفوا على الحياة الرغدة ، وعلى

---

(٢٩) آسيا الأمامية ..Vorderasien تعني « أقرب » أجزاء آسيا لأوروبا وتشمل : آسيا الصغرى والقوقاز وأرمينيا وبلاد ما بين النهرين وسوريا وفلسطين وبلاد العرب وإيران وطوران . (المترجم) .

الثقافة . وبعد أن فتح الملك قورش ليديا ، أخضع بابل ، وبذلك امتلك سوريا وفلسطين ، وحرر اليهود من الأسر ، وسمح لهم بإعادة بناء معبدهم . ثم في النهاية قاد حملة ضد المسجتية ..Massagetae[٣٠] واشتبك معهم في قتال بين نهري جيحون وسيحون ، لكنه هزم ومات ميتة محارب وفاتح . ولقد طبع موت الأبطال الذين يشكلون حقباً في تاريخ العالم بطابع رسالتهم . وهكذا مات قورش وهو يؤدّي رسالته في توحيد بلاد آسيا القريبة أو الأمامية تحت سيادة واحدة ودونما هدف أبعد .

---

(٣٠) مجموعة من القبائل المجهولة كانت تعيش على السواحل الجنوبية لبحر الخزر . ول ديورانت قصة الحضارة جـ ٢ ص ٤٠٥ (المترجم) .

الفصل الثالث

« الامبراطورية الفارسية والأجزاء التي تتكون منها »

الامبراطورية الفارسية ، امبراطورية بالمعنى الحديث لهذه الكلمة ، فهي مثل الامبراطورية الألمانية القديمة والامبراطورية العظيمة بقيادة نابليون ، فهي تتألف من عدد من الدول ، التي وإنْ كانت غير مستقلة ، إلّا أنها كانت تحتفظ بهويتها أو ذاتيتها الخاصة وعاداتها وقوانينها . فالشرائع العامة المفروضة على الكل لم تنلْ من الأحوال الخاصة لهذه الدول ، وإنما كانت تصونها وتدعمها ، حتى أن كل أمة من الأمم التي تؤلف الكل كان لها شكل خاص من أشكال الدستور . وكما أن النور يضيء كل شيء ، ويمنحه حيوية خاصة ، فكذلك تمتد الامبراطورية الفارسية لتشمل حشداً من الأمم لكنها تترك لكل أمة منها طابعها الخاص . بل إن بعض هذه الأمم كان يحكمها ملوك من أبناء جلدتها ، ولكل منها لغتها المتميزة ، وجيشها الخاص ، وطريقتها في الحياة ، وعاداتها وتقاليدها . وهذا كله يقوم في هدوء تحت النور العام . وتشمل الامبراطورية الفارسية جميع العناصر الجغرافية الثلاث التي ذكرناها فيما سبق متميزة وهي أولاً : الأراضي المرتفعة في فارس وميديا . ثانياً : سهول نهري دجلة والفرات التي اتحد سكانها في شكل متطور من أشكال الحضارة ـ وكذلك مصر ، أعني سهول وادي النيل حيث ازدهرت الزراعة ، والفنون الصناعية والعلوم . ثالثاً : العنصر الأخير هو الأمم التي

تـواجه أخـطار البحر : السـوريـون[٣١] ، والفينيقيـون وسكـان المستعمـرات اليونانية والدول الساحلية اليونانية في آسيا الصغرى . وهكذا وحّـدت فارس في ذاتها العناصـر الطبيعيـة الثلاث في الـوقت الذي بقيت فيـه الصين والهنـد غريبتان عن البحر ، فلا نجد في فارس ذلـك الشمول الجـوهري الـذي تمثله الصين ، ولا الحياة الهندية التي تسودها فوضى الأهواء في كـل مكان ، وإنمـا نجد الحكومة في فارس ، رغم أنها تضم الكل في وحدة مـركزيـة فإنها ليست سوى شكل من أشكال الاتحاد بـين الأمم يضم تحت جناحيـه شعوبـاً حرة . وبذلك وضعت حداً للقسوة والـوحشية التي كـانت الأمم تدمـر بها نفسهـا ، والتي يشهـد عليها عـلى نحو كـاف سفر الملوك وسفـر صموئيـل ، وشكـاوى الأنبياء ولعناتهم التي كانوا يصبـونها على الأوضـاع قبل الفتـح تُبيّن البؤس ، والخبث ، والاضطرابات المنتشرة بينهم . وفي الوقت نفسه تُبيّن السعـادة التي نشـرها قـورش في منـطقـة آسيـا القـريبـة (من أوروبـا) ولم يكن في مقـدور الآسيويين أن يوحّدوا بين الاستقلال ، والحرية وقوة الروح الراسخة ، وبـين الحضارة أعني الاهتمام بأعمال متنوعة والاتصال بألوان الترف المختلفة . ولا تتسق البسالة العسكرية عندهم إلّا مع الوحشية والقسـوة في العادات ؛ فهي ليست الشجاعة الهادئة للنـظام المستقر . وعنـدما تتفتـح أذهانهم لاهتمـامات متنوعة ، ينتقلون في الحـال إلى التخنث ويتركـون قواهم تنغمس في الاشبـاع الحسي ويتحول الناس إلى عبيد لحسية واهنة .

« فارس »

الفـرس ـ شعب الجبال البـدوي الحر ـ رغم أنهم يسيـطرون على بـلاد أكثر غنى وحضارة وخصـوبة ، فـإنهم احتفظوا للكـل بالخصـائص الأساسيـة

---

(٣١) سوف يتحدث هيجل عن سوريا باستمرار لتشمل منطقة الشام كلها وهـو في الغالب يضم تحت هذا الاسم : سوريا ولبنان وفلسطين (المترجم) .

للنمط القديم في حياتهم ، فقد وضعوا قدماً على أرض أسلافهم والقدم الأخرى على أرض الفتوحات الأجنبية . وكان الملك في أرض أجداده صديقاً بين أصدقاء ، كما لو كان المحيطون به أنداداً له . أمّا خارج هذه الأرض فقد كان السيد الذي لا بدّ أن يخضع له الجميع ، وهم ملزمون باثبات تبعيتهم له بدفعهم الجزية .

ولقد تابع الفرس الاهتمام بالتقوى والعبادة الخالصة لأهورامزدا وهم في ذلك مخلصون لديانة الزند ، أمّا قبور الملوك فقد كانت توجد في فارس الأصلية . وهناك كان الملك في بعض الأحيان يزور مواطنيه ، وكان يعيش معهم في غاية البساطة كما كان يحمل لهم الهدايا ، في الوقت الذي تُلزَم فيه جميع الأمم الأخرى بتقديم هدايا إليه . وكان في بلاط الملك فرقة من الفرسان الفرس تمثل لب الجيش كله[٣٢] ، وقد كانت تأكل على مائدة واحدة مشتركة ، وتخضع في كل جوانب حياتها لنظام أكثر كمالاً . وقد اكتسبوا الشهرة لبسالتهم وقد اعترف اليونانيون بشجاعتهم بكل احترام في الحروب الميدية . وعندما يشترك الجيش الفارسي كله ، الذي تنتمي إليه هذه الفرقة ، في حملة من الحملات ترسل في البداية استدعاءات للتجنيد لجميع السكان الآسيويين . وعندما يجتمع المحاربون يدبُّ في الحملة طابع القلق ، وأسلوب الحياة غير المستقر الذي يشكل طبيعة الفرس . وعلى هذا النحو غزوا مصر ، سكوذيا ..Scythia[٣٣] ، تراقيه ..Thrace ، وأخيراً اليونان ، حيث تعرضت قواهم الهائلة للتشتت والضياع . والزحف من هذا النوع يشبه

---

(٣٢) كانت أهم فرق الجيش فرقة الحرس الملكي المؤلفة من ألفين من الفوارس كلهم من الأشراف وكانت مهمتهم حراسة الملك (المترجم) .

(٣٣) الشيثيون ..Scythians شعب كبير عاش في العصور القديمة إلى الشمال من مقدونيا ، ومعلوماتنا عن هذا الشعب قليلة ، فلا نعرف عنهم سوى أنهم كانوا شعباً محارباً عنيفاً يقوم بغارات واسعة وصلت إلى آسيا الصغرى وبلاد اليونان ، ولكنه لم ينشىء حضارة متصلة العمر ، وعندما قامت الحضارة اليونانية بدأ أمرهم يضعف . (المترجم) .

تقريباً هجرة الشعوب ، حيث تصحب الجنود أسرهم . وكل شعب يظهر سماته القومية ، ومعداته الحربية وزيه العسكري ثم يتدفق في جماعات en masse.. ، ولكل شعب نظامه الخاص ، وطريقته الخاصة في القتال(٣٤) . ويلخص لنا هيرودت صورة رائعة لهذا التنوع في المظهر على نحو ما يتمثل في زحف الأمم الهائل تحت قيادة اخشويرش ..Xerxes (يقال إنه اصطحب جيشاً يتألف من مليونين من البشر) . ومع ذلك فإن مثل هذه الأمم وهي على هذا النحو من التفاوت في النظام والتفاوت في القوة والشجاعة يجعل من السهل علينا جداً أن نفهم كيف استطاعت جيوش اليونان الصغيرة عدداً والمدربة تدريباً جيداً والمفعمة بالشجاعة وبقيادة لا نظير لها ـ كيف استطاعت أن تقاوم هذه الأعداد الهائلة غير المنظمة من الجيوش الفارسية . وكان على جميع المقاطعات أن تقدم المؤن لمساعدة الفرسان الفرس الذين كان عليهم أن يتجمعوا في وسط المملكة . وكان على بابل أن تقدم ثلث المؤن المشار إليها ، وكانت تبدو بالتالي أغنى المقاطعات . أمّا فيما عدا ذلك فقد كان على كل شعب أن يقدم أفضل ما لديه من المحصول الخاص الذي تتميز به المقاطعة . وهكذا كان شعب الجزيرة العربية يقدم البخور ، وتقدم سوريا الأرجوان . . الخ(٣٥) .

وكانت تربية الأمراء تتم بعناية فائقة لا سيما الأمير الذي سيرث العرش . ويبقى أبناء الملك حتى سن السابعة بين النساء ولا يظهرون في

---

(٣٤) كانت القوات الحربية في فارس تتألف من فرق تُجنَّد من جميع الأمم الخاضعة لسلطان الفرس ، وكانت كل فرقة تتكلم لغتها وتقاتل بأسلحتها ، وتتبع أساليبها الحربية الخاصة ، ولم يكن عتادها وأتباعها أقل اختلافاً من أحوالها . وكانوا يركبون الجياد والفيلة ، ويصحبهم المنادون ، والكتبة ، والخصيان ، والعاهرات ، والسّراري . وكانت هذه الجحافل الجرارة إذا ما تعرّضت للهزيمة تتحول إلى جموع من الغوغاء العديمة النظام . (المترجم) .

(٣٥) احتكر السوريون صنع الصبغة الأرجوانية التي استخرجوا مادتها من حيوان بحري رخوي يكثر بالقرب من شواطئهم (المترجم) .

الحضرة الملكية . وابتداء من السابعة فصاعداً يتدربون على الصيد ، وركوب الخيل ، والرماية . . الخ وأيضاً على قول الصدق . وقد روي أيضاً ذات مرة أن الأمير كان يتلقى تعليماً في ديانة فن السحر عن زرادشت . ويشرف أربعة من نبلاء الفرس على تربية الأمير ، ويشكل أعظم الرجال من عِلية القوم شكلاً من أشكال مجلس الدولة أو لوناً من الديات ..Diet (أي المجلس النيابي) ويوجد بينهم أيضاً أفراد من المجوس الذين يوصفون بأنهم رجال أحرار تحركهم الوطنية والاخلاص والنبل . وهكذا يظهر السبعة العظام الذين هم صورة لأمشاسباند ..Amshaspand (المتمثل في الكواكب السبعة) التي تحيط بأهورامزدا . ولقد اجتمع هؤلاء العظماء السبعة بعد كشف القناع عن شخصية سمرديس المزيف(٣٦) . الذي انتحل شخصية شقيق الملك قمبيز بعد موته(٣٧) ـ اجتمعوا ليقرروا أفضل صورة للحكم . متخلين تماماً عن الهوى متحررين من كل طموح ، واتفقوا على أن النظام الملكي هو وحده خير ألوان الحكم الذي يمكن أن تأخذ به الامبراطورية الفارسية . فقد حددت الشمس والفرس الذي حياها أولاً بصهيله أن يكون الخليفة هو دارا ..Darius(٣٨) . ولمّا كانت الامبراطورية الفارسية قد امتدت واتسعت فقد

(٣٦) سمرديس الحقيقي هو شقيق الملك قمبيز (٥٢٩ ـ ٥٢٢ ق.م.) ومنافسه في الحكم وقد بدأ قمبيز حكمه بأن قتله . ثم ادّعى أحد رجال الدين من المجوس أنه سمرديس ، وأنه نجا بإحدى المعجزات من حسد أخيه قمبيز واعتزامه قتله ، ولهذا سمّي هذا الشخص باسم « سمرديس المزيف » . قارن تعليقنا المُفصّل في الجزء الأول من « محاضرات في فلسفة التاريخ » حاشية ٣٣ ص ١١٠ ، دار التنوير بيروت عام ١٩٨١ (المترجم) .

(٣٧) العبارة ليست دقيقة من الناحية التاريخية ، فهذا الرجل لم ينتحل شخصية سمرديس شقيق الملك قمبيز بعد موت الملك وإنما أثناء غيابه في حملة على مصر وتقول بعض الروايات أنه مات كمداً أو أنه انتحر عندما سمع الخبر (المترجم) .

(٣٨) أطاح الأشراف السبعة بعرش سمرديس المزيف ثم اختاروا واحداً منهم هو دارا هشتسبس (٥٥٨ ـ ٤٧٦ ق.م.) الملقب بدارا الأول أو دارا العظيم ليتولى مقاليد البلاد . وقد تزوج ابنة الملك قورش ، وخاض الكثير من الحروب من أهمها حربه الشهيرة مع اليونان التي هُزِم فيها جيشه في سهل مراثون (المترجم) .

قُسِّمت إلى ولايات كان يحكمها ستراب (حكام) . . ..Satraps وكثيراً ما كان هؤلاء الحكام يعاملون الولايات التي تخضع لحكمهم معاملة بالغة التعسف والتحكم كاشفين عن الحقد والكراهية التي يكنّها كل منهم لزميله مما يسبب الكثير من الأذى والشرور . وفضلاً عن ذلك فإن هؤلاء الحكام لم يكونوا سوى مشرفين عامين للولايات فحسب فقد كانوا ، في العادة يتركون لملوك البلاد الخاضعة للامبراطورية حرية التصرف بطريقتهم الخاصة . أمّا الماء والأرض فهي تنتمي كلها لملك الفرس العظيم . وقد كان ما طلبه الملك دارا بن هشتبس وكذلك أخشتاروس من اليونان هو « الأرض والماء » فحسب غير أن الملك لم يكن سوى السيد المجرد ، فقد ظل الاستمتاع بالبلاد للشعوب ذاتها التي تتألف التزاماتها من : الانفاق على البلاط ، وعلى حكام المقاطعات (الولايات) والمساهمة بتقديم أفضل ما تملك . ولقد ظهرت الضرائب المنظمة في عهد الملك دارا بن هشتبس . لكن عندما يزور الملك مقاطعات (ولايات) الامبراطورية فمن الواجب عليها تقديم الهدايا بمناسبة القدوم الملكي ، ومن حجم الهدايا نستطيع أن نستنتج ثروة المقاطعات التي لا تنفد . وهكذا فإن سيطرة الفرس لم تكن قط ظالمة أو جائرة سواء في الأمور الدينية أو الدنيوية . فلم يكن لدى الفرس ، طبقاً لما يقوله هيرودت ، أو ثان أو أصنام بل إنهم كانوا ، في الواقع ، يسخرون من التشبيهات البشرية التي تُنسَب للآلهة . لكنهم تسامحوا مع أي دين رغم أنك قد تجد حالات فردية من الغضب والحنق ضد الوثنية ، فقد دمروا المعابد اليونانية وحطموا تماثيل الآلهة .

سوريا وآسيا الأمامية السامية

تمثل سوريا بصفة خاصة أحد العناصر التي تتألف منها الامبراطورية الفارسية ، وهي شريط ساحلي كان بالغ الأهمية للامبراطورية الفارسية . فعندما كانت فارس تشرع في إحدى حملاتها الكبرى كان يصاحبها الأسطول الفينيقي والأسطول اليوناني سواء بسواء . ولم يكن الساحل الفينيقي سوى

ساحل ضيق جداً لا يتسع في الأعم الأغلب أكثر من فرسخين(٣٩) . وفي الشرق منه سلسلة جبال لبنان المرتفعة . كما تقع بطول ساحل البحر سلسلة من المدن الغنية الفخمة مثل : صور ..Tyre(٤٠) وصيدا ..Sidon(٤١) وبيلوس ..Byblus(٤٢) وبيروت ..Berytus وهي مدن كانت تشتغل بالتجارة العظيمة والملاحة المزدهرة ، ولكن هذه الملاحة كانت منعزلة ومحصورة في نطاق مصالح البلد الخاصة ، أكثر من تأثيرها في الدولة الفارسية ككل . وكانت تجارتها تتجه أساساً نحو البحر الأبيض ثم تمتد بعيداً في اتجاه الغرب . ولقد وصلت سوريا إلى درجة عالية من الحضارة بفضل علاقاتها مع عدد كبير من الشعوب ففيها كانت تقوم أجمل صناعات المعادن والأحجار النفيسة كما وصلت إلى مكتشفات هامة مثل الزجاج والأرجوان . وفيها تشكلت اللغة المكتوبة لأول مرة ، إذْ سرعان ما مسّت الحاجة في تعاملها مع الشعوب المختلفة إلى هذه اللغة . ولهذا فقد لاحظ لورد مكارتني ..Lord Macartney أنه في مدينة كانتون ..Canton(٤٣) ، نفسها شعر الصينيون بالحاجة إلى لغة مكتوبة (أكثر سهولة) . ولقد كان الفينيقيون هم الذين اكتشفوا المحيط الأطلنطي ، وكانوا أول مَنْ أبحر إليه . كما كانت لهم مستوطنات في قبرص ، وكريت . واكتشفوا مناجم الذهب في جزيرة ثاسوس ..Thasos التي

---

(٣٩) الفرسخ حوالي ثلاثة أميال (المترجم) . وفي الأصل مسافة ساعتين في الاتساع ولم ترد كلمة فرسخ ص ٢٧٨ . (المراجع) .

(٤٠) كانت صور أعظم المدن الفينيقية كلها ، وكلمة صور تعني « الصخرة » وهي أشهر موانىء العالم القديم أسست عام ٢٨٠٠ ق.م . وأصبحت مدينة تجارية هامة (المترجم) .

(٤١) كانت مدينة صيدا تقع جنوبي ببلوس وعلى بعد خمسين ميلاً منها ولم تكن في البداية إلا حصناً من الحصون ثم أصبحت مدينة مزدهرة (المترجم) .

(٤٢) يرى ديورانت أن هذه المدينة ظلت إلى آخر أيامها القصبة الدينية لفينيقيا . واشتق اليونان من اسمها « الكتاب » ..Biblo في لغتهم . ومن هذه الكلمة نفسها اشتقت كلمة ..Bible اسماً للكتاب المقدس ـ قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الأول ص ٣١٣ ـ ٣١٤ (المترجم) .

(٤٣) ميناء على نهر كانتون في الصين كان مركزاً تجارياً كبيراً (المترجم) .

تبعد عنهم كثيراً . كما أقاموا مناجم فضة في جنوب ، وجنوب غرب إسبانيا . وأسسوا مستعمرات في أفريقيا ، في يوتيكا ..Utica وقرطاجة . وأبحرت سفنهم من قادس ..Gades واتجهت بعيداً بمحاذاة الشاطىء الأفريقي ويقال إن بعضها طاف حول أفريقيا . كما جلبوا من بريطانيا القصدير ومن البلطيق الكهرمان البروسي .

ويفتح أمامنا هذا المجال عنصراً جديداً تماماً . فقد توقف الخمول والكسل وكذلك الشجاعة الوحشية ، وظهر محلهما النشاط في الصناعة ، وشجاعة التروي التي تقتحم أخطار البحر لكنها في الوقت نفسه تتدبر بحكمة وسائل السلامة والأمان . فكل شيء هنا يعتمد على نشاط الانسان وشجاعته وذكائه حتى الأهداف أيضاً تكون غايتها مصلحة الانسان . وتمثل إرادة الانسان ونشاطه هنا الشرط الأساسي لا الطبيعة ولا غلاّتها . لقد كان نصيب بابل من الأرض محدداً وثابتاً وكان بقاء الانسان فيها يعتمد على مسار الشمس وسير الطبيعة بصفة عامة . أمّا البحارة فهم يعتمدون على أنفسهم وسط تقلبات الموج ولا بدّ أن تظل أعينهم وقلوبهم مفتوحة يقظة على الدوام . كذلك فإن مبدأ الصناعة يعني الضد تماماً لما نتقبله من الطبيعة ، لأن موضوعات الطبيعة يطرأ عليها التشكيل لأغراض الاستخدام والزخرفة ، وفي الصناعة يكون الانسان نفسه غاية ويعامل الطبيعة على أنها شيء يخضع له يطبع عليها خاتم نشاطه . والذكاء هو الشجاعة المطلوبة هنا ، والخدمة أفضل من البسالة الطبيعية المحض . وهنا نرى الشعوب تتحرر من الخوف من الطبيعة ومن ربقة عبوديتها .

ولو أننا قارنا تصوراتهم الدينية مع التصورات التي سبق أن ذكرناها ، فسوف نجد أنه كانت هناك في البداية : في كل من بابل ، والقبائل السورية ، وفرجيا ..Phrygia(٤٤) وثنية حسية وحشية بدائية ـ هي التي وصف

(٤٤) اتخذ الفريجيون لهم إلهة أمًا تدعى ما ، ثم عادوا فسموها سيبيل ..Cybele واشتقوا هذا الاسم من الجبال (سيبيلا) التي كانت تعيش فيها ، وعبدوها على أنها روح الأرض غير المنزرعة ، ورمز جميع قوى الطبيعة المنتجة (المترجم) .

« الأنبياء » لنا سماتها[٤٥] الأساسية . والواقع أنه لا شيء يذكر هنا ، سوى الوثنية ، وهي شيء غير محدد : فالصينيون ، واليهود ، واليونانيون ـ جميعاً مارسوا العبادة الوثنية . كما أن الكاثوليك مجّدوا صور القديسين . ولكن في مجال الفكر ، الذي نهتم به الآن ، نجد أن قوى الطبيعة والقوى المنتجة بصفة عامة هي التي كانت تشكل موضوع التقديس ، والعبادة هي الترف ونعيم الحياة . ولقد قدّم « الأنبياء » عن هذه العبادة صوّرة غاية في الفظاعة ، وترجع فظاعة هذه الصورة إلى حد ما ، إلى كراهية اليهود للشعوب المجاورة . وهذا واضح بصفة خاصة في سفر الحكمة الذي يحتوي على هذه الأوصاف بالتفصيل ، فهو لا يتضمن وصفاً لعبادة الموضوعات الطبيعية فحسب ، بل يتضمن كذلك وصفاً لعبادة القوة الكلية للطبيعة مثل : عشتاروت ..Astarte[٤٦] ، وسيبيل ..Cybele[٤٧] . وعبادة ديانا ..Diana[٤٨] في مدينة أفسس ..Ephesus[٤٩] . وكانت العبادة نشوة حسية وفجوراً وترفاً . وهناك سمتان أساسيتان تميزانها هما : الحسية والقسوة : « عندما يحتفلون بأعيادهم يكونون كالمجانين[٥٠] » هكذا يقول سفر الحكمة . وترتبط القسوة بالحياة الحسية الخالصة عندما لا يبلغ الوعي مرتبة التصورات العامة ـ لأن الطبيعة من حيث هي طبيعة تكون هي الأعلى ، أمّا الانسان فلا قيمة له ، أو ليست له إلّا قيمة ضئيلة للغاية . وفضلاً عن ذلك فإن العبادة في مذهب تعدد الآلهة هذا (أو مذهب الشرك Polytheism)[٥١] تتضمن تدمير الروح لوعيها وللجانب الروحي بصفة عامة من حيث أنها تسعى

---

(٤٥) المقصود بالأنبياء هنا ، أنبياء اليهود على نحو ما ذكرهم العهدالقديم بصفة خاصة (المترجم) .

(٤٦) إلهة الخصب والجنس والحب عند الفينيقيين (المترجم) .

(٤٧) إلهة الطبيعة عند شعوب آسيا الصغرى (المترجم) .

(٤٨) إلهة القمر والصيد (المترجم) .

(٤٩) أفسس هي المدينة التي كانت تضم معبداً شهيراً لديانا (المترجم) .

(٥٠) في الترجمة العربية « فإنهم إذا فرحوا جُنّوا . . » سفر الحكمة الاصحاح ١٤ : ٢٨ .

(٥١) مؤلفة من مقطعين يونانيين ..Poly أي كثرة و ..Theos إله (المترجم) .

لتوحيد نفسها مع الطبيعة . وهكذا نجد الأطفال يُضحّى بهم كقرابين . وكهنة سيبيل ..Cybele يخضعون أنفسهم للبترْ أو التشويه. فالرجال تجعل من نفسها خصياناً والنساء يجعلن من أنفسهن بغايا المعبد . وهناك سمة في بلاط بابل تستحق أن نشير إليها ، وهي أنه عندما تربّى النبي دانيال في البلاط لم يطلبوا منه المشاركة في الطقوس الدينية ، وفضلاً عن ذلك فقد سمحوا له بتناول أطعمة طاهرة(٥٢) ، وكانت وظيفته الرئيسية تفسير أحلام الملك لأن فيه روح الآلهة القدوسين »(٥٣) . وكان الملك يعتقد أنه يرفع نفسه فوق الحياة الحسية عن طريق الأحلام بوصفها اشارات من قوة عليا . وهكذا يتضح ، بصفة عامة ، أن رابطة الدين كانت فضفاضة . وأننا لا نجد فيها وحدة ، لأننا نلاحظ أيضاً ضرباً من التقديس يُقدّم لصور الملوك . فقوة الطبيعة والملك بوصفه قوة روحية هما القوة العليا ، وهكذا فإننا نجد أن هذه العبادة الوثنية تكشف عن تباين كامل للنقاء الفارسي .

ونحن نجد ، من ناحية أخرى ، شيئاً مختلفاً أتم الاختلاف بين الفينيقيين : شعب البحر الجسور ؛ فهيرودت يخبرنا أن هرقل

---

(٥٢) يعتمد هيجل ، كعادته دائماً في اقتباس النصوص ، على الذاكرة ، فيكتفي بذكر الفحوى بصفة عامة . فالقصة التي يرويها الكتاب المقدس مختلفة بعض الشيء فعندما هاجم « نبوخذنصّر» ملك بابل أورشليم وحاصرها أمر « رئيس خصيانه بأن يُحضر من بني اسرائيل ، ومن نسل الملوك ، ومن الشرفاء ، فتياناً لا عيب فيهم حسانَ المنظر حاذقين في كل حكمة ، وعارفين معرفة ، وذوي فهم بالعلم . فيعلموهم كتابة الكلدانيّين ولسانهم ، وعَيّنَ لهم الملكُ وظيفةَ كلَّ يوم بيومه من أطايب الملك ومن خَمْرِ مَشروبه لتربيتهم ثلاث سنين . . وكان من بينهم النبي دانيال » . سفر دانيال الاصحاح الأول ١ - ٣ لكن النبي دانيال طلب من رئيس الخصيان « ألاّ يتنجس » . وأعطى الله دانيال نعمة ورحمة عند رئيس الخصيان فكان يعطيه « القطانيّ » فقط وهو نبات كالعدس ليأكله ويشرب ماء (المترجم) .

(٥٣) قصة حلم نبوخذنصّر وقتله حكماء بابل لأنهم لم يستطيعوا تفسيره مذكورة بالتفصيل في الاصحاح الثاني من سفر دانيال . (المترجم) .

..Hercules[٥٤] كان يُعبَد في مدينة صور ..Tyre . . فإذا لم يكن الإله هنا أيضاً هو نفسه متحداً مع الألوهية اليونانية ، فإننا لا بدّ أن نفهم من ذلك ما يتفق تقريباً مع مفاهيم تلك الألوهية الاغريقية . وتشير هذه العبادة ، بصفة خاصة ، إلى طبيعة الشعب وخلقه ، « فهرقل » هو الذي يقول عنه اليونانيون إنه رفع نفسه إلى جبال الأولمب ..Olympus بفضل شجاعته وجسارته . وقد كان تصور الشمس في الأعم الأغلب هو الأساس في فكرة هرقل وفي أعماله الاثني عشر . غير أن هذا الأساس لا يعطينا التحديد الرئيسي للأسطورة التي تقول إن هرقل هو ابن أحد الآلهة ، وأنه بفضل جهده وما يتصف به من فضائل استطاع أن يجعل من نفسه إلهاً ببسالته وجرأته البشرية وهو بدلاً من أن يقضي حياته في كسل قضاها في تعب ونصب .

العامل الديني الثاني هو عبادة أدونيس ..Adonis ـ التي كانت قائمة في مدن الساحل (ولقد انتشرت كذلك في مصر أيام البطالمة) . كما نجد نصاً رئيسياً عنها في « سفر الحكمة » حيث يقول الاصحاح الرابع عشر : ١٣ وما بعدها : « لأن اختراع الأصنام هو أصل الفسق ووجدانها فسادُ الحياة . وهي لم تكن في البدء وليست تدوم إلى الأبد ، لأنها إنما دخلت العالمَ بحب الناس للمجد الفارغ ، ولذلك قد عُزِمَ على إلغائها عن قريب . وذلك أن والداً قد فُجع بثُكل مُعجَّل فصنع تمثالاً لابنه الذي خُطف سريعاً وجعل يَعبدُ ذلك الانسان الميتَ بمنزلةِ إله ورَسَمَ للذين تحت يده شعائر وذبائح[٥٥] .

---

(٥٤) أشهر الأبطال في أساطير اليونان والرومان ، كانت شجاعته خارقة وقوته جبارة وكانت هيرا تكرهه كرهاً عميقاً لأنه ابن زوجها من الكمينا ، أرسلت إليه بعد ميلاده حيتين لتلدغانه لكنه خنقهما . اشترك في مغامرات عديدة كرحلة السفينة ارجو ، وأنهى البطل حياته عندما أدرك أن زوجته سممته ، وبعد موته صعد إلى ذرى الأولمب وتزوج هيبا إلهة الشباب الدائم وكانت عبادته من أكثر العبادات انتشاراً في العالم اليوناني (المترجم) .

(٥٥) نقلنا النصوص الدينية من سفر الحكمة من الكتاب المقدس « العهد العتيق » المطبعة الكاثوليكية فبراير ١٩٥١ بيروت . (المترجم) .

ولقد كانت عبادة « أدونيس » قريبة الشبه جداً بعبادة أوزيريس Osiris.. ويحتفل بموته في احتفال جنائزي كئيب تنخرط فيه النساء في بكاء وعويل حاد أمام الإله الراحل ، ولقد كان النواح في الهند تخمده بطولة التبلد ، إذْ تلقي النساء بأنفسهن في ماء النهر ، أمّا الرجال ، وهم بارعون (في التعذيب) فإنهم يفرضون على أنفسهم أقسى أنواع الآلام ، ويستسلمون لانعدام الحيوية والنشاط ، حتى يتدمر الوعي في تأمل فارغ مجرد . ولكن هنا يصبح الألم البشري ، عنصراً للعبادة والتقديس ففي الألم يشعر الانسان بذاتيته : فهو هنا يجوز له ، وينبغي عليه ، أن يطلق العنان للوعي الذاتي وللشعور بالوجود الفعلي . والحياة هنا تكتسب من جديد قيمتها . ويُحتفل بألم عام : لأن الموت يصبح مباطناً للألوهية فحتى الإله يموت . وقد رأينا عند الفرس أن الصراع سجال بين النور والظلام ، لكن المبدأين هنا يتحدان في مبدأ واحد هو المطلق . والسلبي هنا ليس شيئاً آخر سوى الطبيعي . ولكن بما أنه موت إله فهو ليس حداً يلحق بموضوع فردي ، وإنما هو السلبية الخالصة ذاتها . وهذه نقطة هامة لأن الإله لا بدّ أن يدرك بصفة عامة على أنه روح ، وهذا يعني أنه لا بدّ أن يكون عينياً ، وأن يحتوي في ذاته على عامل السلب . إن خصائص القوة والحكمة هي أيضاً خصائص عينية ، لكن كمحمولات فحسب ، حتى أن الله يبقى وحدة جوهرية مجردة تتلاشى فيها الاختلافات ، ولا تصبح هذه الاختلافات لحظات في هذه الوحدة . غير أن العنصر السلبي نفسه هو جانب من جوانب الإله وهو الشيء الطبيعي وهو الموت الذي تشتمل طقوسه على الألم . وعلى ذلك فإن في الاحتفال بموت أدونيس وقيامته ما يجعل العيني يصل إلى الوعي ؛ فأدونيس شاب اختطفه الموت المبكر من والديه . أمّا في الصين فنجد في عبادة الأسلاف أن هؤلاء يحظون بالمجد الإلهي . غير أن الآباء في موتهم إنما يدفعون فحسب دين الطبيعة . وعندما يختطف الموت شاباً فإن الحادث يُنظر إليه على العكس من ذلك ـ على أنه أمر ينبغي ألّا يكون عليه النظام الطبيعي الصحيح للأشياء . وعلى حين أن الألم لموت الآباء ليس هو الألم الصحيح ،

فإن الموت في حالة الشاب يمثل مفارقة ..Paradox وهذا هو العنصر الأكثر عمقاً في التصور ، وهو أنه في الله يتجلّى السلب والتناقض وأن العبادة التي تؤدّى له تتضمن كلا العنصرين : الألم الذي يُحس به بسبب الإله المفقود ، والفرح الذي يُحدثه العثور عليه من جديد .

اليهودية

الشعب الساحلي الآخر الذي ينتمي إلى الامبراطورية الفارسية ، في تلك الدائرة الواسعة (من القوميات التي يشملها) هو **الشعب اليهودي** . ونحن نجد هنا أيضاً لدى هذا الشعب كتاباً أساسياً هو : « **العهد القديم** » حيث تُعرض آراء هذا الشعب الذي يمثل مبدأه المبدأ المضاد مباشرة للمبدأ الذي وصفناه الآن توّاً . فعلى حين أن الجانب الروحي عند الشعب الفينيقي كان لا يزال يحده جانب الطبيعة ، فإننا نجد أن اليهود ـ على العكس من ذلك ـ قد تخلّصوا من هذا التحديد تماماً ، فقد أصبح هذا الجانب هو النتاج الخالص للفكر ، حيث يظهر التصور الذاتي في مجال الوعي ، ويطوّر الجانب الروحي نفسه بشكل حاد ضد الطبيعة ، وضد الاتحاد معها . صحيح أننا لاحظنا في مرحلة سابقة أن هناك تصوراً خالصاً لبراهما ..Brahm ، غير أن ذلك كان بوصفه الوجود الكلي للطبيعة . وعلى هذا النحو لا يكون « براهما » نفسه موضوعاً للوعي ، وقد رأينا أنه (أي ما يقصد به براهما) قد أصبح موضوعاً للوعي عند الفرس ، لكنه كان تصوراً حسياً في صورة النور . أمّا في هذه المرحلة فقد تقدمت فكرة النور لتصبح « يهوه » ..Jehovah أو الواحد الخالص . ويشكل ذلك الانفصال بين الشرق والغرب ، فالروح تهبط إلى أعماق وجودها الخاص وتتعرّف على المبدأ الأساسي المجرد بوصفه المبدأ الروحي ، كما أن الطبيعة التي كانت تمثل في الشرق الأساسي والوجود الأول قد هبطت الآن إلى مرتبة الكائن المخلوق ، وأصبح الروح الآن هو الوجود الأول . ويُعرف الله بوصفه الخالق لجميع البشر ، ولكل الطبيعة ، وعلى أنه السبب المطلق بصفة عامة ـ لكن هذا المبدأ العظيم في تحديده الجديد هو

وحدة مانعة ..exclusive ومن ثمّ فإن هذا الدين لا بدّ أن يملك بالضرورة عنصر « المنع » الذي يعتمد أساساً على ما يأتي : هذا الشعب هو الوحيد (الذي آمن بهذا الدين) وهو الذي تعرّف على الله الواحد ، واعترف به الله . ومن هنا كان إله الشعب اليهودي هو إله إبراهيم ونسله فقط ، وعلى ذلك فإن مثل هذا التصور لله يتضمن الفردية القومية والعبادة المحلية الخالصة . وفي مقابل هذا الإله تُعدُّ جميع الآلهة الأخرى زائفة . وفضلاً عن ذلك فإن هذه التفرقة بين « الصحيح » و« الزائف » تفرقة مجردة تماماً ، لأنه فيما يتعلق بالآلهة الزائفة لم يكن هناك اعتراف بأن مظهر الألوهية يشعُّ فيها ، في حين أن أية صورة من صور القوة الروحية ، أو بالأحرى ، أي دين كيفما كان هذا الدين أيضاً من طبيعته أنه لا بدّ أن يتضمن ، بالضرورة عنصراً إيجابياً . ومهما يكن من خطأ دين من الأديان ، فإنه على الرغم من ذلك يحتوي على الحقيقة وإنْ كانت أيضاً في صورة شاحبة . ففي كل دين يوجد حضور إلهي ، علاقة إلهية ، وعلى فلسفة التاريخ أن تبحث في أكثر الأشكال ذبولاً عن العنصر الروحي ، غير أن الدين لا يستلزم من كونه ديناً أن يكون جيداً إذْ ينبغي علينا ألاّ نقع في تصور فضفاض لا يكون فيه للمضمون أهمية بل تكون الأهمية للشكل فقط . وليس لدَى الديَن اليهودي هذا التسامح المتراخي فهو ديانة مانعة على نحو مطلق .

ولقد تحرر الروحي ، الذي نتحدث عنه هنا ، تماماً من كل ما هو حسي وارتدّت الطبيعة إلى شيء خارجي فحسب وغير إلهي . وذلك في واقع الأمر هو حقيقة الطبيعة . لأن الفكرة لن تستطيع أن تبلغ إلى مرحلة التصالح (وتتعرّف على نفسها) في هذا الشكل الخارجي إلاّ فيما بعد . ومن هنا فأول تعبير عنها سيكون فيما هو ضد الطبيعة ، لأن الروح التي ظلت حتى الآن بغير تقدير أو تبجيل تبلغ الآن لأول مرة جدارتها التي تستحقها في حين تعود الطبيعة إلى مكانها الصحيح . فالطبيعة في ذاتها شيء خارجي شيء موضوع ومخلوق . وهذه الفكرة التي تقول إن الله هو سيد الطبيعة وخالقها تتضمن المكانة التي لله باعتبار أنه ذو الجلال ، في حين أن الطبيعة كلها ليست سوى

مظهر لمجده فهي مُسخَّرة في خدمته ، وفي تباين مع هذا اللون من السمو والجلال نجد أن ما تقدمه الديانة الهندية ليس سوى اللامتحدد . ولقد أدّى انتشار الروحانية بصفة عامة إلى أن فقدت الحسية واللاأخلاقية ميزتها وهبطت إلى مرتبة اللاإلهي . فلم يعد هناك سوى الواحد أي الروح ، واللامحسوس الذي هو وحده الحقيقة ، وهكذا يكون الفكر حراً من أجل ذاته ويمكن أن تظهر الآن الأخلاق الحقة ، لأن الله يُمجّد عن طريق الاستقامة والعمل الصالح « ومَنْ يمشي في طريق الرب »[٥٦] ويكون جزاء السير في هذا الطريق : السعادة ، وحياة الرخاء الدنيوية . إذْ يُقال لك : « أنت يا مَنْ تريد أن تعيش طويلاً على هذه الأرض » . وها هنا أيضاً نجد لدينا إمكانية النظرة التاريخية حيث أصبح الفهم هنا واقعياً عندما وُضع المقيد والمحدود في مكانهما الصحيح ، وتمَّ ادراكهما على أنهما الشكل المناسب للوجود المتناهي ، ونُظر إلى الناس بوصفهم أفراداً لا على أنهم تجسيدات لله ، وإلى الشمس على أنها شمس ، والجبال على أنها جبال لا على أنها تملك روحاً أو إرادة .

ونلاحظ لدى هذا الشعب وجود احتفالات دينية صارمة تعبّر عن علاقته بالفكر الخالص . فالفرد بوصفه عينياً لم يصبح حراً بعد ، لأن المطلق نفسه لم يُدرك كروح عيني لأن الروح لا تزال تظهر على أنها اللاروح ، (أعني محرومة من صفاتها الخاصة) . صحيح أن المشاعر الذاتية تتجلّى أمامنا بوضوح فهناك : القلب النقي ، والتوبة ، والورع ، لكن الفردية العينية الجزئية لم تصبح موضوعية بالنسبة لذاتها في المطلق . ومن ثمّ تبقى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمراعاة الطقوس والقانون الذي يجد أساسه في الحرية الخالصة في صورتها المجردة ، فاليهود يملكون ذلك الذي يجعلهم على نحو ما هم عليه من خلال الواحد : وبالتالي ليس للفرد حرية من أجل ذاته . وينظر اسبينوزا

---

(٥٦) قارن « هو الصخر الكامل الصنيع الذي كل طرقه حكمة ، الله حق لا جور عنده هو العدل المستقيم » سفر التثنية الإصحاح الثاني والثلاثون عدد ٤ (المترجم) .

Spinoza.. إلى شريعة موسى على أنها وحي من الله إلى اليهود بوصفها ضرباً من العقاب فهي بمثابة عصا التأديب والفرد لا يصل أبداً إلى الشعور بالاستقلال . ولهذا السبب لا نجد لدى اليهود أي إيمان بخلود النفس لأن الفردية لا توجد في ذاتها ولذاتها ، ولكن على الرغم من أن الفرد لا قيمة له في اليهودية ، فإن الأسرة على العكس من ذلك تتمتع بالاستقلال ، لأن عبادة يهوه تتعلق بالأسرة ، وبالتالي يُنظر إليها على أنها وجود جوهري . أمّا الدولة فهي مؤسسة لا تنسجم مع المبدأ اليهودي ومن ثمّ كانت غريبة على التشريع الموسوي . ويهوه عند اليهود هو إله إبراهيم ، واسحق ، ويعقوب الذي أمرهم بالرحيل عن أرض مصر وأعطاهم أرض كنعان . وحكايات الآباء تثير اهتمامنا ، فنحن نرى في هذا التاريخ الانتقال من مرحلة البداوة البطرياركية (الأبوية) إلى مرحلة الزراعة . وبصفة عامة يعرض التاريخ اليهودي ملامح كبيرة . لكن هذا التاريخ تفسده سمة الانغلاق (التي يقرّها الدين) بالنسبة لروح الأمم الأخرى (ولهذا أمروا أيضاً بالقضاء على سكان أرض كنعان) كما تفسده نقص الثقافة عموماً وظهور الخرافة التي أدّى إليها تصور القيمة العليا لجنسهم الخاص . وتشكل المعجزات كذلك سمة مفسدة لهذا التاريخ كتاريخ لأنه طالما أن الوعي العيني ليس حراً ، فإن عينية الادراك لا تكون حرة هي الأخرى ، صحيح أن الطبيعة لا تؤلّه لكنها لم تُفهَم بعد .

وأصبحت العائلة أمة عظيمة خلال غزو أرض كنعان(٥٧) ، واستولت على الأرض ووضعتها في حوزتها وأقامت معبداً عاماً في «أورشليم» (القدس) . لكن لم تكن هناك في حقيقة الأمر وحدة سياسية(٥٨) . وفي

(٥٧) لعله يقصد بالعائلة « هنا أسرة يعقوب التي كان عدد أفرادها حوالي أربعين شخصاً عندما دخلت مصر في القرن الثامن عشر قبل الميلاد لتبقى حوالي أربعة قرون وتخرج في القرن الرابع عشر وعدد أفرادها يزيد قليلاً عن نصف مليون » بعد إقامة أربع مئة وثلاثين سنة ، قارن سفر الخروج الاصحاح الثاني عشر ٣٧ ـ ٤٠ (المترجم) .

(٥٨) بعد خروج اليهود من مصر بقيادة موسى تاهوا في سيناء أربعين سنة ، وفي هذه الفترة مات هارون ثم موسى وتولّى يشوع بن نون قيادة بني إسرائيل ، فدخل فلسطين واستولي على مدينة أريحا ، وقتل اليهود كل ما بها من إنسان أو حيوان ، =

حالات الخطر القومي يظهر الأبطال الذين كانوا يضعون أنفسهم على رأس الجيوش ، رغم أن الأمّة كانت في أغلب الأحيان في حالة خضوع واستسلام . ثم اختاروا الملوك بعد ذلك . وكانوا هم أول مَنْ جعل اليهود مستقلين ، ولقد قام داود بعدة غزوات(٥٩) ، وكان التشريع في الأصل خاصاً بالأسرة وحدها ، ومع ذلك فإن المرء يجد في أسفار موسى أنه كانت هناك رغبة متوقعة في وجود ملك ، وكان يجب أن تختاره الكهنة ، وكان ينبغي ألّا يكون أجنبياً ، وألّا يكون لديه فِرَق كبيرة من الفرسان وأن يكون له عدد قليل من الزوجات . وبعد فترة قصيرة من المجد عانت المملكة من التمزق الداخلي فانقسمت على نفسها(٦٠) ، ولمّا كان لا يوجد سوى قبيلة واحدة من اللاويين(٦١) ، ومعبد واحد في أورشليم فقد دخلت الوثنية في الحال عند

وحرقوا المدينة كلها ولم ينج من الموت من سكان المدينة إلّا المرأة الزانية وأهلها وهي التي آوت جواسيس يشوع - (أنظر سفر يشوع الاصحاح السادس) لكنهم رغم ذلك لم يشكلوا دولة أو أمة متماسكة موحدة بل ظلوا زمناً طويلاً يؤلفون اثني عشر سبطاً مستقلاً كل منها عن الأخرى ، وكان نظام الحكم لا يقوم على أساس الدولة بل على أساس الحكم الأبوي في الأسرة فكان شيوخ العشائر يجتمعون في مجلس من الكبراء هو الحَكَم الفصل في شؤون القبيلة فإن فشل المجلس لجأوا إلى القاضي الذي كان يمثل الرئيس في الجماعات اليهودية ، وقد استمر عهد القضاة حوالي أربعة قرون بناء على حساب سفر القضاة (المترجم) .

(٥٩) بعد عهد القضاة كان هناك عهد الملوك الذي بدأ بشاؤل ثم داود الذي كان عهده غارقاً في الدمار حيث جمع كل الشعب وذهب إلى ربّة (عاصمة عمون وهي عمان اليوم) ، وحاربها وأخذها ، وهكذا صنع بجميع مدن عمون ، ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم (أنظر سفر صموئيل الثاني الاصحاح الثاني عشر ٢٩ - ٣١) (المترجم) .

(٦٠) انقسمت مملكة سليمان بن داود بعد وفاته إلى مملكتين جنوبية وعاصمتها أورشليم واسمها مملكة يهوذا ، وشمالية وعاصمتها شكيم (نابلس الآن) واسمها اسرائيل (المترجم) .

(٦١) اللاويون أو الأحبار - أحد الأسباط الاثني عشر - وهم سلالة لاوي أوليفي أحد أبناء يعقوب ، وكان منهم الكهنة ورجال الدين (ومنهم موسى وهارون أيضاً) ومن هنا كان سفر اللاويين يعرض الطقوس والتشريعات والأحكام والأمور الدينية . . الخ (المترجم) .

تقسيم المملكة وذلك لأنه لا يمكن للإله الواحـد أن يُعبَد في معـابد مختلفـة ، ولا يمكن أن تكون هناك مملكتان تنتميان إلى دين واحـد[٦٢] ، وبالغـاً ما بلغ تصور الإله روحياً من الناحية الموضوعية فإن الجانب الـذاتي لعبادة هـذا الإله يظل مقيداً ، وغـير روحي في طابعـه . ولقد اشتبكت المملكتـان ، على حـد سواء ، في حروب وصراعات داخليـة وخارجيـة غير مـوفقة ، ثم خضعتـا في النهاية لسيطرة الآشوريين والبابليـين ، ولقد حصـل الاسرائيليـون ، في عصر الملك قـورش ، عـلى تصـريـح بـالعـودة إلى وطنهم والعيش طبقـاً لقـوانينهم الخاصة[٦٣] .

« مصر »

لم تكن الامبـراطوريـة الفارسيـة سـوى إحـدى الامبـراطـوريـات التي انقضت وزالت ولم تترك لنا سوى مخلّفات حزينة كئيبة من مجدها الغابر . فقد إمُحت من عـلى ظهر الأرض أجمـل وأغنى مدنها مثـل بابـل Babylon..[٦٤] .

---

(٦٢) يُقال أن داود جاء واتخذ« أورشليم »عاصمة ثم جاء سليمان وبني الهيكل بهـا ، وكان الهدف أن تتركز عقيدة بني اسرائيل حول الهيكل ، ولهذا قيل إن الهـدف كان الـوحدة السياسية والمحافظة على الدولة (المترجم) .

(٦٣) في عام ٧٢١ ق.م. دخل الآشوريون مملكة اسرائيل (المملكة الشمالية) ومحوها من الوجود ، وزال شعبها من التاريخ زوالاً تاماً ، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى أسقطها البـابليون عـام ٥٨٦ ق. م. وخلت فلسطين تقـريبـاً من اليهـود إثـر سقـوط مملكتي إسـرائيـل ويهوذا ، وفي عام ٥٣٨ احتل قورش ملك الفرس بلاد بابل ، ومن ثمّ أصبح له السلطان على أرض يهوذا وقد سمح قورش لليهود بالعُودة إلى فلسطين بعد الأسر البـابلي ، واستئنـاف الحياة فيها بحرية في ظله ، كما سمح لهم بإعادة بناء الهيكل (المترجم) .

(٦٤) مدينة قديمة بأرض الرافـدين كانت قـاعدة امبـراطوريـة بابـل وتقع عـلى الفرات إلى الشمال من المدن التي ازدهـرت في جنوب أرض الـرافدين منـذ الألف الثالثـة ق.م. (المترجم) .

وسـوسة ..Susa(٦٥) وبـرسبوليس ..Persepolis(٦٦) ، ولم يبق منهـا إلاّ بعض الآثار القليلة التي تدلنـا على مكـانها القديم بـل حتى في المدن الكبيـرة الأكثر حداثة في فارس مثل : اصفهان وشيراز ـ نجد أن نصفها قد أصبح أطلالاً ، إذْ لم تتطور فيها حياة جديـدة . كما هي الحـال في روما القـديمة . بـل فقدت مكانتها تقريباً تماماً في ذاكـرة الأمم المحيطة بهـا . وإلى جانب البـلاد الأخرى التي ذكرناها بالفعـل بوصفهـا منتمية إلى الامبـراطوريـة الفارسيـة فإن مصـر تسترعي الانتباه بصفة خاصة فهي أرض الآثار بصفة عامة ، بل هي الأرض التي كان يُنظَر إليها بإعجاب منذ أقدم العصور كما أنها جذبت أعظم الاهتمام في العصور الحديثة أيضاً ، فأطلالها تمثل النتيجة النهائية لعمل عظيم يفوق في ضخامته وجبروته كل ما خلّفه لنا القدماء .

العنـاصر التي كـانت موجـودة فُرادى في المملكـة الفارسيـة نجدهـا قد توحّدت في مصر . لقد وجدنا بين الفرس عبادة النور بوصفه مـاهية الـطبيعة الكليـة وهـذا المبـدأ إذنْ يـطور نفسـه في أطـوار تتخـذ مـوقف الحيـاد (أو الـلامبالاة) بعضهـا نحو بعض فـأحدهـا مغموس في الحسي بـين البـابليـين والسـوريين والآخـر هو الـوجه الـروحي الذي هـو مـزدوج أولاً كـوعي أولي للروح العيني في عبـادة أدونيس ..Adonis ثم بعد ذلـك كفكر خـالص ومجرد بين اليهود ، فالأول تنقصه وحـدة العيني ، أمّا الثـاني فينقصه العيني نفسـه . ومن هنا كانت المهمة التالية هي توحيد هذه العناصر المتناقضة . وتظهر هـذه المهمة في مصر . أمّا عن التمثلات التي تعرضها علينا الآثار المصـرية القـديمة

---

(٦٥) سوسة مدينة قديمة عاصمة عيـلام تقع مكـان جنوب غـرب ديزفـول بإيـران « مدينـة السوسن » تُعرَف في التوراة باسم الشوشن دمّرها آشور بـانيبال في القـرن السـابـع قبل الميلاد . (المترجم) .

(٦٦) برسبوليس (باليونانية : مدينة الفرس) إحدى مدن فارس القديمة كـانت تقع شمـال شرق مدينة شيراز الحالية غدت مدينـة هامـة في عهد دارا وخلفـائه . كشفت الحفـائر التي أُجـريت في موقعهـا أن المنطقـة كانت مـأهـولـة منـذ الألف الـرابـع قبـل الميلاد (المترجم) .

فهناك تمثال أو صورة ينبغي الانتباه إليها بصفة خاصة وهي صورة أبي الهول . فهو في ذاته لغز ، صورة غامضة : نصفه حيوان ونصفه إنسان . ويمكن أن يُنظَر إلى أبي الهول على أنه رمز للروح المصري : فالرأس البشري الذي يبرز من خلال جسم الحيوان يعرض الروح على نحو ما تبدأ في الانبثاق من جانب الطبيعة ـ منتزعة نفسها من هذا الجانب ومتأملة ما هو لها في حرية دون أن تحرر نفسها تماماً مع ذلك من القيود التي فرضتها عليها الطبيعة . والصروح التي لا نهاية لها والتي خلّفها المصريون نصفها تحت الأرض ونصفها فوق الأرض في الهواء والأرض كلها مقسمة إلى مملكة الحياة ومملكة الموت . والتمثالان الهائلان لممنون ..Memnon يمجدان لأول وهلة شمس الصباح الباكر(٦٧) . ولكن هذا لم يكن بعد هو النور الحر للروح الذي يدوّي فيهما . ولا تزال اللغة المكتوبة هيروغليفية وأساسها هو الصورة الحسية وحدها وليس الحرف نفسه .

وهكذا فإن النصب التذكارية لمصر تعطينا هي نفسها العديد من الصور والأشكال التي تعبر عن طابعها ، فنحن نتعرّف فيها على الروح التي تشعر بنفسها مكبوتة وتعبر عن نفسها ولكن في إطار حسي فقط .

لقد كانت مصر دائماً أرض العجائب وظلت كذلك حتى العصر الحاضر ولقد حصلنا من اليونان بصفة خاصة على معلومات عنها لا سيما من هيرودت فلقد زار هذا المؤرخ الذكي نفسه هذا البلد الذي يصفه ، وفي المدن الرئيسية تعرّف على الكهنة المصريين وقدّم لنا تسجيلاً دقيقاً عن كل ما

---

(٦٧) هما تمثالان كبيران يمثلان الملك أمنحوتب الثالث (أمينوفيس) ومن بقايا معبده الجنائزي بين جبانة طيبة والنيل ، ويسميها الرّحالة اليونان خطأ ، « تمثالي ممنون » ، ويبلغ ارتفاع الواحد منها بسبعين قدماً ويزن سبعمائه طن وهو منحوت من كتلة حجرية واحدة والتمثالان من عجائب الفن ، زعموا أنها يرسلان أصواتاً شجية عند طلعة الشمس كل يوم وقالوا أنها تحية ممنون إلى أمه الشكلى (الذي زعم اليونان أنه شارك في حرب طروادة وصرعه أخيل) . (المترجم) .

رأى وما سمع لكنه خشي الحديث عمّا هو أعمق مما يتعلق بأهمية الآلهة ، واعتبرها أمراً مقدساً ومحترماً بحيث لا يستطيع أن يتحدث عنه كما يتحدث عن أشياء خارجية . وإلى جانب هيرودت كان هناك « ديودور الصقلي » وهو على جانب كبير من الأهمية ثم هناك يوسيفوس من بين المؤرخين اليهود(٦٨) .

ولقد عبّر المصريون عن أفكارهم وتصوراتهم في فنونهم المعمارية وكتاباتهم الهيروغليفية ، وقد كانت اللغة يعوزها عمل فني أدبي على مستوى قومي وليس ذلك ما نفتقده نحن فحسب ، وإنما كان المصريون أنفسهم يفتقدونه أيضاً . ولم يكن لديهم شيء من ذلك بسبب أنهم لم يتقدموا للمرحلة التي يفهمون فيها أنفسهم . ولم يكن هناك أي تاريخ مصري إلى أن جاء أخيراً بطليموس فيلادلفوس ..Ptolemy Philadelphus(٦٩) ، الذي أمر بترجمة كتب اليهود المقدسة من اللغة العبرية إلى اللغة اليونانية . ودعا مانتو ..Manetho الكاهن الأكبر لكتابة تاريخ مصر . . وليس لدينا من هذا التاريخ سوى ملخصات وقوائم بالملوك . ولكن هذا الذي ورد إلينا قد أدّى إلى أعظم قدر من الارتباك وأفضى إلى آراء متضاربة . ولكي نتعرّف على مصر علينا أن نرجع بصفة عامة إلى ملاحظات القدماء وإلى قدر هائل من الآثار التي بقيت لنا . ونجد عدداً كبيراً من الجدران الجرانيتية نُقشت عليها كتابات هيروغليفية وقد قدّم لنا القدماء تفسيرات لبعضها لكنها تفسيرات غير كافية تماماً . ولقد وجه الانتباه إليها في العصور الحديثة بصفة خاصة ،

---

(٦٨) يوسف ، فلافيوس (٣٧ - ٩٥) كاهن ومؤرخ يهودي عيّنه اليهود عام ٦٦ حاكماً للجليل كتب « حرب اليهود » و « تاريخ اليهود القديم » أشاد باليهود ودافع عنهم لكنه لم يعن بانصاف الحقيقة (المترجم) .

(٦٩) هو بطليموس الثاني ٣٠٨ - ٢٤٦ ق.م. (فيلادلفوس = أي المحب لأخته) تابع سياسة أبيه في المحافظة على مصر واستقلالها السياسي والاقتصادي . في عهده اتسع نطاق البطالمة البحرية . ترك زوجته الأولى ليتزوج أخته وبعد وفاتها أنشأ لها عبادة باسم « الإلهة فيلادلفوس » وخلع عليه اللقب في القرن الثاني قبل الميلاد « المترجم) .

وكشف النقاب أخيراً عن بعض الكتابات الهيروغليفية بعد جهود كبيرة ، فلقد اقترح الانجليزي « توماس يونج » ..Thomas Young[٧٠] في البداية منهجاً للكشف ولفت الأنظار إلى حقيقة هي أن هناك مساحات صغيرة منفصلة عن الكتابات الهيروغليفية الأخرى ، يرى المرء عليها الترجمة اليونانية . ولقد ميّز « يونج » عن طريق المقارنة بين ثلاثة أسماء هي : برينس ..Berenice وكليوبطرة ، وبطليموس . وكانت هذه هي الخطوة الأولى على طريق حل رموزها ثم اكتشف في تواريخ متأخرة أن قدراً كبيراً من الكتابات الهيروغليفية صوتية أعني أنها تعبر عن أصوات . وهكذا فإن شكل العين يدل أولاً على العين نفسها ، لكنه يدل ثانياً على أول حرف من الكلمة المصرية التي تعني « عين » (مثل الشكل في اللغة العبرية للمنزل يدل على الحرف « ب » الذي تبدأ به الكلمة التي تعني منزلاً) ولقد كان شامبليون ..Champollion (الأصغر) أول مَنْ لفت الأنظار إلى واقعة أن الهيروغليفية الصوتية متشابكة مع الهيروغليفية التي تدل على الأفكار . ثم صنّف الأنواع المختلفة من الهيروغليفية ، ووضع مبادىء محددة ليكشف عن معناها الغامض .

تاريخ مصر على نحو ما هو موجود بين أيدينا مليء بأعظم قدر من المتناقضات ، فلقد اختلط الجانب الميثولوجي بالجانب التاريخي واختلفت البيانات أو المعلومات وتنوّعت بقدر ما يستطيع المرء أن يتخيل . ولقد درس العلماء الأوروبيون بشغف القوائم التي وصفها مانتو ..Manetho واعتمدوا عليها . وأكدت المكتشفات الحديثة أيضاً عدداً من أسماء الملوك . ويقول هيرودت أنه طبقاً لروايات الكهنة ، فإن الآلهة كانوا فيما سبق يحكمون مصر ، وأنه قد انقضى منذ أول ملك بشري حتى عصر الملك سيتو ..Setho ٣٤١ جيلاً ، أو ١١,٣٤٠ سنة . وكان أول حاكم بشري هو الملك مينا

---

(٧٠) توماس يونج ..Thomas Young (١٧٧٣ - ١٨٢٩) عالم طبيعي انجليزي ساعد في حل بعض رموز حجر رشيد (المترجم) .

..Menes (التشابه بين هذا الاسم وبين الاسم اليوناني مينوس ..Minos أو الاسم الهندي مانو ..Manu مثير للعجب) . ولقد قيل إن مصر تشكل بحيرة ، باستثناء طيبة ..Thebaid أبعد أجزائها في الجنوب ـ وتقدم « الدلتا » دليلاً بارزاً على أنها نتجت من طمي النيل . وكما أن الهولنديين قد ظفروا بأرضهم من البحر وعرفوا السبيل لتدعيم وجودهم فيها ، كذلك اكتسب المصريون أرضهم أول الأمر ودعموا خصوبتها بالقنوات والبحيرات . وهناك سمة هامة في تاريخ مصر هي انسيابه من مصر العليا إلى مصر السفلى ، من الجنوب إلى الشمال . ويرتبط بذلك ملاحظة هامة هي أنه يُحتمل أن تكون مصر تلقت ثقافتها من أثيوبيا وبصفة خاصة من جزيرة ميرو ..Meroe التي كان يسكنها شعب من الكهنة طبقاً للافتراضات الحديثة . ولقد كانت طيبة في مصر العليا أقدم مقر للملوك المصريين لكنها كانت في عصر هيرودت في حالة متهدمة . وتمثل أطلال هذه المدينة أعظم ما نعرفه من فن العمارة المصري ولقد بقيت محفوظة على طول الزمان في حالة ممتازة ، مما يرجع في جانب منه إلى السماء الصافية على الدوام في هذه البلاد . ثم انتقل مركز المملكة بعد ذلك إلى « ممفيس »[٧١] وهي لا تبعد كثيراً عن القاهرة الحالية . ثم أخيراً إلى ساس ..Sais[٧٢] في الدلتا نفسها . أمّا المباني التي عُثِرَ عليها في منطقة هذه المدينة فهي من تاريخ حديث ولم يبق منها إلاّ الشيء القليل . ويخبرنا هيرودت أن الملك مينا هو الذي بنى ممفيس . ومن بين الملوك المتأخرين لا بدّ أن نذكر بصفة خاصة « سيزوستريس » وهو حسب رواية شمبليون ، رمسيس العظيم ، ويُعزَى إليه على وجه الخصوص عدد كبير من التماثيل والرسوم التي يصور فيها انتصاراته والأسرى الذين وقعوا في قبضته من أمم مختلفة أثناء المعارك . ويتحدث هيرودت عن غزواته لسوريا التي

(٧١) منفيس أو منف أقدم العواصم المصرية وهي تقع على بعد ثلاثين ميلاً جنوب القاهرة . (المترجم) .

(٧٢) ساو أو ساس أو صا الحجر على بعد ثلاثين ميلاً شرق مدينة الاسكندرية . (المترجم) .

امتدت حتى القلش ..Colchis . ويوضّح حديثه بالتشابه الكبير بين عادات القلشيين وعادات المصريين ، فهاتان الأمتان ، ومعهما الأثيوبيون هم الأمم الوحيدة التي كانت باستمرار تمارس الختان منذ القدم . ويقول هيرودت فضلاً عن ذلك أن سيزوستريس حفر قنوات واسعة في جميع أرض مصر ، كانت تنقل ماء النيل إلى كل جزء من أجزاء البلاد ، ويمكن أن نلاحظ بصفة عامة أنه كلما كانت الحكومة في مصر حكيمة وبعيدة النظر أولت عناية كبيرة للمحافظة على القنوات في حين أنه في عصور الحكومات المهملة كانت الصحراء هي التي لها اليد الطولى . فقد انشغلت مصر في صراع دائم مع قسوة الحرارة ، ومع ماء النيل ، ويبدو مما يقول هيرودت أنه قد أصبح من المستحيل على الفرسان اجتياز البلاد نتيجة لانتشار القنوات ، في حين أننا نرى من ناحية أخرى ، من أسفار موسى ، شهرة مصر في السابق في هذا المضمار إذْ يقول موسى إنه إذا رغب اليهود في أن يكون لهم ملك فإنه ينبغي عليه ألّا يتزوج من عدد كبير من النساء ، وألّا يرسل في طلب الخيول من مصر .

ومن الملوك الذين يستحقون الذكر بصفة خاصة ، ممَّنْ خلفوا سيزوستريس ، الملك خوفو ..Cheops ، والملك خفرع ..Chephren ، ولقد بنى هذان الملكان أهرامات هائلة وأغلقا معابد الكهنة ، ويُقال إن منقرع ، ابن خفرع ، هو الذي أعاد فتحها ، وبعده غزا الأثيوبيون البلاد ونصّب ملكهم ساباكو Sabaco نفسه حاكماً على مصر . لكن أنيزيس ..Anysis خليفة منقرع فرّ إلى المستنقعات حيث مصب النهر ، ولم يعاود الظهور من جديد إلّا بعد رحيل الأثيوبيين ، وخلفه سيتو ..Setho الذي كان كاهناً « لبتاح » ..Phtha (الذي يقال إنه هو نفسه هيفايستوس ..Hephaestus(٧٣)

(٧٣) هيفايستوس ..Hephaestus هو إله النار والحدادة في الميثولوجيا اليونانية ، كان يُمثّل برجل قوي إحدى رجليه أقصر من الأخرى ، ويحمل بيديه بعض أدوات الحدادة . تزوج أفروديت لكنها تركته فتزوج إحدى ربات الرشاقة قام بشجّ رأس زيوس عندما خرجت منها أثينا وتقوم عبادته في الأماكن الصناعية . (المترجم) .

وتحت حكمه غزا البلاد الملك سينحريب ..Sennocherib ملك الآشـوريين . ولقد كان سيتو ..Setho يعامل طبقة المحاربين باستمرار بكثير من الاحتقار ، وكثيراً ما سلب أرضهم ، ولهذا فقد رفضـوا أن يمدّوا لـه يد المساعدة عندما طلبها منهم ، فاضطر إلى إصدار نداءات عامة يستدعي بها المصريـين فجمع جيشاً مكوّناً من صغار التجار ، والحرفيين وغيرهم من النـاس من الأسواق . ولقـد جاء في الكتـاب المقـدس أن الأعـداء فـروا ، وأن الملائكـة هي التي هزمتهم هزيمة منكرة . غير أن هيرودت يروي أن فيران الحقول هي التي أتت ليـلاً وراحت تقرض أسهم وأقـواس الأعداء ، وهكـذا وجـد هؤلاء أنفسهم وقـد جُـرِّدوا من أسلحتهم فـلاذوا بـالفـرار . ويخبرنـا هيرودت أيضـاً أن المصـريين ، بعـد موت سيتـو ..Setho اعتبـروا أنفسهم أحـراراً ، واختـاروا لأنفسهم اثني عشر ملكاً شكّلوا اتحاداً فيما بينهم وأقاموا اللبرنت ..Labyrinth أو المتاهة رمزاً له ، وهي تتألف من عدد هائل من الحجرات والصالات فـوق الأرض وتحتها .

واستـطاع أحد هؤلاء الملوك هـو إبسماتيـك ..Psammitichus في عـام ٦٥٠ ق . م . أن يـطرد الأحد عشـر ملكاً الآخـرين ، بمسـاعـدة الأيـونيـين ..Ionians والكـاريين ..Carians الـذين وعدهم بـاعـطائهم أرضـاً في مصـر السفلى . وكانت مصر حتى ذلك التاريخ لا تزال منعزلة عن بقية العالم . فلم تكن لهـا أيضاً صـلات عن طريق البحـر بـأيـة أمّـة أخـرى . وبـدأت هـذه الصلات في عهد « إبسماتيك » . وبذلك فتـح الطريق أمـام تخريب مصـر ، ومن الآن فصـاعداً يُصبـح التاريـخ أكـثر تحـديـداً لأنـه يقـوم عـلى روايـات اليونان . وخلف إبسماتيك (ابنه) نخاو ..Necho الذي بدأ عهده بحفر قناة تربط بين النيل والبحر الأحمـر ، وإنْ كانت هـذه القناة لم تكتمـل إلاّ في عهد « داريوس نوتـوس » ..Darius Nothus . ولم تكن لخطة ربط البحـر الأبيض المتوسط بالخليج العربي والمحيط الكبير (الهندي) تلك الميزات المزعومة ـ كـما كان يعتقد ـ ما دامت الروايات التي انتشرت كانت تقول إنـه تصعب الملاحـة للغاية في البحر الأحمر حيث تهب رياح شمالية مستمرة حوالي تسعة أشهـر في

السنة حتى أن الملاحة والعبور من الجنوب إلى الشمال لا تكون ممكنة إلاّ في ثلاثة أشهر فحسب . وخلف نخاو بساميز ..Psamis ، وخلف هذا الأخير أبريز ..Apries الذي قاد جيشاً ضد سيدون ..Sidon واشتبك في معركة بحرية مع الطورانيين ..Tyrians كما أرسل جيشاً ليحارب سيرنيه ..Cyrene لكن السيرانيين قضوا عليه تقريباً ، فثار المصريون ضده واتهموه بأنه يريد أن يقودهم إلى الدمار والخراب ، لكن ربما كانت هذه الثورة بسبب ما أبداه من ودٍ نحو الكاريين ..Carians والايونيين أكثر منها بسبب الحرب الأخيرة . ولقد قاد آمازيز ..Amasis المتمردين وهزم الملك ونصّب نفسه ملكاً . ولقد وصفه هيرودت بأنه ملك خفيف الظل ، وإنْ كان لم يثبت باستمرار جدارته باعتلاء العرش ، فقد استطاع أن يرتفع من مركز متواضع جداً إلى التربع على العرش بقدرته وذكائه ودهائه ، وأظهر في جميع المناسبات الأخرى نفس هذا الذكاء النافذ : فهو في الصباح يعقد مجلس القضاء ، ويستمع إلى شكاوى الناس ، لكنه بعد الظهر يقيم الولائم ويحيط نفسه بمباهج الحياة ، ولقد ردّ على أصدقائه الذين لاموه بهذا الصدد وأخبروه أنه يجب عليه أن يكرِّس يومه بكامله للعمل ، بقوله : « إذا ظل القوس مشدوداً باستمرار ، فإنه يصبح بغير نفع وينكسر » . . ولّما كان المصريون ينظرون إليه نظرة دنيا بسبب أصله الوضيع ، فقد اتخذ لنفسه حوضاً من الذهب لغسل قدميه ، وقد صنعه على صورة إله كان المصريون يقدسونه تقديساً شديداً وكان يرمز بذلك إلى سموه الشخصي . وفضلاً عن ذلك فإن هيرودت يروي أنه ـ في حياته الخاصة ـ انغمس في اللذات ، وبدد ثروته كلها ثم شرع بعد ذلك في السرقة . ولقد كان هذا التضارب بين حس سوقي وعقل راجح هو الذي يتميز به الملك المصري .

ولقد جرَّ أمازيز ..Amasis على نفسه غضب الملك قمبيز . فقد طلب الملك قورش ..Cyrus أحد أطباء العيون المصريين ، لأنه حتى ذلك العصر ، كان أطباء العيون المصريون على جانب عظيم من الشهرة إذْ كانت أمراض العيون الكثيرة المنتشرة في مصر تستلزم مهارة فائقة ، ولقد حاول طبيب

العيون الذي أرسل إلى فارس أن ينتقم لنفسه من إرساله خارج بلاده ، فنصح الملك قمبيز أن يتزوج ابنة أمازيز وهو يعلم تمام العلم أن أمازيز سوف يشعر بضيق شديد إنْ هو زوجه ابنته ، كما أنه إنْ رفض سوف يثير غضب قمبيز بهذا الرفض . ولم يقبل أمازيز أن يزوِّج قمبيز ابنته لأن الأخير كان يرغب فيها كزوجة من الدرجة الثانية (لأن زوجته الشرعية لا بدّ أنْ تكون فارسية) وإنما أرسل له ابنة ابريز ..Apries باسم ابنته ، لكن الفتاة كشفت لقمبيز عن اسمها الحقيقي ، ولقد أثارت هذه الخدعة سخط قمبيز الشديد ، فأعدَّ حملة لغزو مصر بعد موت أمازيز وتولّي بزامنتوس ..Psammentos الحكم وهزمها بالفعل وضمها إلى الامبراطورية الفارسية .

أمّا بالنسبة للروح المصرية فجدير بالذكر هنا أن نقول إن الايليين ..Elians أطلقوا على المصريين ، طبقاً لرواية هيرودت ، لقب أحكم حكماء البشر . وإنه ليدهشنا حقاً أن نجد بينهم ، وعلى مقربة من الغباء الأفريقي ، ذلك الذكاء النظري وذلك التنظيم العقلي الكامل الذي تتسم به جميع المنظمات والمؤسسات ، والأعمال الفنية التي تثير إعجاباً لا حد له . ولقد كان عند المصريين ، كما كان عند الهنود ، طبقات مغلقة ، فالأطفال ، في العادة ، يواصلون نفس الحرف والمهن التي كان يعمل فيها آباؤهم .

ومن أجل ذلك تطورت الصناعات والنواحي الآلية في الفنون تطوراً كبيراً . ولم يؤدِّ الانتقال الوراثي للمهن لدى المصريين إلى نفس النتائج السيئة كما كان ذلك هو الحال في الهند . ويذكر هيرودت الطبقات السبع التالية : **الكهنة** ، **المحاربون** ، **رعاة البقر** ، **ومربو الخنازير** ، **والتجار** ، أو أرباب المهن بصفة عامة ، **والمترجمون** ، الذين لم يشكلوا ، فيما يبدو ، طبقة منفصلة إلّا في عهد متأخر ، وأخيراً طبقة البحارة أو الملاحين ، وربما لم يُذكر الفلاحون هنا لأن الزراعة كانت مهنة العديد من الطبقات كالمحاربين مثلاً الذين مُنحوا جزءاً من الأرض . ويعطينا «ديودور» ، و« سترابو » ..Strabo وصفاً مختلفاً لتقسيم الطبقات وفي هذا الوصف لا نجد ذكراً إلّا للكهنة والمحاربين ، والرعاة ، والفلاحين ، وأصحاب الفنون الذين ينتمي إليهم

أرباب المهن أيضاً . ويقول هيرودت عن الكهنة أنهم تسلّموا بصفة خاصة أرضاً صالحة للزراعة وقاموا بتأجيرها للفلاحين ، لأن الأرض ، بصفة عامة ، كانت في حوزة الكهنة والمحاربين ، والملوك . ولقد كان « يوسف » وزيراً للملك طبقاً لرواية الكتاب المقدس وقد قام بتدبير الأمور بطريقة جعلت من الملك سيداً على كل الأرض في البلاد . لكن الوظائف المتعددة لم تبق هكذا أنماطاً جامدة ، كما هي الحال عند الهنود ، لأننا نجد أن الاسرائيليين الذين كانوا في الأصل رعاة استخدموا أيضاً بوصفهم عمالاً يدويين . ولقد شهد التاريخ ملكاً ، كما سبق أن ذكرنا ، كوّن جيشاً من العمال اليدويين وحدهم - ولم تكن الطبقات في حالة جمود وإنما كان بينها صراع واتصال : وكثيراً ما نجد فترات تتحطم فيها هذه الطبقات أو نجد تمرداً ضد نظام هذه الطبقات . فقد حدث أن ثارت طبقة المحاربين لأنها لم تنقل من محل إقامتها بالقرب من بلاد النوبة ، وعندما يئست من قدرتها على استغلال أراضيها هربت إلى ميرو ..Meroe . وقد استجلبت الحكومة إلى البلاد فرقاً من الجنود المرتزقة .

أمّا عن طريقة الحياة لدى المصريين فإن هيرودت يزوّدنا برواية مفصّلة عنها يبرز فيها بصفة أساسية ما يبدو له مخالفاً لعادات اليونان ، وهكذا كان لدى المصريين على سبيل المثال أطباء متخصصون في أمراض خاصة كما كانت النساء تشغل وظائف خارج المنزل ، في حين يبقى الرجال بالبيت لصناعة النسيج . كما نجد أن تعدد الزوجات كان منتشراً في إحدى مناطق مصر ، في حين ينتشر الزواج بواحدة في مناطق أخرى . ولم تكن النساء ترتدي سوى ثوب واحد ، أمّا الرجال فكان لهم ثوبان ، وهم يغتسلون ويستحمون كثيراً ، ويقومون بتناول شراب مُطهِّر للبطن مرة كل شهر . ويشير ذلك كله إلى الاستغراق في حالة من السلم المستقر . أمّا عن نظام الشرطة فقد كان القانون يوجب على كل مصري أن يُقدّم نفسه ، في وقت معلوم ، إلى مدير المنطقة التي يعيش فيها ليُبيِّن له المصادر التي يحصل منها على رزقه . فإذا لم يكن في استطاعته أن يشير إلى وسيلة يتعيش منها حُكِمَ عليه بالاعدام ، غير

أن هذا القانون لم يكن قائماً قبل حكم أمازيز ..Amasis وفضلاً عن ذلك فإن المصريين يوجهون عناية فائقة لتقسيم الأرض الصالحة للزراعة ، كذلك يهتمون اهتماماً كبيراً بشق القنوات وإقامة السدود . ويقول هيرودت إنه في حكم ساباكو ..Sabaco ، الملك الأثيوبي ، ارتفعت مدن كثيرة بواسطة السدود .

أمّا نظام القضاء فيدار بعناية بالغة إذْ تتألف المحكمة من ثلاثين قاضياً يُعينهم الاقليم ويختارون رئيساً لهم ، وتتم إقامة الدعاوى كتابةً ووصلت إلى الحد الذي كان في استطاعة المدعى عليه أن يردّ على المدعي . ويعتقد « ديودور » ..Diodorus أن هذه الطريقة فعّالة ومؤثرة في تحاشي التأثير المضلل للخطب البلاغية ، وتجنب تعاطف القضاة . ثم يعلن القضاة الحكم في سكون ، وبطريقة هيروغليفية . ويقول هيرودت أنهم كانوا يحملون رمزاً للحقيقة على صدورهم ويديرونه نحو ذلك الجانب الذي تكون القضية في صالحه أو يزينون به الجانب المنتصر . ويشارك الملك نفسه في شؤون القضاء كل يوم . ويُقال لنا إنه رغم أن السرقة كانت محرَّمة ، إلاّ أن القانون كان يأمر اللصوص بأن يبلغوا عن أنفسهم فإنْ فعلوا رُفع عنهم العقاب ، بل ويُسمح لهم بالاحتفاظ بربع ما سرقوا . وربما كان الهدف من ذلك استثارة ذلك الدهاء وصقله الذي اشتهر به المصريون .

وتظهر الحكمة والتعقل بصفة غالبة في التنظيمات التشريعية لدى المصريين . وهذا التعقل الذي يتجلّى في الجانب العملي ، نجده كذلك في منتجات الفن والعلم . ولقد قَسّم المصريون السنة إلى اثني عشر شهراً ، وقسموا الشهر ثلاثين يوماً . ثم يزيدون في نهاية السنة خمسة أيام إضافية ، ويقول هيرودت أن تنظيمهم كان أفضل من تنظيم اليونان . ويدهشنا ذكاء المصريين بصفة خاصة في جانب التقنية فصروحهم الهائلة ـ وهي صروح لا نجد لها مثيلاً عند غيرهم من الأمم إذْ تسمو على غيرها جميعاً من حيث الحجم والصلابة ـ تبرهن بما فيه الكفاية على براعتهم الفنية التي كرّسوا لها معظم جهدهم ، إذْ لم تكن الطبقات الدنيا تشغل نفسها بالمسائل السياسية . ويقول

ديودور الصقلي أن مصر كانت البلد الوحيد الذي لم يشغل فيه المواطنون أنفسهم بالدولة ، وإنما وجهوا كل عنايتهم لأعمالهم ولقد كان لا بدّ أن يندهش اليونان والرومان بصفة خاصة من مثل هذه الأمور .

ولقد كان القدماء ينظرون إلى مصر ، بسبب تنظيماتها الحكيمة على أنها نموذج لوضع أخلاقي حقيقي ـ فهي مثل أعلى على غرار المثل الأعلى الذي حققه فيثاغورس في جماعته الصغيرة المنتقاة ، والذي تخيله أفلاطون بطريقة أكبر وعلى نطاق أوسع . ولكن في مثل هذه المُثل العليا لا يوضع اعتبار للعاطفة ، فالتخطيط للمجتمع الذي يؤخذ به ، وينفّذ على أنه تخطيط كامل بطريقة مطلقة والذي يُراعى فيه كل شيء ، لا سيما التربية والتعدد عليها حتى تصبح طبيعة ثانية ـ هذا الوضع مضاد تماماً لطبيعة الروح ، تلك الروح التي جعلت الحياة القائمة موضوعاً لها . وتصبح الروح هي نفسها الدافع اللامتناهي للنشاط الذي يستهدف تغيير هذه الحياة القائمة . وقد يُعبّر هذا الدافع عن نفسه بطريقة خاصة في مصر ، فلا بدّ أن يبدو في البداية كما لو كان مثل هذا الوضع المنظم للأشياء المحدد في كل تفصيلاته الجزئية ، لا يحتوي على شيء خاص في ذاته على الاطلاق . ويبدو أن الدين قد استطاع أن يصل على هذا النحو أو ذاك إلى أن يشبع أيضاً حاجات الناس العليا . وذلك بطريقة هادئة ومتفقة مع ذلك التنظيم الأخلاقي (الذي ذكرناه الآن تواً) لكن في تأملنا للدين عند المصريين ، فإنه تدهشنا ظواهر من أعجب الظواهر وأغربها ، حيث نلاحظ أن هذا النظام الهادىء ـ الذي تمّ الحفاظ عليه على نحو بوليسي ـ لا يشبه النظام الصيني . إذْ يتعين علينا أن نتعامل هنا مع روح مختلف أتم الإختلاف ، روح مفعمة بالحركة الذاتية والدوافع الملحّة ، فلدينا هنا في وقت واحد العنصر الأفريقي عندما يجتمع بالنقاء الشرقي في البحر الأبيض المتوسط ، تلك الرقعة التي تكشف فيها الشعوب عن نفسها . لكنا نجدها هنا بطريقة لا تمتّ بصلة للتأثيرات الأجنبية . فهذا النمط من الاستثارة كان يبدو نافلة لا لزوم له ، لأننا نجد هنا سعياً ملحاً وهائلاً متجهاً نحو نفسه ، هذا السعي الذي ينتهي به الأمر داخل دائرته إلى

الوصول إلى تحقق موضوعي لذاته في المنتجات الهائلة . إن ما نجده هنا هو المتانة الأفريقية مع الدافع اللانهائي للتحقق الموضوعي في ذاته . لكن الروح لا تزال تحمل على جبهتها عصابة حديدية لدرجة أنها لا تستطيع أن تصل إلى وعي ذاتي حر لماهيتها في الفكر وإنما تنتج ذلك فقط على أنه مشكلة أو عمل واجب ، وعلى أنه لغز وجودها .

يرتكز التصور الأساسي لماهية الوجود عند المصريين على الطابع المحدد للعالم الطبيعي الذي يعيشون فيه ، وبدقة أكثر على دائرة الطبيعة الفزيقية المحددة التي يحددها النيل والشمس إذْ يرتبط هذان العاملان ، وضع النيل ووضع الشمس ، ارتباطاً وثيقاً ، وكان هذان العاملات عند المصري هما الألف والياء : فالنيل هو أساساً ذلك العامل الذي يُعيِّن حدود البلاد فوراء وادي النيل تبدأ الصحراء ، ويحدُّ البحرُ مصر من ناحية الشمال ، وتحدها من الجنوب حرارة ملتهبة . ولقد كتب أول قائد عربي فتح مصر للخليفة عمر يقول : « إن مصر هي أولاً رقعة فسيحة من التراب ثم بحر من الماء العذب ، وأخيراً فهي بحر هائل من الزهور . والسماء لا تمطر أبداً هنا . وقرب نهاية يوليو يسقط الندى ثم يبدأ النيل يفيض على الضفتين ومصر تشبه بحراً من الجزر »(*) . (وهيرودت يقارن مصر في تلك الفترة بالجزر في بحر إيجه) . ويخلّف النيل وراءه عدداً هائلاً من الكائنات الحية : ثم تظهر أعداد

(*) جاء في رسالة عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب ما يلي :
« إن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر ، له أوان يدرّ حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما اصلخم عجاجه وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب وخفاف القوارب . . الخ » . انظر النص الكامل للرسالة في : « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » ـ تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي ـ مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٩ (المراجع) .

لا حصر لها من الكائنات المتحركة والزاحفة ، ثم يبدأ الناس بعد ذلك في إلقاء البذور في تربة الأرض ، ويكون المحصول ، عادة ، وفيراً للغاية . وهكذا لا يعتمد وجود المصري على ضوء الشمس أو كمية المطر . وإنما على العكس لا يوجد بالنسبة له إلّا تلك الظروف البسيطة جداً التي تشكل الأساس في نمط حياته ونشاطها . هناك مسار طبيعي مُعينٌ يأخذه النيل ويرتبط بمسار الشمس ، فهذه تشرق وتصل إلى ذروتها ، ثم تتقهقر وتغيب ، وكذلك يفعل النيل .

هذا الأساس لحياة المصريين يحدد أيضاً المضمون المحدد لديانتهم . لقد ثارت خلافات قديمة في الرأي حول مغزى الدين المصري ومعناه . ولقد فسّره المفكر الرواقي « شارميون » ..Charemon الذي كان في مصر ، في فترة قديمة ترجع إلى عهد (القيصر الروماني) طبريوس ..Tiberius ـ فسره تفسيراً مادياً خالصاً ، في حين أخذت الأفلاطونية المحدثة بوجهة نظر مضادة تماماً واعتبرت كل ما في هذا الدين رمزاً لمعنى روحي ، ومن ثم جعلت من هذا الدين مثالية خالصة . وتعبر كل واحدة من هاتين النظرتين عن نظرة أُحادية الجانب ، إذْ يُنظر إلى القوى الطبيعية والروحية على أنها ، متحدة اتحاداً وثيقاً لكن ليس على النحو الذي يكون فيه المعنى الروحي الحر قد تجلّى بوضوح ، وإنما على النحو الذي ترتبط فيه المتضادات في صورة من صور التناقض البالغ الحدة . لقد تحدثنا عن النيل ، وعن الشمس وعن البيانات التي تعتمد عليهما . وهذه النظرة المحدودة إلى الطبيعة تعطينا المبدأ للدين الذي كان مضمونه في البداية تاريخاً . ويمثل النيل والشمس ألوهية متصورة على نحو بشري ويعد المسار الطبيعي والتاريخ الإلهي شيئاً واحداً . وفي الانقلاب الشمسي في فصل الشتاء تصل قوة الشمس إلى حدها الأدنى ، ولا بدّ أن تولد من جديد .

وعلى هذا النحو أيضاً يولد أوزريس ..Osiris ، لكن طيفون ..Typhon عدوه وشقيقه في نفس الوقت ، هو الذي قتله ، وهو أيضاً يمثل رياح الصحراء المحرقة ، أمّا ايزيس ..Isis ، الأرض ، فقد حُرمت من قوة

الشمس والنيـل ، واشتاقت إلى أوزريس فجمعت عـظامـه المتنـاثـرة وارتفـع صوتها بالرثـاء عليه ، وراحت مصـر كلها تنـوح معها عـلى موت أوزريس في أغنية يسميها هيرودت بالمانيروز ..Maneros ويقول هيرودت : المانيروز كـان هو الابن الوحيد لأول ملك عند المصـريين وقـد مات في سن مبكـرة . وهذه الأغنية هي أيضاً مشابهة تماماً لأغنيـة لينوس ..Linus - song عنـد اليونـان ، وهي الأغنية الوحيدة الموجودة عند المصريين . وهاهنا نجد أن الألم يُنظَر إليـه عـلى أنـه شيء إلهي ، وهـو نفس التبجيـل لـلألم الـذي نجـده أيضـاً عنـد الفينيقيين . وبعد ذلك حنّط هرمز ..Hermes (٧٤) أوزيريس ، أمّا قبره فهـو موجود في أماكن متعددة . وأوزريس الآن يحكم بـين الموتى ، وهـو إله مملكـة العـالم غـير المرئي . تلك هي الأفكـار الأســاسيـة : أوزريس ، الشمس ، النيل ، هذا هو الثالوث الذي يتحد في رابطة واحدة : الشمس هي الرمـز ، الـذي نتعرّف فيـه على أوزريس ، وعـلى تاريـخ ذلك الإلـه ، أمّا النيـل فهو كذلك مثـل هذا الـرمز . وفضـلاً عن ذلك ينسب الخيال المصري العيني إلى أوزريس وايزيس ادخال الـزراعة ، واختـراع المحراث ، والفـأس . . . الخ ذلك لأن أوزريس لا يقدّم فقط ما هو نافع للناس مثل خصوبة الأرض وإنمـا يعطيهم فضلاً عن ذلك وسائـل استغلالهـا . كما أنـه هو الـذي شرّع للنـاس القوانين ، والنظام المدني ، والشعـائر الـدينية ، وهـو بذلـك قد وضـع في يد الناس وسائل العمل وضمان نتاجـه . كما أن أوزريس هـو أيضاً رمـز البذور التي تلقى في الأرض ثم تنبت ، كـذلك صـورة مجرى الحيـاة . وهكذا نجـد هذه الثنائية المتنافرة بين ظـواهر الـطبيعة وظـواهر الـروح قد نُسِجت معـاً في عقدة واحدة .

(٧٤) هرمز في الأصل هو رسول الآلهة في أساطير اليونان وهو ابن الإله زيوس وهو يشـرف على التجارة والطرق واللصوصية والحظ والمسابقات الرياضية ومـرافق الأرواح إلى عالم الموتى . لكنه مع ذلك كان مرحاً طروباً يحب العزف على القيثارة التي اخترعها ، ولهذا كانت تُقام له احتفالات صاخبة . وحديث هيجل هنا عن الإله المصري الذي يقـابل هذا الإله اليوناني ، ولهذا سوف يسميه بعد قليل باسم هرمز المصري (المترجم) .

ينبغي ألاّ يُنظر إلى الجمع بين مجرى الحياة البشرية وبين النيل والشمس وأوزريس على أنه مجرد مجاز فحسب ، كما لو كان مبدأ الميلاد ، وازدياد القوة وبلوغ ذروة النشاط والخصوبة ، والانهيار والضعف تتمثل في هذه الظواهر المختلفة بطريقة متشابهة . وإنما الخيال قد رأى في هذا التنوع ذاتاً واحدة ، وحيوية واحدة ، ومع ذلك فهذه الوحدة مجردة تماماً : ويبرز مبدأ الاختلاف والتنافر في هذه الظواهر المختلفة كشيء يدفع ويضغط في غموض يختلف اختلافاً كبيراً عن الوضوح اليوناني . فأوزريس يمثل النيل والشمس . والشمس والنيل هما من ناحية أخرى رمزان للحياة البشرية ، لكل واحدة منهما مغزى ورمز في وقت واحد . ويتحول الرمز إلى مغزى ، ويتحول هذا الأخير إلى رمز لذلك الرمز الذي يصبح (بدوره) مغزى . وليس هناك تحديد يكون صورة دون أن يكون في نفس الوقت مغزى . فكل واحدة هي الاثنان معاً . وكل منهما تفسره الأخرى . وهكذا ينشأ تصور حافل ترتبط فيه تصورات عديدة يحتفظ كل تصور فيها بفردية العقدة الأساسية (في هذا الترابط) ولا تنحلّ في فكرة عامة ، فالتصور العام أو الفكرة ذاتها التي تشكل رابطة المماثلة ، لا تبرز بوصفها فكرة حرة بالنسبة للوعي ، بل تبقى مضمرة على شكل ارتباط داخلي . ويكون لدينا فردية صلبة متماسكة ترتبط بين جوانب متنوّعة للظاهرة وهي من ناحية ، خيالية ، لأنها تجمع بين مضمون ظاهر التناقض ، ولكنها من ناحية أخرى ، مترابطة من الناحية الداخلية من حيث الجوهر ، لأن هذه المظاهر المنوعة ليس سوى مضمون جزئي واقعي للحقيقة الواقعية .

ونحن نجد ، فضلاً عن هذا التصور الأساسي ، عدة آلهة خاصة يحصي منها هيرودت ثلاث فئات فهو يذكر ضمن الفئة الأولى ثمانية آلهة ، وبين الفئة الثانية اثني عشر ، وبين الفئة الثالثة عدداً لا حصر له من الآلهة تقوم بوظيفة التجليات الخاصة نحو وحدة أوزريس وتبدو النار في الفئة الأولى ، وكذلك استعمالها ، على أنها « بتاح » ..Phtha وأيضاً على أنها « نف » ..Knef الذي يمثل إلى جانب ذلك « الروح الطيب » . غير أنه يُنظر

إلى النيل نفسه على أنه الروح الطيب ، وعلى هذا النحو تتحول التصورات المجردة إلى تصورات عينية . وينظر إلى آمون ..Ammon على أنه الإله العظيم الذي ارتبط اسمه بتحديد تساوي الليل والنهار وهو ، فضلاً عن ذلك ، المعطي للنبؤات ، لكن أوزريس بدوره يُذكر بوصفه مصدراً للنبؤات والوحي ، وكذلك تمثل القوة التناسلية التي نفاها أوزريس على أنها إله خاص . لكن أوزريس نفسه هو هذه القوة التناسلية وتمثل ايزيس الأرض ، أو القمر والقوة القابلة للاخصاب للطبيعة . وهناك عنصر هام في تصور أوزريس لا بدّ من إبرازه وهو أنوبيس ..Anubis (أوْتوت ..Thoth) وهو هرمز المصري . وفي النشاط البشري وفي الاختراع ، وفي النظام التشريعي نجد أن العنصر الروحي بما هو كذلك له وجود ويصبح في هذه الصورة التي هي نفسها متحدة ومتعينة موضوعاً للوعي . وهنا نجد أمامنا العنصر الروحي ليس بوصفه سيادة حرة لا متناهية على الطبيعة ، بل بوصفه موجوداً جزئياً خاصاً يوجد جنباً إلى جنب مع قوى الطبيعة ، وهو كذلك موجود خاص طبقاً لمضمونه . وعلى هذا النحو كان لدى المصريين أيضاً آلهة نوعية خاصة تُتصور على أنها قوى وأنشطة روحية . ولكنها من ناحية محدودة من حيث مضمونها وهي من ناحية أخرى يمكن تأملها وادراجها تحت رموز الطبيعة .

وهرمز المصري شهير بأنه يعرض الجانب الروحي في التأليه عندهم ، فالكهنة المصريون ، تبعاً لما يقوله يامبليقوس ..Jamblichus ، منذ زمن موغل في القدم ، كانوا يصدرون باسم هرمز جميع اختراعاتهم ، ومن هنا فقد أطلق « اراتوستينز ..Eratosthens » على كتابه الذي درس فيه العلم في مصر اسم « هرمز » . أمّا أنوبيس فقد كان يُسمَى صديق أوزريس ورفيقه . ويُنسب إليه اختراع الكتابة ، والعلم بصفة عامة ، علم النحو ، وعلم الفلك ، وعلم قياس المساحات ، والموسيقى ، والطب ، ولقد كان أول مَنْ قسّم اليوم إلى اثنتي عشرة ساعة ، وفضلاً عن ذلك كان أول مُشرِّع للقانون ، وأول مُعلِّم للعادات (الدينية) والمقدسات للرياضة البدنية والعزف الجماعي ، كما أنه هو الذي اكتشف شجرة الزيتون . لكن بصرف النظر عن جميع هذه

الصفات الروحية فقد كان هذا الإله مختلفاً أتمَّ الاختلاف عن إله الفكر ، إذْ لم يكن يتبعه سوى الاختراعات والفنون الانسانية الجزئية فحسب . ولا يقتصر الأمر على ذلك بل نراه مرة أخرى يرتبط ارتباطاً تاماً بالوجود الطبيعي وينحطّ تحت رموز طبيعية : فيمثِّله رأس كلب بوصفه إلهاً ينحدر إلى درجة البهائم ، وفضلاً عن ذلك القناع فإننا نجد كذلك وجوداً طبيعياً يرتبط بتصور هذا الإله ، فهو في الوقت نفسه « نجم الشِّعرى اليمانية » ..Sirius أو « نجم الكلب » ..Dog - Star . وعلى هذا النحو نراه محدداً من حيث مضمونه ، حسياً من حيث وجوده . وبهذه المناسبة يمكن أن نلاحظ أنه لمّا كانت الأفكار والطبيعة هنا لا تتمايز الواحدة منها عن الأخرى كذلك لا تتشكل ولا تتحدد فنون الحياة البشرية ومهاراتها على نحو يشكل منها دائرة عقلية من الغايات والوسائل . وعلى ذلك نجد الطب الذي يستهدف علاج الأمراض الجسمية ، وكذلك بصفة عامة دائرة التشاور واتخاذ القرارات المتعلقة بشؤون الحياة ـ تخضع لأقصى أنواع الخرافة في اعتمادها على النبوءات وفنون السحر كذلك كان علم الفلك ..Astronomy في نفس الوقت هو أساساً علم التنجيم ..Astrology وكان الطب ضرباً من السحر ، بل كان بصفة خاصة ضرباً من التنجيم ..Astrology ويمكن تعقب كل ضروب خرافات التنجيم والخرافات المتجانسة المنظمة وردّها إلى مصر .

لقد كانت العبادة المصرية هي أساساً عبادة الحيوان . ولقد لاحظنا الوحدة التي تمثلت هنا في الارتباط بين ما هو روحي وما هو طبيعي . والجانب الأكثر تطوراً ورقياً في هذا التصور هو أن المصريين في الوقت الذي كان لديهم فيه تصور روحي يتبدّى في النيل ، والشمس ، والبذور ، فإنهم اعتنقوا نفس النظرة بالنسبة للحيوانات . وربما كانت عبادة الحيوان بالنسبة لنا الآن منفّرة ، فنحن قد نروّض أنفسنا على عبادة السماء ، لكن عبادة الحيوانات تظل غريبة علينا ، لأن تجريد العنصر الطبيعي يبدو لنا في هذه الحالة أكثر عمومية ، ومن ثم أكثر جدارة بالتبجيل وبالتوقير . ومع ذلك فمن المؤكد أن الأمم التي عبدت الشمس والنجوم ليست أعلى قدراً من تلك

الأمم التي عبدت الحيوانات بل العكس هو الصحيح . لقد تصور المصريون في عالم الحيوان الشيء الباطني وما هو غير قابل للادراك . ونحن بالمثل عندما نتأمل حياة الحيوان وأفعاله ندهش من سلوكه الغريزي أعني من تكيف سلوكه وملاءمة حركاته للغرض الذي تسعى إليه ـ ومن عدم سكونه وخفة حركته وحيويته ، فالحيوانات تتحرك بسرعة متزايدة وتتمتع بذكاء كبير بالنسبة لأغراض حياتها في الوقت الذي تكون فيه صامتة ومنغلقة على نفسها . وليس في استطاعتنا أن نعرف ماذا تضمر هذه الحيوانات المتوحشة كما أننا لا نستطيع أن نطمئن إليها . فلقد اعتقد الناس أن القط الأسود بعيونه البرّاقة المتوهجة ، الذي ينسلُّ تارة بهدوء ، ويقفز مندفعاً في حركة سريعة تارة أخرى ، يمثل حضوراً لكائن شرير ، ويمثل شبحاً منغلقاً على نفسه وغير مفهوم ، أمّا الكلب ، وعصفور الكناريا فهما ، على العكس ، يظهران بمظهر الصديق الودود . والواقع أن الحيوانات لا يمكن فهمها أو الاحاطة بها ، فليس في استطاعة الانسان بالخيال أو بالتصور أن يدخل في طبيعة الكلب بالغاً ما بلغت درجة التشابه بينهما ، إذْ ستظل (طبيعة الكلب) عنصراً غريباً تماماً عنه فهناك منطقتان نلتقي فيهما بما نقول عنه أنه لا يمكن الاحاطة به :

الأولى منطقة الطبيعة الحية والثانية منطقة الروح . ولكن الحقيقة أنه في مجال الطبيعة فقط يجد الانسان نفسه أمام ما هو غامض وغير قابل للادراك ، ذلك لأن الروح بالذات هي ذلك الذي يتجلّى فالروح تستطيع أن تفهم وأن تدرك الروح ، ومن هنا فإن الوعي الذاتي الكليل عند المصريين الذي لم تنكشف له بعد فكرة الحرية البشرية عَبَدَ النفس الغامضة التي لا تزال منغلقة على نفسها في إطار الحياة البيولوجية ، وتَعَاطَفَ مع حياة الحيوان . ونحن نجد كذلك عبادة بين أمم أخرى للحيوية المحض ، أحياناً صراحة ، كما هي الحال عند الهنود والمغول جميعاً ، وأحياناً مجرد بقايا وآثار كما هي الحال عند اليهود « ينبغي عليك ألّا تأكل دم الحيوان ، لأن في هذا الدم حياة الحيوان » . كما أن اليونان والرومان كذلك نظروا إلى الطيور بصفة خاصة على أنها ذكية ، عارفة ، باعتقادهم بأن ذلك الذي لم يكشف للانسان في الروح ، أي ذلك

العنصر الأعلى الذي لا يمكن الاحاطة به يوجد لدى الطيور . غير أن عبادة الحيوان هذه عند المصريين قد وصلت إلى حد الافراط تحت أشكال خرافية غير انسانية غاية في الغباء . ولقد كانت عبادة الحيوان عندهم فيها شيء من التجزؤ أو الاقليمية فكل اقليم كان له إله حيوان خاص به مثل : القط ، أبو منجل ..Ibis التمساح . . . الخ وقد أقيمت لها منشآت هائلة ، وخصص لكل منها أليف جميل ، وتمَّ تحنيطه بعد الموت مثل الموجودات البشرية . وكان الثور يُدفن وقَرْناه بارزتان من القبر . وكان للثور الذي يجسِّد آبيس ..Apis نصباً رائعاً ، ولا بدّ أن يُنظر إلى بعض الاهرامات على هذا النحو . فقد وجد في بعض الأهرامات التي فُتحت وفي الغرفة الواقعة في الوسط تماماً ، تابوت جميل من المرمر ، وبعد فحص دقيق تبين أن العظام الموجودة بداخل التابوت هي عظام ثور . وعبادة الحيوان بهذا الشكل كثيراً ما انقلبت إلى درجة قصوى من القسوة المتبلِّدة . فلو أن انساناً قتل حيواناً عامداً عوقب بالاعدام ، بل حتى القتل غير المتعمد لبعض الحيوانات المعينة قد يفضي إلى الموت . فيروى أن رومانياً قتل في الاسكندرية ، ذات مرة ، قطة ، فقام المصريون بثورة أعدموا فيها ذلك الجاني الروماني ، وهم يفضلون أن تموت الموجودات البشرية من المجاعة ، ولا يسمحون بقتل الحيوانات المقدسة أو الاقتراب من المؤن المخصصة لها . وفضلاً عن عبادة الحياة المجردة عُبدت أيضاً قوة الحياة العامة للطبيعة التناسلية وذلك في عبادة قضيب الرجل ، وهو ما نقله اليونان أيضاً في طقوسهم التي كانوا يقيمونها لديونيسوس ..Dionysus . ولقد ارتبط بهذه العبادة افراط زائد لا حد له في الفجور .

ولقد تحوّل شكل الحيوان ، فضلاً عن ذلك ، إلى رمز : كما انحطّ جزئياً إلى أن أصبح مجرد علامة هيروغليفية ، وأنا أشير هنا إلى الأشكال التي لا حصر لها على التماثيل المصرية ، للباز أو الصقر ، وخنفساء الروث ، والجعران . . الخ . ولا يعرف المرء التصورات التي جعلت من مثل هذه الأشكال رموزاً ولا يجوز للمرء أيضاً أن يعتقد بأننا قد وصلنا إلى نظرة مقنعة بصدد هذا الموضوع البالغ الغموض ، فقد قيل مثلاً أن خنفساء الروث ترمز

إلى التولّد والنشوء ـ وإلى الشمس ومسارها . كما يرمز آبيس إلى فيضان النيل ، أمّا الصقر فيرمز إلى التنبؤ ، وإلى السنة وإلى الرحمة . ولقد نتجت غرابة هذه الارتباطات ، لا لأن هناك تصوراً عاماً يتجسّد في صورة من الصور ـ كما يصور لنا ذلك العمل الشعري ـ وإنما ، على العكس من ذلك ؛ نحن نبدأ من تصور في مجال الحس ثم يقودنا الخيال إلى نفس المجال مرة أخرى .

لكنا نلاحظ ، فضلاً عن ذلك أيضاً أن التصور يحرر نفسه من الصورة الحيوانية المباشرة ومن البقاء عند التأمل فيها ، وبذلك يتقدم ما كان موجزاً وما كانت تستهدفه تلك الصورة ليصبح أمراً يمكن فهمه وتصوره . وينبثق المعنى الخفي ، الروحي ، بوصفه الوجه البشري من الصورة الحيوانية . والأشكال المتنوعة من أبي الهول ، مرة بجسم أسد ورأس عذراء ، ومرة أخرى يمثل فيها أبو الهول رجلاً ملتحياً ، هذه الأشكال دليل صدق يدعم وجهة النظر التي تذهب إلى أن : معنى الروحي هو المشكلة التي طرحها (المصريون) على أنفسهم وذلك مثل اللغز بصفة عامة ، لا تبوح بشيء مما هو مجهول ، لكنها تمثل التحدي للكشف عنه وهي تحمل في جوفها الرغبة في هذا الكشف ، ولكن على العكس من ذلك فإن الصورة البشرية تشوّه أيضاً عن طريق جعلها تمثل وجه حيوان مع تعمد إعطائها تعبيراً معيناً وخاصاً . ولقد كان الفن الاغريقي الرفيع قادراً على بلوغ تعبير خاص من خلال الطابع الروحي الذي يُعطى لتصوير ما في شكل جمالي ، ولم يكن في حاجة إلى الحط من شكل الوجه البشري حتى يمكن فهمه . ولقد أضاف المصريون أنفسهم أيضاً تفسيراً للأشكال البشرية كآلهة ، عن طريق رؤوس الحيوانات وأقنعتها فأنوبيس مثلاً له رأس كلب ، ولايزيس رأس أسد مع قرني ثور . . الخ ولقد كان الكهنة وهم يؤدون وظائفهم يتخذون لأنفسهم أقنعة للصقور ، وابن آوى ، والثيران . . الخ . وكذلك كان الطبيب الجراح بعد أن يقوم باستخراج أحشاء الميت يتخذ قناعاً (ويتصور بصورة الهارب لأنه قد اقترف إثماً في حق الحياة) وكذلك كان المحنطّون والكتبة يتخذون أيضاً أقنعة وكان

الباز (الصقر) برأس بشري وجناحين مبسوطين ، يرمز إلى النفس التي تطير في الأماكن الحسية لكن تحيي جسداً جديداً . كذلك اخترع الخيال المصري أشكالاً جديدة وتكوينات من حيوانات مختلفة : ثعابين بروؤس ثيران وكباشي ، جسم أسد ورأس كبش . . الخ .

وهكذا نجد مصر قد حصرت نفسها ، (من الناحية العقلية) ، في نظرة ضيقة وثيقة الصلة بالطبيعة ، لكنها تجاهد لكسرها أيضاً فتدفعها بذلك إلى تناقض ذاتي ، وتطرح على نفسها المشكلة التي يتضمنها هذا التناقض . غير أن المبدأ المصري لم يبق قانعاً بظروفه ووضعه المباشر بل أشار إلى ذلك المعنى الآخر ، والروح ، الذي يكمن خافياً تحت السطح .

لقد رأينا الروح المصري في النظرة التي سقناها الآن تواً يعمل على تحرير نفسه من الصور الطبيعية . غير أن هذه الروح القوية الملحّة لم تكن قادرة على البقاء في إطار التصور الذاتي للمضمون الذي تأخذ به هذه النظرة إلى الأشياء التي كنا الآن ندرسها ، بل كانت مضطرة إلى أن تمثلها للوعي الخارجي وللرؤية الخارجية عن طريق الفن . لأن الفن بالنسبة لديانة **الواحد الأزلي** ، الذي **لا شكل له** ، ليس فقط غير كافٍ ، بل إنه يمثل خطيئة ما دام موضوع هذه الديانة هو أساساً في الفكر - غير أن الروح التي تقف عند رؤية الصور الطبيعية الجزئية - بوصفها روحاً دافعة ومشكلة للصور ، تقوم بتحويل النظرة الطبيعية المباشرة للنيل مثلاً ، وللشمس . . . إلى أشكال تشارك فيها الروح . فهي ، كما رأينا روح رمزية ، وهي بما هي كذلك تجاهد للسيطرة على هذه الرمزية ولتمثلها بوضوح أمام نفسها . وكلما ازدادت غموضاً وإلغازاً أمام نفسها ازداد شعورها بالدافع إلى العمل لكي تحرر نفسها من سجنها ولتصل إلى تصور موضوعي .

ويبدو أمامنا هذا الجانب الفني الهائل كسمة يتميز بها الروح المصري . وإن ما تبحث عنه الروح ليس هو البهاء ، ولا اللهو ولا البهجة . . الخ وإنما الذي يدفعها هو النزوع نحو فهم ذاتها ، وليس لها مادة أخرى ولا أساساً

آخر تعمل عليه لكي تعلُم نفسها ما هي عليه ، ولكي تحقق ذاتها أمام نفسها سوى أن تشكل أفكارها في حجارة ، وما تنقشه على الحجر هو ألغازها ، هذه الهيروغليفيات . وهي على نوعين : هيروغليفيات أصيلة حقيقية مخصصة للتعبير في اللغة وتشير إلى تصور ذاتي . وفئة أخرى من الهيروغليفيات تمثل نوعاً مختلفاً ، وأعني بها تلك الكتل الهائلة من العمارة والتماثيل التي تغطي أرض مصر . وعلى حين أننا نجد التاريخ في الأمم الأخرى يتألف من سلسلة من الأحداث كما هي الحال مثلاً عند الرومان الذين عاشوا قروناً عديدة وفي ذهنهم الغزو والفتح واخضاع العالم لسيطرتهم ـ نجد المصريين يقيمون امبراطورية تضاهيها في القوة من انجازات الأعمال الفنية ، التي تبرهن أطلالها على عدم قابليتها للفناء ، والتي هي أعظم ، وأكثر مدعاة للدهشة ، من جميع الأعمال الفنية الأخرى سواء في العصر القديم أو الحديث .

ولن أذكر من هذه الأعمال سوى تلك التي خُصصت للموتى والتي لفتت انتباهنا بصفة خاصة : وتلك هي التجويفات الهائلة في التلال الواقعة على طول النيل في طيبة وهي التي مُلئت ممراتها وحجراتها تماماً بالموميات (الجثث المحنطة) وأماكن إقامة تحت الأرض واسعة كأوسع المناجم في عصرنا الحديث. وهناك ثانياً ميدان ضخم للموتى في سهول « سايس » بأسواره وقبابه . وهناك فضلاً عن ذلك عجائب الدنيا وهي الأهرامات التي لم يتأكد الهدف منها بوضوح إلّا حديثاً رغم ما قاله « هيرودت » و « ديودور » منذ أمد بعيد، وهو أن هذه البناءات البللورية الهائلة بما لها من تناسق ونظام هندسي تضم أجساماً ميتة . وأخيراً ذلك العمل الفني المدهش في مقابر وادي الملوك الذي كشف بيلزوني ..Belzoni[٧٥] في العصور الحديثة عن واحد منها .

ومن المهم جداً أن نلاحظ مدى أهمية مملكة الموتى هذه عند المصري ،

---

(٧٥) بيلزوني أحد علماء المصريات أعاد افتتاح الهرم الثاني على ربوة الجيزة . . ومقبرة سيتي الأول في وادي الملوك ومعبد ولده رمسيس الثاني وزوجته نفرتاري في أبوسنبل (المترجم) .

ومن ذلـك يمكن أن نعرف الفكـرة التي كـانت في ذهنـه عن الانسـان : فهـو يتصـور الانسان في حـالة المـوت وقـد تخلّص من جميـع خصـائصـه الـطارئـة العارضة وارتدّ إلى طبيعته الجوهرية. ومن تصور شعب من الشعـوب للانسـان في خصـائصه الجـوهريـة يستطيـع المرء أن يستخلص خصـائص هذا الشعب نفسه .

ولا بدّ لنا هنا أن نذكر في البدايـة تلك الحقيقة الـرائعة التي رواهـا لنا هيرودت وهي أن المصريين كانوا أول مَنْ عبَّر عن الفكـرة القائلة بـأن النفس البشرية خالدة . غير أن القول بأن النفس خالـدة كان يعني أنها شيء مختلف عن الطبيعة وأن الروح مستقلة لذاتها . ولقد كان الشيء الأعظم عنـد الهنود هـو الانتقال إلى الـوحدة المجـردة وإلى العدم . ولكن الـذات عندمـا تتحـرر تصبح لا متناهية في ذاتها : ومن ثمّ فإن مملكة الـروح الحر هي مملكـة المستور غير المرئي مثلما كان اليونانيون يتصورون عالم الأموات ..Hades . ولقد تمثّـل ذلـك للناس في البـداية عـلى أنه مملكـة الموتى ـ وللمصـريين عـلى أنـه مملكـة الأموات .

والفكرة التي تقول إن الروح خالدة تتضمن أن الفرد البشري يمتلك في ذاتـه قيمة لا متنـاهية . أمّـا العنصر الـطبيعي المحض فيبدو محـدوداً معتمـداً اعتمـاداً مطلقـاً على شيء آخـر غير ذاتـه ويضـرب وجـوده بجـذوره في هـذا الآخر . غير أن الخلود يتضمن أن الروح في ذاتها لا متنـاهية . ولقـد وجدت هذه الفكرة لأول مرة بين المصريين . لكنـا ينبغي أن نضيف أن المصريـين قد عـرفوا النفس في البـدايـة عـلى أنها ذرة فحسب أعني بـوصفهـا شيئـاً جـزئيـاً وعينياً . فقد ارتبطت هذه النظرة في الحال بفكرة تناسخ الأرواح وهي الفكرة التي تقـول إن نفس الانسان يمكن كـذلك أن تحـلّ في جسد حيـوان . ولقـد تحدث أرسطو عن هذه الفكرة أيضاً وفرغ منها في كلمات قليلة : فهـو يذهب إلى أن لكل ذات بشرية أعضاء جزئية خاصة لنشاطها (تتناسب مع طـريقتها الخاصة في السلوك) وذلك مثل الحدّاد ، والنجار ، بالنسبة لحرفته . وبنفس

الطريقة فإن للنفس البشرية أعضاءها الخاصة التي تناسبها ، ولهذا كان جسد الحيوان لا يصلح مقراً لها . أمّا الفيثاغوريون فقد اعتنقوا عقيدة تناسخ الأرواح ، وإنْ كانت هذه العقيدة لم تجد إلاّ القليل من القول بين اليونان الذين تمسكوا بالعيني . أمّا الهنود فقد كان عندهم تصور غير متميز لهذه العقيدة من حيث أنهم كانوا يؤمنون بأن الهدف النهائي الذي يصل إليه الانسان هو الانتقال إلى الجوهر الكلي . أمّا عند المصريين ، فقد كانت النفس - أو الروح - على أية حال ، وجوداً إيجابياً رغم أنها كانت إيجابية بطريقة مجردة فحسب ، أمّا الفترة التي كانت تقضيها النفس في ارتحالها فقد حدِدت بثلاثة آلاف سنة . لكنهم ذهبوا إلى أن النفس التي تظل مخلصة لأوزريس لا تخضع لمثل هذا الهوان . (فقد كانوا يعتقدون أن هذا التناسخ من أجل هذا الهوان) . من المعروف أن المصريين كانوا يحنطون موتاهم ، وعلى هذا النحو أضفوا علَيهم درجة من الدوام ما زالوا يحتفظون بها حتى يومنا الراهن ، وربما استمروا على هذا النحو لعدة آلاف من السنين . وقد يبدو ذلك متناقضاً مع فكرتهم عن خلود النفس ، إذْ لو كان للنفس وجود مستقل ، فسوف يبدو دوام الجسد وبقاؤه أمراً لا أهمية له . لكن قد يقال ، من ناحية أخرى أنه إذا ما أدركنا النفس على أنها ذات وجود دائم فلا بدّ من اضفاء الشرف على الجسد باعتباره مقر سكِناها السابق ، لقد كان الباريسيون يضعون جثث الموتى في أماكن مكشوفة لتلتهمها الطيور ، لكنهم كانوا يعتقدون أن النفس تنقل إلى الوجود الكلي . فحيثما افترض أن النفس تتمتع بوجود متصل فلا بدّ من النظر إلى الجسد على أنه يرتبط بصلة ما بهذا الدوام . والواقع أن عقيدة خلود النفس تتخذ بيننا صورة عليا : فالروح أزلية في ذاتها ولذاتها ومصيرها هو السعادة الروحية الأبدية . لقد حوّل المصريون موتاهم إلى موميات ولم يشغلوا أنفسهم بهم أكثر من ذلك ولم يولوهم شرفاً أبعد من ذلك . ويروي هيرودت أنه عندما يموت شخص بين المصريين فإن النساء تدور نائحات بصوت مرتفع ، ولكن لم يكن يُنظر إلى فكرة الخلود بوصفها تعني العزاء والسلوان كما هي الحال بيننا .

من الـواضح من كـل ما قيـل فيما سبق حـول الأعمال التي بُـذلت من أجل الموتى أن المصريين ، وملوكهم بصفـة خاصـة ، جعلوا شغلهم الشاغـل طـوال حياتهم أن يقيمـوا أضرحـة ومـدافن لأنفسهم وأن يقيمـوا لأجسـادهم مستقراً دائماً . ومما تجدر ملاحظته أن ما كان تتطلبه مشاغـل الحياة كـان يُدفَن مع الموتى . ومن ثم كان يدفن مع الحرفي أدواته ويُبيّن في لوحات مصوّرة على التابوت الوظيفة التي كان يشغلها الميت حتى يكون في استطاعتنا التعرّف عليه بكل ظروف حياته ومهنته . ولقد عُثر على كثير من الموميات وهي تحمل تحت ذراعها لفافة من أوراق البردي-كـان يُنظر إليهـا فيما سبق عـلى أنها كنز قيم ، غـير أن هذه اللفـائف لم تكن تتضمن سوى أوصـاف مختلفة لمسـاعي الحياة - جنبـاً إلى جنب مـع كتـابـات بـالخط الـديمـوطي ..Demotic[٧٦] . ولقـد تمّ الكشف عن سـرها وتبينّ أنها جميعاً مجمـوعة من عقـود الشراء تتعلق بشـراء مساحات من الأرض أو نحو ذلك حيث تسجل أدق التفصيلات حتى الرسوم الواجب دفعها بهذه المناسبة إلى جهات الاختصاص في الدولـة ، ومن ثمّ فإن ما يشتريه الشخص طوال حياته يصحبه بعد مـوته عـلى هيئة وثـائق رسمية . وبهذه الطريقة التذكارية استطعنا أن نتعرّف على حياة المصريـين الخاصـة على نحـو ما فعلنـا مع الـرومان من خـلال آثـار (مـدينتي) بـومبي وهـرقـلانـوم Herkulanum.. .

بعد موت المصري تُقام له محاكمـة وإحدى الصـور الرئيسيـة المرسـومة عـلى التوابيت الحجـرية تمثـل اجراء المحـاكمة في عـالم الموتى ، حيث يـظهـر أوزريس وخلفه ايزيس ، وهـو (أوزريس) يحمل الميـزان وأمامـه يقف روح الميت . إلاّ أن محاكمة الموتى كانت تتم بناء على طلب الأحيـاء أنفسهم ، ولا يحدث ذلك في حالة أشخـاص عاديـين فحسب ، بل حتى في حـالة الملوك . ولقـد اكتشفت مقبرة أحـد الملوك ، وهي واسعة جـداً وتمّ اعدادهـا بعنـايـة فـائقـة ، ووجــد أن اسم الشخص الـرئيسي قــد طُمِس من بـين الكتــابـة الهيروغليفية . كما نجد أن الشخصية الرئيسيـة قد امّحت من النقـوش السفلى

(٧٦) ضرب من الخط المصري القديم كان يُستخدَم في الحياة اليومية (المترجم) .

ومن اللوحـات المصورة . وقـد فُسِّر ذلـك على أنـه يعني أن محكمة المـوتى قد أصدرت حكمها على هذا الملك بالحرمان من شرف الخلود بهذه الطريقة .

وإذا ما كان الموت يثقل كاهل المصريين على هذا النحو ابّان حيـاتهم ، فقد يُظن أنهم كانوا يعانون من المـزاج (السوداوي) المكتئب . غـير أن فكرة الموت لم تكن تحدث لهم اكتئاباً قط . ففي المآدب (أو الولائم) التي يقيمونها كانوا يضعوُن فيها صوراً للموتى (كما يروي هيـرودت) مع هـذه النصيحة : « كلْ واشربْ فسوف تصبح يوماً ما مثل هذا (الميت) عندما تموت » ومن ثمّ فقد كان الموت عندهم دعوة للاستمتاع بالحياة ، فأوزريس نفسـه مات وهبط إلى مملكة الأموات كما تقول الأسطورة المصريـة التي سبق أن ذكرنـاها . وقـد أقيمت في أمـاكن كثيـرة في مصـر قبـور مقـدسـة لأوزريس . لكنهم صـوّروه كذلك على أنه يرأس مملكة العالم المستور وعلى أنه يقوم بدور القاضي في هذه المملكة . وفيما بعد قام سيرابيس ..Serapis بهذه الوظيفة بـدلاً منه . وتقـول الأسطورة عن أنوبيس ـ هرمز أنـه قام بتحنيط جثـة أوزريس ويؤدي أنوبيس أيضاً دور قائـد أرواح الموتى ، وهـو يقف إلى جانب أوزريس ، في اللوحـات المصورة وهو يحمل في يده اللوح الخاص بالكتابة . واستقبـال الموتى في مملكـة أوزريس يحمل هو الآخر مغزى عميقـاً يدل عـلى أن الفرد يصـير متحداً مـع أوزريس . ومن هنا يصوَّر الميت على غطاء التـابوت عـلى أنه قـد أصبح هـو نفسه أوزريس . وعندما بُدىء في حل رموز الهيروغليفية ظهـرت الفكرة التي تقول أنه كان يُقال عن الملوك أنهم آلهة . وهكذا يظهر اتحاد الجانب البشـري مع الجانب الإلهي .

لو أننا أردنا في الختام أن نلخص ما سبق أن قلناه عن خصائص الروح المصري مع جميع جوانبها فإننا نجد التصور الأساسي يقول بأن كـلا عنصري الحقيقـة وهما : الـروح الغارقـة في الـطبيعـة ، والـدافـع إلى التحـرز منهـا ، عنصران يتنازعان هنا معاً بصورة جبرية ونحن نرى (لدى المصريين) تناقض الطبيعة والروح ـ لا الوحدة الأولى المباشرة (على نحو ما كانت عليه في الأمم الأقل تقدماً) ولا الوحدة العينية حيث توضع الطبيعة فقط بـوصفها الأسـاس

لتبدّي الروح (كما هي الحال في الأمم الأكثر تقدماً) بل إن الوحدة المصرية ، على عكس الوحدة الأولى والثانية لأنها تحتوي على عناصر متعارضة تشكل مكاناً وسطاً . فجانبا هذه الوحدة قد أخذا في استقلال مجرد (كل جانب عن الآخر) ووحدتها لا تُتصور إلّا بوصفها مشكلة أو واجباً (يتطلب القيام به) . ولذلك نجد لدينا في جانب تقيداً وارتباطاً هائلين بالجزئي ، وحسية همجية مع قسوة أفريقية ، وعبادة للحيوان والاستمتاع بالحياة حتى ليقال إن امرأة مارست اللواط مع كبش في سوق عام . ويروي جوفينال Juvenal.. أنهم أكلوا اللحم البشري ، وشربوا دم الانسان كلون من الثأر والانتقام . أمّا في الجانب الآخر فنجد لدينا كفاح الروح من أجل التحرر ، إذْ يلعب الخيال دوراً في الأشكال التي يخلقها الفن ، جنباً إلى جنب مع الفهم المجرد ، كما يتجلّى في الأعمال الميكانيكية لانتاج هذه الأشكال . ويتبين نفس الذكاء والقدرة على تحويل ما هو جزئي ، والفكر الراسخ الذي يرتفع فوق الظواهر المباشرة - يتبيّن في نظام الشرطة ، وفي تنظيمهم للدولة ، وفي إدارة نظام الزراعة . . الخ . وعلى العكس من ذلك تبدو صرامة الارتباط بالعبادات وبالخرافة التي كان يخضع لها الانسان على نحو لا يرحم . ويرتبط فهم الحياة الحاضرة بدرجة عالية من الاندفاع والهياج أو الغليان . ولقد جمع هيرودت هذه السمات في القصص التي رواها لنا عن المصريين ، وهي تشبه إلى حد كبير حكايات ألف ليلة وليلة . وعلى الرغم من أن هذه الحكايات تتخذ من بغداد مقراً لروايتها ، فإن أصلها ليس قاصراً على هذا البلاط المترف ، ولا على الشعب العربي ، بل نجده بالأحرى في مصر أيضاً كما يعتقد السيد فون هامر Von Hammer.. فالعالم العربي يختلف تماماً عن هذه الروعة وهذا الخيال الفائق (الموصوف في هذه الحكايات) كما أن عواطفه واهتماماته أكثر بساطة من ذلك فالحب ، والشجاعة الحربية ، والسيف والخيل هي الموضوعات المفضّلة في الشعر عند العرب .

« الانتقال إلى العالم اليوناني »

تبدّى لنا الروح المصري من جميع جوانبه منغلقاً على نفسه داخل حدود تصورات جزئية ، ومنحدراً حتى درجة حيوانية ، إنْ صحَّ التعبير ، في هذه التصورات . لكنه في الوقت ذاته يكافح للخروج من هذه الحدود ، منتقلاً ، بلا كلل ، من صورة جزئية إلى أخرى . ولم يحدث أن ارتفعت هذه الروح إلى الكلي وإلى الأعلى ، إذْ يبدو أنها كانت عمياء عن ذلك . كما أنها لم تنسحب قط داخل ذاتها ، ومع ذلك فقد رمزت بجرأة وحرية للوجود الجزئي وسيطرت عليه بالفعل . وكل ما هو مطلوب الآن هو أن يوضع ذلك الوجود الجزئي ـ الذي يتضمن بذور المثالية ..Ideality ـ بوصفه مثالياً ، وأن تدرك الكلي نفسه الذي هو في ذاته حر . ولقد كانت الروح الحرة المرحة عند اليونان هي التي أنجزت تلك المهمة وجعلت منها نقطة بدايتها وانطلاقها . وإذا كان يروى أن كاهناً مصرياً كان يقول إن اليونانيين سيظلون إلى الأبد أطفالاً ، فإننا نستطيع أن نقول ، على العكس ، أن المصريين كانوا صبياناً أقوياء ممتلئين بطاقة خلّاقة ، لا يحتاجون إلى شيء سوى الفهم الواضح لأنفسهم في صورة مثالية لكي يصبحوا شباباً . ففي الروح الشرقي يظل الأساس هو أن جوهرية الروح مغموسة في الطبيعة . ولقد أصبح من المستحيل بالنسبة للروح المصري أن يظل قانعاً بهذا الوضع الذي انخرط فيه في ارتباط لا نهاية له . وعملت الطبيعة الأفريقية الوعرة على تفكك هذه الوحدة ، وأضاءت المشكلة التي تُحل عن طريق : الروح الحر . أمّا أن الروح عند المصريين قد تمثّل لوعيهم في صورة مشكلة ، فذلك واضح من النقوش الشهيرة في معبد الإلهة نيت ..Neith في ساس ..Sais : « أنا ما هو كائن ، وما قد كان ، وما سوف يكون لم يرفع قناعي أحدٌ قط » . ويشير هذا النقش إلى مبدأ الروح المصري . وإنْ كان الرأي قد تردد أحياناً بأن مضمونه ينطبق على جميع العصور . ويزودنا برقلس ..Proclus بهذه الاضافة : « الثمرة التي أنتجتها هي الشمس ..Helios » . أمّا ما هو واضح بذاته فهو

النتيجة ، والحل ، للمشكلة المطروحة . وهذا الوضوح هو الروح ـ ابن نيت Neith.. إلهة الليل المختبئة . ولا تزال الحقيقة في حالة انغلاق ، عند نيت Neith.. المصرية ، وكان الإله أبولو Apollo.. عند اليونان هو الحل . وعبارته تقول : « أيها الانسان اعرفْ نفسك » . فهذا القول لا يعني معرفة الذات للجوانب الجزئية لضعفها وأخطائها ، فالمقصود ليس هو الانسان الجزئي الذي ينبغي أن يُعرف خصائصه ، وإنما المقصود هو الانسان بصفة عامة والذي ينبغي عليه أن يعرف نفسه . لقد صدر هذا الأمر لليونانيين ، وفي الروح اليوناني يتمثل الجانب الانساني في وضوحه وفي تطور هذه الروح . ولا بدّ أن يدهشنا ، إذنْ ، ما ترويه الأسطورة اليونانية ، من أن أبا الهول ـ الرمز المصري العظيم ـ قد ظهر في طيبة وقال هذه الكلمات : « ما هو ذلك الشيء الذي يسير في الصباح على أربعة أرجل وفي الظهر على اثنتين ، وفي المساء على ثلاثة ؟ » . ويقدّم له « أوديب » الحل إنه **الانسان** ، وبذلك يطيح بأبي الهول من فوق الصخرة ، فالحل وكذلك التحرر من الروح الشرقي ، الذي تقدم في مصر خطوات حتى استطاع أن يرتفع إلى مرتبة المشكلة ، هو بغير شك ما يلي : إن **الوجود الداخلي** (أو الماهية) للطبيعة هو **الفكر** الذي لا يكمن وجوده إلّا في الوعي البشري غير أن ذلك الحل القديم (الذي ظلّ موضع احترام فترة طويلة) ، والذي قدّمه « أوديب » ـ الذي ظهر بذلك على أنه يمتلك المعرفة ـ ارتبط بجهل أوديب المطبق بذلك الذي يفعله هو نفسه ، وشروق الوضوح الروحي في القصر الملكي العتيق كان لا يزال مرتبطاً بشناعة الجهل . وكان لهذه السيادة الأولى للملوك لكي تحظى بمعرفة حقة ووضوح أخلاقي حقيقي أن تتشكل بواسطة القوانين المدنية والحرية السياسية وتتصالح مع الروح الجميل .

والانتقال الداخلي أو المثالي من مصر إلى اليونان (قد عرضناه الآن تواً) انطلق من الروح المصري . غير أن مصر كانت قد أصبحت اقليماً من أقاليم المملكة الفارسية العظيمة ، ويتم الانتقال التاريخي عندما يحتك العالم الفارسي **بالعالم اليوناني** . وهنا نلتقي لأول مرة بالانتقال التاريخي ، وهذا

يعني في لحظة سقوط الامبراطورية . لقد بقيت الصين والهند كما سبق أن ذكرنا أمّا فارس فلم تبق . فالواقع أن الانتقال إلى اليونان كان داخلياً ، لكنه هنا يتبدّى من الناحية الخارجية أيضاً بوصفه انتقالاً للسيادة ، وهو حَدَثٌ سوف يظل منذ ذلك التاريخ يتكرر من حين لآخر : فاليونان يسلّمون صولجان السلطة والحضارة للرومان ، والرومان يخضعون للجرمان . ولو أننا فحصنا حقيقة الانتقال هذه عن كثب أكثر لكان السؤال الذي يطرح نفسه فوراً لدى فارس : هو : لماذا غابت شمس فارس بينما بقيت الصين والهند . علينا أولاً وقبل كل شيء أن نستبعد من أذهاننا الرأي المبتسر الذي يذهب إلى أنه لو كان الدوام قد صمد أمام الزوال لكان هذا شيئاً أكثر روعة : فالجبال الراسخة التي لا تفنى ليست أسمى من الزهرة التي تذوي بسرعة عندما تتبخر حياتها في أريج العطور . في فارس بدأ ظهور مبدأ الروح الحر في معارضة الجانب الطبيعي ، ومن هنا فإن هذا الوجود الطبيعي يفقد بريقه ويذبل . وعلى ذلك فإن مبدأ الانفصال عن الطبيعة وجد في الامبراطورية الفارسية التي تشغل بالتالي مكاناً أعلى من تلك الدول التي انغمست في الطبيعة . وهكذا تمّ الافصاح عن ضرورة التقدم ، وكشفت الروح عن وجودها ، ولا بدّ لها أن تكمل تطورها . إن الصيني لم يكن له اعتباره إلاّ بعد موته ، أمّا الهندي فكان يقتل نفسه ليصبح مستغرقاً في براهمه ويكون ميتاً وهو حي ، وذلك في حالة فقدان الوعي فقداناً تاماً أو هو إله حاضر بفضل الميلاد . ونحن هنا لا نجد تغييراً ، ولا يسمح بأي تقدم ، لأن التقدم لا يكون ممكناً إلاّ في حالة انجاز الاستقلال للروح . ومع « نور » الفرس بدأ التصور الروحي ، وهنا تودع الروح الطبيعة . ومن ثمّ فنحن هنا نجد لأول مرة (على نحو ما لاحت لنا الفرصة لنلاحظ فيما سبق) أن العالم الموضوعي ظل حراً ـ وهذا يعني أن الأمم لم تُستعبَد بل تركت تمتلك ثرواتها ، ودستورها السياسي ، ودينها . والواقع أن هذا هو الجانب الذي يظهر فيه ضعف فارس إذا ما قورنت باليونان لأننا نرى أن الفرس لم يكن في استطاعتهم إقامة امبراطورية ذات تنظيم كامل ، ولم يغرسوا في البلاد التي فتحوها مبدأهم ،

ولم يكن في استطاعتهم أن ينظموا هذه البلاد في كل منسجم بـل اضطروا إلى أن يقنعوا بتجمع منَ الفرديات المختلفة أتمَّ الاختلاف . ولم ينجح الفرس في تحقيق أي اعتـراف داخلي بـين هذه الأمم بشـرعية حكمهم ، ولم يستـطيعـوا تـرسيخ مبـادئهم التشريعيـة ولا قوانينهم ، وفي تنـظيمهم للسلطة نـظروا إلى أنفسهم فقط لا إلى نطاق الامبراطـورية بـأسرهـا . وعلى ذلـك فلمّا لم تشكل فارس روحاً واحـدة من الناحيـة السياسيـة فإنها بـدت ضعيفة إذا مـا قورنت باليونان . ولم يكن تخنث الفرس هـو الذي قضى عليهم (عـلى الرغم من أن التخنث قد أضعف بابـل) بل كـان الكم الضخم غير المنـظم لجيشهم إذا ما قورن بجيش اليونان المنظم ، وهذا يعني أن المبدأ الأعلى يقهر المبـدأ الأدنى .
ولقد كشف مبدأ الفـرس المجرد عن نقصـه بوصفـه غير منـظم ، وخليطاً من المتناقضات المبعثرة ، حيث نجد عقيدة الفرس في « النور » جنباً إلى جنب مع حياة الشهوة والترف عند السـوريين ، إلى جـانب نشاط وشجـاعة الفينيقيـين أهل البحر الشجعان ، إلى جانب تجريد الفكر الخالص في الـديانـة اليهوديـة والنزوع الداخلي (القلق العقلي) في مصر ـ خليط من العناصر التي يتوق إلى جانبها المثالي الذي لا يمكن أن يتحقق إلاّ في الفردية الحرة . ولا بدّ من النظر إلى اليونان بوصفهم الشعب الذي تداخلت فيه هذه العناصر وتغلغل كل منها في الآخـر : بأنْ أصبحت الـروح مستبطنـة منتصرة عـلى الجزئيـة ، وبـذلـك حررت نفسها .

« فهرس تحليلي »

مقدمة ودراسة بقلم المترجم .... ٥ ـ ٥٢

تمهيد : الخطوط العامة لفلسفة التاريخ الهيجلية ـ تقسيمه لمراحل التاريخ ـ مسار التاريخ وفقاً للمبادىء العامة لسير الجدل ـ تحليله للعالم الشرقي يهمنا نحن بصفة خاصة : الشخصية الشرقية في نظر هيجل ـ تقسيمه للعالم الشرقي الصيني والوحدة الجوهرية ـ الصين جنة الذكور ـ إدارة الامبراطور ـ التشريع الديني ـ العلم ـ الهند والحياة السياسية ـ تقسيم الطبقات المغلقة ـ الامبراطورية الفارسية ـ مصر المركب النهائي للعالم الشرقي ـ منها تمَّ الانتقال الداخلي إلى اليونان ـ مصر تطرح المشكلة في صورة لغز هو أبو الهول ـ حله وانتحاره في اليونان ....

خاتمة نقدية : الفكرة القَبْلية ـ اغفال عنصر الزمان ـ العصبية والاستعلاء الأوروبي ٤٨

محاضرات في فلسفة التاريخ لهيجل ٥٣

« العالم الشرقي » ٥٥

مقدمة : ....

في آسيا أشرق ضوء الروح : التاريخ يبدأ بدول العالم الشرقي وليس قبل ذلك . ما قبل التاريخ سابق أيضاً على الحياة السياسية . مبدأ

العالم الشرقي هو جوهرية الأخلاق . المثل الأول : الارادة الذاتية تحكمها قوة خارجية هي الحكومة في الصين ـ الروح لم تبلغ بعد مرحلة الذاتية ـ القانون والحس الأخلاقي لم ينفصلا بعد ـ وكذلك الدين والدولة ـ الدستور ثيوقراطي (ديني) .

تقسيم آسيا أربع مناطق : الصين ، والهند ، ومرتفعات فارس ، ومصر . يبدأ التاريخ بالصين ونظامها الأبوي البطرياركي في وحدة واحدة . تحطيم هذه الوحدة في الهند وظهور التقسيمات ـ الاختلافات بين الطبقات المغلقة في الهند ـ الامبراطورية الفارسية : المبدأ الكلي الذي يُنظّم الملك ورعاياه في وقت واحد ـ الشمس المباركة التي تشرق على الجميع ـ فارس تمثل الانتقال (الخارجي إلى اليونان) ـ مصر تمثل الانتقال الداخلي ـ الوحدة في مصر على صورة مشكلة يراد حلها ـ اللغز الذي تطرحه مصر يُحلّ في اليونان . ...

« القسم الأول » ٦١
« الصين » ....

امبراطورية الصين أقدم ما ينبئنا به التاريخ ـ مجموعة من الكتب والوثائق الصينية ـ المؤرخون من كبار الموظفين ـ كثافة السكان ـ الامبراطور فوهي مؤسس الحضارة الصينية ـ روح الدستور : المبدأ العام هو الوحدة المباشرة للروح الجوهري وللروح الفردي ـ العلاقة التي تعبر عن جوهر الروح هي علاقة العائلة أو الأسرة ـ الصينيون أبناء للدولة ـ العلاقة الأبوية البطرياركية هي السائدة ـ أهمية العدد خمسة ـ خمسة واجبات ذكرها كتاب تشوكنج . واجبات الأسرة محددة بدقة بالغة ـ الابن لا يبدأ بالكلام ـ اعلان الحداد ثلاثة أعوام ـ احترام الأم أيضاً واجب ـ قاعة للأسلاف أو الجدود ـ ما يفعله الأبناء وما ينالونه من شرف يُنسب إلى الآباء . ...

الامبراطور يتربع فوق قمة البناء السياسي ويمارس حقوقه بطريقة

الأب مع أبنائه ـ الامبراطور ينظر إلى الرعايا بوصفهم أطفالاً ـ لا يتعدون المبدأ الأخلاقي لمحيط الأسرة ـ أعظم احترام ممكن يوجه إلى الامبراطور فهو الذي يُنظِّم الحكومة والأعمال التشريعية ـ تربية الأمراء مسألة بالغة الأهمية ـ الإمبراطور هو المركز الذي يدور حوله كل شيء ، ويعود إليه كل شيء وبالتالي فإن رخاء البلاد وسعادة الناس يعتمدان عليه ـ إذا لم تكن شخصيته قوية إنهار كل شيء ـ آخر امبراطور في الأسرة الحاكمة كان ودوداً لكن دماثة شخصيته جعلت عنان الحكومة يتراخى في يده فجلب الاضطراب إلى البلاد فاضطر أن يقتل نفسه حتى لا يسقط في أيدي أعدائه . . . .

نظام التشريع : الرعايا قصر ـ العلاقات الأسرية سطحية ـ العقوبات بدنية وهي مخلّة بالكرامة ـ أصحاب المناصب الرفيعة من الوزراء ونواب الامبراطور يُعاقبون بالطريقة نفسها ولا تسحب منهم ثقة الامبراطور أو صداقته بسبب هذا التأديب ـ الصينيون لا يفرقون بين الفعل المتعمد وغير المتعمد ـ الموت هو عقوبة القتل الخطأ ـ الفرق بين العبودية والحرية ليس كبيراً فالجميع متشابهون في المهانة ـ الشعور بالضعة والانحطاط . . . .

الجانب الديني : الامبراطور هو الرئيس الأعلى للدين ـ الدين عندنا هو العمق الداخلي للروح لكنه في الصين لا يرتفع إلى هذه الدرجة التي تحتاج إلى الفرد في ذاته ولذاته . الامبراطور هو الذي يقترب من السماء ويقدم القرابين وصلاة الشكر والتضرّع . . الخ ـ عنصر السحر لكل مقاطعة روح حارس يطيع أوامر الامبراطور فهو المشرّع الخاص للسماء والأرض ـ الصينيون يؤمنون بالخرافات والسحر والعرافة والشعوذة والسبب افتقارهم إلى الاستقلال الذاتي . . . .

العلم : نقص الاستقلال الذاتي يظهر في العلم ـ الامبراطور يتربع على قمة الآداب ـ أكاديمية للعلوم يمتحن الامبراطور أعضاءها ويعيشون في

القصـر الامبراطـوري ـ الأساس الحـر للذاتية لا وجـود له . ليبنـتز يمتدح اللغة الصينية لأنها تعبر عن الأفكار بالعلامـات ـ ذلك عيب وليس مَيْـزة ـ العلوم عندهم تشمل دراسة أشياء محدودة دون دراسة الأساس الذي تقوم عليه ـ الفلسفة الصينية ـ كتاب الأقدار ـ العلوم الأخرى تستهدف غايـات عملية . . . .

شخصية الشعب الصيني : بعيدة عن كل ما يتعلق بالروح ـ بعيـدة عن الأخـلاق الذاتيـة الحرة التي تنبـع من الداخـل . بعيـدة عن الجـانب الباطني للدين والعلم والفن ـ الشعب ينظر إلى نفسـه على أنـه لم يولـد إلاّ ليجرّ عربة الامبراطور وهذا هو قدره . . . .

« **القسم الثاني** » ٩٧

« **الهند** » . . . .

كان التحديـد في الصين خـارجياً ومشكلة الـروح الآن الانتقال إلى الداخل لكن هذا الانتقال أحـال الوجـود الخارجي كله إلى خيـال . الهند أرض الأحلام ومثالية الوجود وتحويل الواقـع إلى خيال محض . الـروح في الهند في حالة حلم وهي تشبه جمال المرأة : البشرة الصافية عقب الولادة أو أثناء استغراقها في النوم ـ جمال الضعف والوهن يذوب فيه كـل اعوجـاج ـ خصائص الروح الحالمة بوصفها المبدأ العام للطبيعـة الهنديـة . . ما هي ؟ يعجز الفرد في حالة الحلم أن يعي نفسه وأن يفرِّق بينهـا وبين المـوجودات الأخـرى لكنه عنـدما يستيقظ يصبـح وجوداً لـذاتـه وتصبـح المـوجـودات الخارجية مـوضعاً خـارجياً ـ هـذا الانفصال لا وجـود له في حـالة الحلم ـ النـظرة الهنديـة وحدة وجـود لكن لقـوة الخيـال لا الفكـر ـ الـروح تضيـع وتصبح الأشياء المتنـاهية آلهـة وينحطُّ الإلهي ويصبح ملوثـاً ومدنسـاً ولغواً باطلاً ـ لم يكن خروج الهند سوى انتشار أبكم بغير تأثير فالشعب الهندي لم يقم بأية فتوحات خارجيةّ لكنه هو نفسه كان ميداناً للغزو الخارجي ـ الهند أرض مرغوبة . . . .

الحياة السياسية : كانت شخصية الامبراطور في الصين تستغرق كل الأفراد في وحدة اندماجية أمّا الخطوة التي تمثلها الهند في مسار التقدم هو الانتقال إلى **الاختلاف** . بحيث يتفرع الأعضاء المستقلون عن وحدة الاستبداد . لكن التمييزات هنا ترتد إلى الطبيعة لا إلى الروح ـ أحط مراتب القنانة للروح في الطبقات المقفلة . . . .

الطبقة الأولى هي طبقة البراهمة وقد خرجت من فم براهما ـ الطبقة الثانية هي طبقة المحاربين وقد خرجت من ذراعيه ـ والثالثة طبقة الفيزيا : الزراع والتجار وقد خرجت من حقويه ـ الرابعة ـ طبقة الخدم وقد انحدرت من قدميه . . . .

افترض بعض المؤرخين أن طبقة البراهمة تشكل في الأصل شعباً من الكهنة وذلك خرافة كبرى لأن التفرقة تفترض شعباً ما وكل طبقة تفترض الأخرى . . . .

الاعتراف بالتمييزات لا يعني ظهور الفردية فالشرق لا يعرف الذاتية الداخلية ، والفرد لا يختار طبقته بل يتلقاها من الطبيعة . الأفراد في النظام الاقطاعي في العصور الوسطى ـ الدين يتخذ موقفاً واحداً بالنسبة لكل الناس ـ الكرامة الأخلاقية الموجودة في كل طبقة عندنا ـ في الهند لا وجود للأخلاق أو العدالة أو التدين : الزوجة تحرق نفسها عقب وفاة زوجها وتحرق نفسها لأنها فقدت طفلها ـ لا احترام للحياة البشرية .

طبقة البراهمة : السمو الذي لا يبلغه الآخرون يكتسبه البراهمة بحق المولد ـ الطوائف الأخرى تبجّل البرهمي ـ قراءة الفيدا مُحرَّمة على غير البرهمي ـ المحبة الانسانية من الطائفة الأعلى تجاه الطائفة الأدنى ممنوعة تماماً ـ تتناسب زيادة العقوبات مع ازدياد دونية الطائفة ، البرهمي لا يدفع الضرائب . . . .

الدين : قيود الطبقة دينية أيضاً فالبراهمة هم الآلهة في حاضر جسدي ـ الروح لا يشكل مضمون وعيهم ـ الفضيلة هي التجرّد من كل

نشاط . اللطف ، والرقة ، والخيال الجميل ليست هي الاستقامة والأخلاق وحرية الروح والوعي بالحق الفردي ـ الخداع والمكر هما الخاصيتان الأساسيتان للرجل الهندي : الغش ، والسرقة والسلب والاغتيال أمور عادية ومألوفة ـ يحني رأسه في مذلة ومهانة أمام السيد المنتصر وهو متوحش قاس أمام المغلوب أو مَنْ هو أدنى منه .

الدولة الهندية : الدولة عموماً هي التحقق الفعلي للروح لذلك لا وجود لها في الهند ـ هنا شعب فحسب ـ كان الاستبداد أخلاقياً في الصين أمّا في الهند فالاستبداد بغير مبدأ أو قاعدة . يوجد في الهند أكثر ألوان الاستبداد تعسفاً وفساداً وانحطاطاً ـ آسيا بصفة عامة هي مسرح الاستبداد والطغيان بمعناه السيء ـ في الهند الاستبداد شيء عادي لأنه لا يوجد أي احساس ذاتي بالاستقلال الشخصي .

مقارنة بين الهند والصين : تتميز الصين بفهم واقعي ـ قوة الخيال هي المسيطرة في الهند ـ الصين الوحدة والهند الاختلاف والتنوع حتى أتفه الأعمال مقسمة إلى أجزاء ـ الصينيون لا يقدسون سوى السيد الأعلى ؛ في الهند . **حياتهم كلها خرافة** : كل شيء أحلام وعبودية

القسم الثاني (تابع) ١٣٧
الهند ـ البوذية

حياة الأحلام الخالية من القسر ـ سيلان وبيرما وسيارم وأنام والتبت . ديانة هذه الشعوب هي البوذية أوسع الديانات انتشاراً في الكرة الأرضية ـ يُعبَد بوذا في الصين باسم فو وفي سيلان باسم جواتاما ـ اللامية . فكرة العدم وارتباطها بفكرة تناسخ الأرواح ـ السعادة الحقيقية هي الاتحاد مع العدم ـ تجسيدات الإله المجرد في معلمين مثل بوذا وجواتاما وثلاثة من اللاما ـ الفرد بما هو كذلك ليس موضوعاً للعبادة بل

المبدأ الذي يجسِّده ـ تربية اللاما ـ اللاما ليس سيداً للطبيعة وإنما يكرّس نفسه للتأمل : الشامانية : ديانة السحر والشعوذة .

« القسم الثالث » ١٤٤

فارس

شعوب آسيا القريبة تنتمي إلى الجنس القوقازي أعني إلى العرق الأوروبي ـ التشابه الكبير بينهم وبين الأوروبيين ـ الامبراطورية الفارسية ميدان الارتباط والصلة في التاريخ ـ أول شعب حقيقي في التاريخ ولهذا زالت امبراطوريتهم ـ زرادشت ومبدأ النور ـ تفسير هذا المبدأ ـ التقسيم الجغرافي .

« الفصل الأول » ١٤٩

شعب الزند

استمد اسمه من اللغة ـ كتب الزند : الكتب الدينية للبارسيين القدماء أبحاث أنكتي دي بيرون ـ بقطرية هي ، فيما يبدو ، المقر الأصلي لشعب الزند . عقيدة زرادشت النور والظلمة : أهورامزدا وأهرمان ـ الوجود الكلي الذي يخلو من التضاد ـ الصراع بين إله النور وإله الظلمة ـ المطالب الأخلاقية ـ الونديدات . الطقوس والشرائع ـ الوصية العامة الكبرى ـ قورش ونهر جندز .

« الفصل الثاني » ١٥٨

الآشوريون ، والبابليون والميديون ، والفرس

عنصر الثروة والترف والتجارة في هذه الأمم ـ ملحمة الفردوسي الشهيرة : « الشاهنامة » تروي قصة النزاع بين إيران وطوران ـ آشور ونينوى وبابل ـ برج بابل الشهير ـ الميديون والمجوس ـ الارتباط الوثيق

بديانة الزند ـ الامبراطورية الآشورية البابلية ـ الشعب الفارسي ـ ليديا ـ
ليديا المستعمرات اليونانية .

« الفصل الثالث » ١٦٨

« الامبراطورية الفارسية والأجزاء التي تتكون منها »

الامبراطورية الفارسية تتألف من عدد من الدول كالامبراطورية الألمانية أو امبراطورية نابليون ـ لكل دولة طابعها الخاص ـ تشمل العناصر الجغرافية الثلاث أولاً الأراضي المرتفعة في فارس وميديا . ثانياً سهول نهري دجلة والفرات ،ومصر . ثالثاً ـ الدول الساحلية . وحدَّت فارس في ذاتها العناصر الطبيعية الثلاث .

« فارس » ١٦٩

الفرس شعب الجبال البدوي الحر ـ الطابع البدوي في حملاتهم الحربية أشبه بهجرة الشعوب ـ تربية الأمراء بعناية فائقة ـ تقسيم الامبراطورية إلى ولايات ـ الفرس يطلبون الأرض والماء فحسب .

سوريا وآسيا الغربية (الامامية) السامية ١٧٣

الساحل الفينيقي ـ سوريا والحضارة : التجارة والمكتشفات والنشاط في الصناعة ـ شجاعة التحدي وأخطار البحار ـ تصوراتهم الدينية : وثنية حسية وحشية في القبائل السورية : عشتاروت وسبيل ـ الحسية والقسوة ـ الطبيعة هي الأعلى والانسان لا قيمة له ـ الأطفال يُضحَّى بهم كقرابين ـ الخصيان وبغايا المعبد ـ الفينيقيون : شعب البحر الجسور ، يعبدون هرقل في مدينة صور ـ عبادة أدونيس شبيهة بعبادة أوزيريس ـ الألم عنصر في العبادة والتقديس حيث يشعر الانسان بذاتيته ـ حتى الإله يموت ـ النور والظلمة يتحدان في مبدأ واحد هو المطلق . في موت أدونيس وقيامته ما يجعل العيني يصل إلى الوعي .

« اليهودية » ١٨٠

العهـد القديم . فكـرة اليهود عن الله : فكـرة النور تصبـح يهوه أو الواحد الخالص ـ الروح في معارضة الـطبيعة : الـروح تهبط إلى أعماقهـا لتصـل إلى المبدأ الـروحي ـ وهذا مـا يفصل الشـرق عن الغـرب ـ كـانت الطبيعة في الشرق هي الوجود الأول أمّا الآن فالروح هي هـذا الوجـود . الله هو الخالق لجميع البشر ولكـل الطبيعـة ـ إله الشعب اليهـودي هو إلـه إبراهيم ونسله فقط والآلهة الأخـرى زائفة ـ التفـرقة مجـردة ـ مهما يكن من خطأ دين ما فيوجد فيه حضور إلهي وعـلاقة إلهيـة ـ الروح تبلغ لأول مـرة الجدارة التي تستحقها وترتدّ الـطبيعة إلى مكـانها الصحيح كشيء مخلوق ـ الله هـو سيد الـطبيعة ويمكن الآن أن تـظهر الأخـلاق الحقـة ـ الاستقـامـة والعمل الصالح ـ الشمس شمس والجبال جبال .

لكن الفـرد لم يصبح حـراً بعد ـ اسبينـوزا وشريعـة موسى التي هي ضـرب من العقاب فهي بمثـابة عصـا التأديب ـ لا يـوجد لـدى اليهود أي إيمان بخلود النفس ، الفرد لا قيمة له والأسرة تتمتع بالاستقلال ـ التاريخ اليهـودي تفسده سمـة الانغلاق كـما تفسده الخـرافة والمعجـزات ـ العـائلة تصبح أمّة ـ لكن ليس هناك وحدة سياسية ـ الانقسام إلى مملكتين ودخـول الوثنية ـ سيطرة الآشوريين والبابليين .

« مصر » ١٨٥

مصـر تستـرعي الانتبـاه فهي أرض الآثـار ـ العنـاصـر التي كـانت موجودة فُرادى في فارس تتحد في مصر ـ كان النور في فارس ماهية الطبيعة الكلية ثم انغمس المبدأ في الحسي عند البابليـين والسوريـين وظهر كـوعي اولي للروح عنـد أدونيس ثم فكر خـالص في اليهود أمّـا مصر فهي تُـوحّد هذه العناصر المتناقضة كلها ـ أبو الهول رمز الـروح المصري نصفـه حيوان ونصفه إنسان : الرأس البشري يمثل الروح وهي خارجة من الطبيعة دون أن تتحـرر منها تمـاماً . حضـارة المصريـين نصفهـا فـوق الأرض ونصفهـا تحتهـا ـ والأرض كلها مقسمـة إلى مملكة الحيـاة ومملكة المـوت ـ التمثالان

الهائلان لممنون يمجدان شمس الصباح الباكر - الروح تشعر بنفسها مكبوتة وتعبر عن نفسها لكن في إطار حسي .

مصر دائماً أرض العجائب - هيرودت والكهنة المصريون - الفنون المعمارية والكتابة الهيروغليفية وشامبليون - التاريخ المصري يختلط بالميثولوجيا - أول حاكم بشري هو الملك مينا - تاريخ مصر ينساب مثل النيل من الجنوب إلى الشمال طيبة ثم ممفيس وأخيراً ساس - ممارسة الختان منذ القدم . الصراع مع قسوة الحرارة ومع ماء النيل - الملوك العظام بناة الاهرامات : خوفو وخفرع ومنقرع - سيتو وابسماتيك وابنه نخاو - أمازيز وغضب الملك قمبيز - أطباء العيون المصريون على جانب عظيم من الشهرة .

الروح المصرية - الايليون يطلقون على المصريين لقب أحكم حكماء البشر - الذكاء النظري والتنظيم العقلي الكامل في مصر - سبع طبقات في مصر لكنها ليست جامدة وإنما كان بينها صراع واتصال - ثورة طبقة المحاربين .

الحياة لدى المصريين : أطباء متخصصون في أمراض خاصة - النساء تعمل خارج المنزل . تعدد الزوجات في منطقة والزواج بواحدة في منطقة أخرى - كل مصري يقدم نفسه ليبيّن مصادر رزقه - تقسيم الأراضي وشق القنوات - الطبقات الدنيا لا تعمل بالسياسة . نظام القضاء يُدَار بعناية بالغة - ثلاثون قاضياً للمحكمة - إقامة الدعاوى والرد عليها كتابة - القضاة يحملون على صدورهم رمزاً للحقيقة - الدهاء الذي اشتهر به المصريون . الحكمة والتعقل في التشريعات : قسّم المصريون السنة إلى اثني عشر شهراً والشهر إلى ثلاثين يوماً - صروحهم الهائلة تسمو على غيرها جميعاً - مصر عند القدماء هي النموذج للوضع الأخلاقي الحقيقي - هنا روح مختلف أتم الاختلاف عن النظام العيني - أساس حياة المصريين يحددها : النيل والشمس - ايزيس وأوزريس - الشمس هي الرمز الذي نتعرّف فيه على أوزريس الذي أدخل الزراعة واخترع

المحراث وشرّع للناس القوانين ـ الرمز والمغزى يتحول كل منهما إلى الآخر ـ أوزريس هو القوة التناسلية وايزيس هي الأرض ـ هرمز المصري ـ أنوبيس واختراع الكتابة ـ عبادة الحيوان تربط بين الروحي والطبيعي ـ ليست عبادة الشمس والنجوم أعلى قدراً من عبادة الحيوان بل العكس هو الصحيح ـ عبادة النفس الغامضة ، عند المصريين في اطار الحياة البيولوجية ـ شكل الحيوان يتحول إلى رمز ـ طرح المصريون على أنفسهم معنى الروحي في صورة اللغز ـ الصلة الوثيقة بالطبيعة مع محاولة كسرها ـ تمثلها عن طريق الفن تشكل أفكارها في حجارة وتنقش عليها ألغازها : هيروغليفيات ـ مملكة الموتى ـ المصريون أول مَنْ قال بخلود النفس ـ هذا يعني أن الفرد له قيمة لا متناهية ـ تناسخ الأرواح تحنيط الجسد ـ المحاكمة بعد الموت .

خصائص الروح المصري : عنصران أساسيان : الروح الغارق في الطبيعة مع محاولة التحرر منها ـ الوحدة المصرية لا هي كالوحدة الأولى المباشرة ولا كالوحدة العينية بل مرحلة وسط : فالجانب الحسي موجود جنباً إلى جنب مع الفهم المجرد .

« الانتقال إلى العالم اليوناني » ٢١٤

الروح المصري منغلق على نفسه لكنه يكافح للخروج من هذه الحدود ـ المصريون صبيان أقوياء يحتاجون إلى فهم واضح لأنفسهم ليكونوا شباباً . الأساس في الروح الشرقي هو أن جوهرية الروح مغموسة في الطبيعة ـ الروح تمثلت لوعيهم في صورة مشكلة نقوش تقول : « لم يرفع قناعي أحد» ـ شعار أبوللو: «اعرف نفسك» أبو الهول يظهر في طيبة ويطرح على أوديب اللغز ـ أبو الهول ينتحر ـ هذا هو الانتقال الداخلي من مصر إلى اليونان ـ أمّا الانتقال الخارجي فقد جاء عن طريق احتكاك اليونان بالفرس ـ لماذا بقيت الصين والهند ولم تبق الامبراطورية الفارسية ؟ انتقال السيادة من الفرس إلى اليونان ، ثم من هؤلاء إلى الرومان ومن الرومان إلى الجرمان .

العالم الشرقي

إذا كانت المؤلفات الهيجلية، بصفة عامة، تشتمل على معرفة فلسفية يجدر بنا تحصيلها، فإن هذا الكتاب بالذات يهمنا نحن الشرقيين بصفة خاصة. وما قولك في كتاب يحلل فيه عملاق الفكر الغربي حضارة الشرق القديم، وشخصية الانسان الشرقي من جوانبها جميعاً: الاجتماعية، والدينية، والسياسية، والفنية... الخ؟!

ما قولك، مثلاً، في تحليله لـ «مجتمع الذكور» الذي يسيطر فيه الرجل سيطرة كاملة وتتوارئ المرأة حتى لتصبح مجرد متاع لا قيمة له؟! خيط من الحضارة الصينية القديمة لكنه ما زال قائماً في مجتمعاتنا حتى اليوم! وما قولك في تباهي الطوائف المختلفة بسمو عقيدتها الدينية التي ورثتها بحق المولد كما كان يفعل براهمة الهنود؟! وماذا نقول في خصائص أخرى مثل: خلط الحلم بالواقع حتى ليصعب التمييز بينهما؟ أو الانغماس في الحس حتى الأذنين دون الارتفاع إلى الفكر المجرد؟ وما رأيك في الفضائل الأخلاقية عندما تصدر عن إلزام خارجي هو الخوف بأنواعه (من الأب أوالأسرة أو المجتمع أو الدين أو القانون ... الخ) بدلاً من أن تنبع من إلزامٍ باطني أعني من أعماق الذات البشرية الحقة؟!

ثم ماذا نقول لهيجل عندما يتحدث عن الرجل الشرقي الذي يحني رأسه في مذلة ومهانة أمام المنتصر وأمام السيد، لكنه متوحش قاسٍ إزاء المغلوب ومَنْ هو أدنى منه؟

ماذا نقول لهيجل عندما يصف المجتمع الشرقي بأنه لم يعرف من الحرية إلاّ حرية الحاكم: فهو وحده الفعاّل لما يريد والكل عبيد يأتمرون بأمره! ثم حين يعود ليصف حرية هذا الحاكم بأنها زائفة لأن الحرية الحقة هي الخضوع لـ «الكلي» أي الجانب العقلي، أمّا الحاكم الذي تسيّره أهواؤه ونزواته، أي الجانب الجزئي، فهو عبد بدوره!

نقول: صدقت! وإنّ كان تشريحك قاسياً، لكنا سنتعلم الدرس جيداً وسوف يستيقظ فينا الوعي مرة أخرى، وسوف نتذكر دائماً أن صاحب هذا المبضع الحاد هو نفسه الذي قال: من الشرق بزغ نور الحضارة، وبدأ التاريخ الكلي عندما شرعت الروح، لأول مرة، تسعى حثيثا نحو الوعي بذاتها، أعني نحو الحرية!

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - هاتف - ٠٠٩٦١١٤٧١٣٥٧ - ٠٠٩٦١٣٧٢٨٤٧١

Email: kansopress@yahoo.com

توزيع دار الفارابي

علي مولا